مختارات من القصص القصيرة

وليام سدني بورتر

ترجمة عبد الله يحي عبد المؤمن

مختارات من القصص القصيرة

تأليف
وليام سدني بورتر

ترجمة
عبد الله يحيى عبد المؤمن

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد

هنـــداوي

مختارات من القصص القصيرة

Selected Stories of O’Henry

وليام سدني بورتر

William Sydney Porter

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٨٣٦ ٤

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية ١٨٩٩–١٩١٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

شبح فرصة	٧
المحققون	١٥
خُبز الساحرات	٢٣
أكتوبر ويونيو	٢٧
تحوُّل مارتن بيرني	٣١
الحُلم	٣٧
آخر ورقة شجر	٤١
قصة جريدة	٤٩
العصافير في ميدان ماديسون	٥٣
الطرف المذنب	٥٩
القلوب والأيادي	٦٧
سجين زيمبلا	٧١
فدية الزعيم الأحمر	٧٣
«فتاة»	٨٥
مأساة هارلم	٩١
سيدا عيد الشكر	٩٩
البندول	١٠٥
المثلث الاجتماعي	١١١
روب السلام	١١٧
«ماذا تريد»	١٢٣

نبتة الصبَّار ١٢٩
المطعم والوردة ١٣٣
الكونت وضيف حفلة الزفاف ١٣٩
قصة عجيبة ١٤٧
زائرا أركاديا ١٤٩

شبح فرصة

ردَّدَت السيدة كينسلوفينج بشكل مثير للشفقة: «في الحقيقة، لقد كان حاملَ طوب.»

رفعَت السيدة بيلامي بيلمور حاجبَيها في تعاطف. وهكذا عبَّرَت عن مزيج من التعزية، وإحساسٍ غامر بالمفاجأة.

أكملَت السيدة كينسلوفينج حديثها: «تصوَّري أنها أخذَت تردِّد في كل الأرجاء أنها شاهدَت شبحًا في الغرفة التي استقبلناها بها هنا — الغرفة المخصَّصة للزوار — شبحًا يحمل حامل طوب على كتفه؛ إنه شبح رجل مُسن يرتدي زي عمال البناء، ويدخن غليونًا ويحمل حامل طوب! إن سخافة الكلام توضح مدى سوء نيتها. لم يحمل أيُّ فردٍ من عائلة كينسلوفينج حاملَ طوب قَط! ويعلم الجميع بأن والد السيد كينسلوفينج جمع ثروته من إبرام عقود مشاريع بناء ضخمة، لكنه لم يعمل يومًا بيدَيه في تلك المشاريع. وقد تمكَّن من بناء ذلك البيت من خلال خطَطه، لكن، يا للهول، حامل طوب! ما الحاجة إلى أن تكون بتلك الدناءة والقسوة؟»

تمتمَت السيدة بيلمور، بنظرة مؤيدة من عينَيها النجلاوَين، في أنحاء الغرفة الشاسعة المطلية باللونَين الأصفر الداكن والبنفسجي الفاتح: «إنه لأمرٌ مؤسف للغاية حقًّا، وقد ادَّعَت أنها رأت هذا الشبح بتلك الغرفة. حسنًا، أنا لا أخاف من الأشباح. ولا أحمل ذرة خوف تجاهها. في الحقيقة أنا سعيدة أنكِ استضفتِني بتلك الغرفة. أرى أن أشباح العائلة شيء مثير للاهتمام. لكن تبدو تلك القصة غير مقنعة حقًّا. لقد توقعتُ حبكة أفضل من السيدة فيشر سيمكينز. أليس من المفترض أن يحملوا قوالب طوب داخل حامل الطوب؟ لماذا إذن يُحضر الشبح قوالب طوب إلى فيلا مبنية من الرخام والحجارة؟! أنا آسفة جدًّا، لكن ذلك يجعلني أشعر بأن عامل السن بدأ يترك أثره على السيدة فيشر سيمكينز.»

أكملَت السيدة كينسلوفينج قائلة: «شُيدَ ذلك المنزل على أنقاض منزلٍ قديم للعائلة في أثناء الثورة. لذا ليس من الغريب أن يحتوي على شبح. وقد اشتملَت العائلة على الكابتن كينسلوفينج، الذي حارب مع جيش الجنرال جرين آنذاك، وإن كنا لم نتمكَّن قَط من الوصول إلى أي مستندات تُثبت حقيقة ذلك. لكن إذا لزم الأمر أن يحضُر شبح لعائلتنا، فلِمَ لا يكون شبح الكابتن كينسلوفينج بدلًا من مجرد عامل بناء؟»

أيَّدَت السيدة بيلمور كلامها: «ظهور شبح لسلفٍ ثوري فكرةٌ جيدة، لكنكِ تعلمين كيف أن الأشباح تكون عشوائية وغير مراعية. إنها، مثل الحب، «تكمُن فقط في عين الرائي». هؤلاء الذين يرون الأشباح لديهم ميزة؛ ألا وهي عدم إمكانية تكذيب قصتهم. والعين الحاقدة قادرة بسهولة على تحويل حقيبة الظهر الخاصة بثائر إلى حامل طوب. عليكِ ألا تهتمي بهذا الأمر يا عزيزتي السيدة كينسلوفينج. أنا واثقة أن حامل الطوب كان حقيبة ظهر.»

بدَت السيدة كينسلوفينج غير قابلة للمواساة؛ فقد استكملَت ندبها قائلة: «ولكنها أخبرت الجميع! وأصرَّت على تفاصيل حكايتها. فقد ذكرت الغليون. ثم كيف تفسرين زي العمل الذي يرتديه الشبح؟»

قالت السيدة بيلمور، مقاومةً للنعاس بتثاؤبٍ مكتوم: «لا يمكنها التأثير عليهم، أشعر أن جسدي متصلب ومشدود للغاية. هل هذه أنتِ يا فيليس؟ فلتُجهِّزي الحمام من فضلك. هل تتناولين العشاء في السابعة في كليفتوب يا سيدة كينسلوفينج؟ إنه لمن حسن ضيافتك أن تتفضلي بالتحدث معي قبل العشاء. أنا أعشق تلك اللمسات غير الرسمية مع الضيوف. فهي تُعطي طابعًا مُرحِّبًا للزيارة. لكن آسفة، ينبغي أن أذهب لارتداء ملابسي. أنا شخصٌ متراخٍ ودائمًا ما أؤجل الأمر إلى آخر لحظة.»

السيدة فيشر سيمكينز كانت أول سيدة مهمة تجتذبها عائلة كينسلوفينج من الدائرة الاجتماعية العليا. لفترةٍ طويلة، ظلت تلك الدائرة عصية على الوصول إليها بالنسبة إليهم. إلا أن الثروة والمثابرة قصَّرتا في النهاية تلك المسافات. كانت السيدة فيشر منارة المجتمع الراقي. فقد تخطَّى بريق ذكائها وأفعالها الحدود المجتمعية؛ فكانت تحدد أحدث وأجرأ الصيحات لأولئك الذين يرغبون في اتباعها. سابقًا، كانت شهرتها وتأثيرها يؤمِّنان لها الاكتفاء؛ بحيث لم تكن تحتاج إلى الحيل التي لا تليق بمكانتها، والتي تسعى من خلالها للَفت الأنظار إليها. لكن الآن، تلك الأمور أصبحت ضرورية في سبيل التمسك بسلطتها. بالإضافة إلى ذلك، خيم شبح منتصف العمر بِثِقَله عليها ولم يعُد ما كانت تفعله في شبابها

ملائمًا لها الآن. وقلَّصَت صحف الإثارة من تغطيتها لها من صفحة إلى عمودَين. فتطوَّر دهاؤها ليصبح أقرب لسلاح، وبدا سلوكها لاذعًا وغير مراعٍ أكثر من أي وقتٍ مضى، كما لو أنها تشعر بالحاجة المُلحَّة إلى تأكيد تفوُّقها من خلال احتقار القواعد التي تحكُم الأشخاص الأقل في المكانة الاجتماعية.

ببعض الضغط من جانب عائلة كينسلوفينج، كانت السيدة فيشر قد تنازلَت، وقرَّرَت أن تُشرفهم بزيارة لمنزلهم أمسية وليلة واحدة. وفي تلك الأثناء، حصلَت على انتقامها من مضيفتها؛ حينما سردَت قصتها، باستمتاع متجهم وحس ساخر، عن الشبح حامل الطوب المزعوم. وبالنسبة إلى المضيفة، التي سعدَت كثيرًا لاقترابها من تلك الدائرة الاجتماعية الراقية، كانت النتيجة محبِطةً بشدة. فقد انقسم رد فعل الجميع تجاه القصة بين متعاطف وضاحك، ولم تكن أيٌّ من الاستجابتَين جيدةً بالنسبة إليها.

لكن فيما بعدُ، استعادت السيدة كينسلوفينج آمالها وحيويتها من خلال جائزة أخرى أكبر.

إذ قَبِلت السيدة بيلامي بيلمور دعوتها لزيارة منزلهم «كليفتوب»، والبقاء ثلاثة أيام. تُعدُّ السيدة بيلمور إحدى الشابات التي أسهم جمالها ونسبها وثروتها في الحصول على مكانة محفوظة بين عِلْية القوم من دون مشقة. لقد كانت السيدة بيلمور كريمة لمنحها السيدة كينسلوفينج شرفَ استضافتها الذي رغبَت فيه بشدة، وفي الوقت نفسه كانت تعرف كم ستُسعِد تلك الزيارة تيرنس. إذ ربما تكون سببًا في حل مشكلته.

تيرنس هو ابن السيدة كينسلوفينج، وهو شاب يبلغ من العمر ٢٩ سنة، ويحظى بقدْرٍ كافٍ من الوسامة، ولدَيه صفتان أو ثلاث تشي بالجاذبية والغموض في الوقت نفسه. فهو ابنٌ مُحب على نحوٍ واضح لوالدته، وهو أمرٌ غريب بالقدْر الكافي بحيث يستحق الملاحظة. وكذلك اعتاد أن يثير ضيق الآخرين بسبب قلة كلامه، وبدا كما لو أنه شديد الخجل أو شديد العمق. لفت تيرنس اهتمام السيدة بيلمور؛ لأنها لم تكن تعلم أي حال من الاثنَين كان عليه تيرنس. لقد قرَّرَت أن تدرس حالته فترة أطول قليلًا ما لم تنسَ الأمر برمته. إذا كان خجولًا فقط، فسوف تتركه؛ لأن الخجل يجلب الضجَر. وإذا كان عميقًا، فسوف تتركه أيضًا، لأن العمق غموض.

في عصر اليوم الثالث من زيارتها، بحث تيرنس عن السيدة بيلمور، ووجدها جالسة في مكانٍ منعزل بالمنزل تتصفح ألبوم صور.

فقال لها: «لقد كانت لفتةً طيبة منكِ أن تأتي إلى هنا وتنقذي الموقف من أجلنا. أفترض أنكِ على علم بأن السيدة فيشر قد خرقَت السفينة قُبيل مغادرتها. لقد أطاحت

بلوحٍ كامل من أسفلها مستخدمةً حامل طوب! والدتي تعاني الأمرَّين جرَّاء ذلك. يا سيدة بيلمور، ألا يمكنكِ أن تري لنا شبحًا خلال إقامتك معنا؛ شبحًا موقرًا، مكلَّلًا بتاجٍ، وسائرًا بدفتر شيكات أسفل ذراعه؟»

فردَّت عليه السيدة بيلمور: «إنها امرأةٌ عجوز خبيثة يا تيرنس بحيث تسرد مثل هذه القصص. ربما بالغتم في إكرامها على العَشَاء. لا تأخذ والدتك الأمر على محمل الجد، أليس كذلك؟»

أجابها تيرنس: «بل أعتقد أنها تكترث للأمر. يبدو الأمر وكأن كل قالب طوب داخل حامل الطوب قد سقط على رأسها المسكين. إنها أمٌّ صالحة، ولا أحب أن أراها منزعجة. حبذا لو كان الشبح عضوًا في نقابة حاملي حاملات الطوب، وقد خرج لتوه في إضراب. فلو لم يكن كذلك، فلن تحل الطمأنينة على ذلك المنزل مجددًا.»

أضافت السيدة بيلمور بنبرة متأملة: «أنا أنام في غرفة الشبح. لكنها غرفةٌ رائعة ولا أبتغي تغييرها، حتى ولو كنتُ خائفة وأنا لستُ كذلك. لكنني لا أرغب في أن أسرد قصةً مضادة لشبحٍ أرستقراطي موقَّر، أليس كذلك؟ أنا لا أمانع في فعل ذلك، لكن يبدو لي أنها ستظهر كترياقٍ مضاد وغير فعَّال للقصة الأخرى.»

رد تيرنس وهو يمرر اثنَين من أصابعه عبْر شعره البني الموج قائلًا: «أنت مُحقَّة في أن هذا لن يُجدي إطلاقًا. إذن كيف ستكون النتيجة إذا رأيتِ الشبح نفسه من دون زي عامل البناء، ويحمل قوالب ذهبٍ داخل الحامل؟ هذا من شأنه أن يُرقِّي الشبح من كادحٍ مَهين إلى مُخطِّطٍ اقتصادي. ألا تعتقدين أن تلك ستكون قصةً تلقى احترامًا كافيًا؟»

فقالت: «لقد كان أحد أسلافكم ممن حاربوا ضد البريطانيين، أليس كذلك؟ والدتك أخبرتني شيئًا من هذا القبيل.»

فأجابها: «أعتقد ذلك؛ واحد من هؤلاء الرجال القدامى الذين يرتدون سترات بأكمام رَجلان وسراويل الجولف. أنا لا أعبأ بهؤلاء العسكريين كثيرًا. لكن والدتي تهتم كثيرًا بقصص الفخر وشعارات النبالة والمكانة الاجتماعية، ولا أريد لها سوى السعادة.»

أزاحت السيدة بيلمور ثوبها لتُفرغ مكانًا بجانبها، وقالت: «أنت ابنٌ بار يا تيرنس، ولا ترضى بهزيمة والدتك. تعالَ، اجلس هنا بجانبي، ودعنا نتصفح ذلك الألبوم، كما اعتاد الناس أن يفعلوا قبل عشرين سنةً مضت. والآن أخبرني عن كل شخص بتلك الصور. من ذلك الرجل الوقور المهيب الذي يسند إحدى ذراعَيه على العمود الكورنثي؟»

تساءل تيرنس وقد تلَع عنقُه: «هذا الرجل العجوز ذو القدمَين الكبيرتَين؟ هذا عمِّي الأكبر أوبرانيجان. كانت لديه حانة تحت مستوى الشارع في شارع باوري.»

«لقد طلبتُ منك أن تجلس يا تيرنس. إذا لم تسايرني وتطِعني، فسأُشيع في الصباح بأنني رأيتُ شبحًا يرتدي مريلة ويحمل كئوسًا كبيرة من الجِعة. جيد، هذا أفضل. أن تكون خجولًا في مثل عمرك يا تيرنس، هي صفة يجب أن تزدريها.»

وفي أثناء وجبة الإفطار من الصباح الأخير لزيارتها، فاجأَت السيدة بيلمور جميع الحاضرين وأدهشَتهم بإعلانها، على نحوٍ قاطع، أنها رأت الشبح.

سألَت السيدة كينسلوفينج: «هل كان معه ...؟» وفي حالة الإثارة والاهتياج العاطفي لم تستطِع إكمال الكلمة.

فقالت السيدة بيلمور: «لا بالطبع، بل أبعد ما يكون عن ذلك.»

انهال سيل الأسئلة من كل الجالسين على الطاولة. «ألَم تخافي؟» «ماذا فعل الشبح؟» «ماذا فعل؟» «ماذا كان يرتدي؟» «أنطَق بشيء؟» «هل صرختِ عند رؤيته؟»

فردَّت السيدة بيلمور بنبرة بطولية: «سأحاول الإجابة عن كل شيء مرةً واحدة، بالرغم من أنني أتضور جوعًا. شيء ما أيقظني — ولا أدري ما إذا كان ضوضاء أم لمسة — ووجدتُ الشبح يقف أمامي. من عادتي ألا أشعل ضوءًا في الليل؛ لذا كانت الغرفة مظلمة تمامًا، ومع ذلك رأيتُه بوضوح. لم يكن حُلمًا. لقد كان رجلًا مَهيبًا يكسوه اللون الأبيض من رأسه لأخمص قدمَيه. كان يبدو تمامًا مثل الرجال في زمن الاستعمار القديم؛ الشعر الموضوع عليه مسحوق، وتنورة المعطف الفضفاضة، والزينة المصنوعة من الدانتيل وسَيف. بدا ساحرًا ومضيئًا في الظلام، وتحرك دون أن يصدر صوتًا. نعم لقد كنتُ خائفة نوعًا ما في البداية، أو يمكن القول مندهشة. إنه أول شبح أراه في حياتي. لا، لم ينطق بحرفٍ واحد، وأنا لم أصرخ عند رؤيته. رفعتُ مرفقي إلى أعلى، ثم تسلل بعيدًا بهدوء حتى اختفى فور وصوله إلى باب الغرفة.»

كانت السيدة كينسلوفينج في قمة السعادة. وردَّت بصوت يملؤه الفخر والطمأنينة: «هذا الوصف هو للكابتن كينسلوفينج المنتمي لجيش الجنرال جرين، أحد أسلاف عائلتنا، ينبغي حقًّا أن أعتذر لكِ بالنيابة عن شبح قريبنا يا سيدة بيلمور. أخشى أنه قد أزعج راحتك.»

بعث تيرنس ابتسامة مُهنِّئة لوالدته. لقد نالت مرادها أخيرًا، وأحب رؤية والدته سعيدة.

استأنفت السيدة بيلمور تناول إفطارها باستمتاع، وخلال ذلك أوضحَت: «أفترض أنه كان يجب أن أخجل من اعترافي بأنني لم أنزعج كثيرًا. أعتقد أن الشيء المنطقي في هذه الحالة هو أن أصرخَ وأُصابَ بالإغماء، وأدفعكم للهرولة ليلًا إليَّ في ثيابكم غير المهندمة. لكن في الحقيقة، وبعد مرور الصدمة الأولى، لم أرَ من داعٍ للدخول في نوبة فزع. الشبح انسحب من المكان في هدوء وسكينة، بعد ظهوره القصير، وعُدتُ مجددًا لنومي.»

أجمع كل الذين أنصتوا إلى القصة تقريبًا، بأدب، أنها قصةٌ مُلفَّقة، قُدمَت بلطف من السيدة بيلمور كتعويض عن الرواية الفظة التي أشاعتها السيدة فيشر سيمكينز. لكنَّ اثنَين أو ثلاثة من الحاضرين استقبلوا تأكيداتها على أنها تعبيرٌ صادق على قناعاتها. وبدا أن الحقيقة والصراحة كانتا حاضرتَين في كل كلمة قالتها. فحتى المستهزئ بمسألة الأشباح — إذا كان شديد الملاحظة لما قيل — كان سيُجبر على الإقرار بأنها، على الأقل في حُلمها الواضح للغاية، كانت على دراية صادقة بالزائر العجيب.

بعد فترة قصيرة، كان خادم السيدة بيلمور يُجهِّز حقائبها استعدادًا للرحيل. وفي خلال ساعتَين كانت ستأتي السيارة لتوصيلها إلى المحطة. وبينما كان تيرنس يتنزَّه في الشرفة الشرقية للمنزل، أتت السيدة بيلمور إليه، وفي عينها بريقٌ خفي.

وقالت: «لم أشأ أن أُفشيَ إلى الحاضرين كل ما حدث، لكنني سأخبرك. فأنا أعتقد أنك مسئولٌ بشكلٍ ما. هل لك أن تخمِّن بأي طريقة أيقظني هذا الشبح الليلة الماضية؟»

فأجاب تيرنس مقترحًا بعد لحظات من التفكير: «السلاسل المجلجلة، أو الأنين؟ عادةً ما تستخدم الأشباح إحدى هاتَين الطريقتَين.»

فجأةً غيَّرت السيدة بيلمور مسار الحديث، وسألَته: «هل تعتقد أنني أُشبه بأي درجة إحدى قريبات جدك الحائر، الكابتن كينسلوفينج؟»

رد تيرنس وقد بدا عليه الحَيْرة الشديدة: «لا أعتقد ذلك. لم أسمع قَط أنه كان لإحداهن جمالٌ ملحوظ.»

فقالت السيدة بيلمور وهي تنظر بتحدٍّ في عينَي الشاب الصغير: «إذن لماذا قَبَّلني ذلك الشبح، بما أنني على يقينٍ تام من أنه فعل هذا؟»

قال تيرنس متعجبًا ومندهشًا بشدة: «يا إلهي، أنتِ لا تعنين ذلك يا سيدة بيلمور؟! هل حقًّا قبَّلكِ الرجل؟»

صحَّحَت السيدة بيلمور كلامه قائلة: «إنني أتحدث عن الشبح. أتمنى أن يكون كلامي واضحًا.»

فسأل: «لكن لماذا قلتِ إنني مسئول؟»

فردَّت: «لأنك الرجل الحي الوحيد الذي على صلة قرابة بالشبح.»

«فهمتُ. لكنها قرابةٌ من الجيل الثالث أو الرابع. لكن أخبريني حقًّا هل قام الرجل ... الشبح ... كيف لكِ أن ...؟»

فأجابت: «أن أعلم؟! كيف يمكن لأي شخص أن يعلم أمرًا كهذا؟ كنت نائمة، وأنا شبه متأكدة من أن هذا هو ما أيقظَني.»

فاستفسر: «شبه؟»

فقالت: «حسنًا، لقد استيقظتُ حين ... أوه، ألا يمكنك أن تفهم ما أعنيه؟ عندما يوقظك شيءٌ فجأة، لا تكون واثقًا تمامًا إذا كنت تحلم أو ... ومع ذلك أنت تعلم أن ... يا إلهي! يا تيرنس، هل ينبغي أن أفسر لك أكثر الأحاسيس بدائية كي أواكب ذكاءك العملي للغاية؟»

فأجابها بتواضع: «لكن بخصوص تقبيل الأشباح، بالطبع سأريد أكثر التوصيفات بدائية، فأنا لم أقبِّل شبحًا من قبلُ قَط. هل هو ... هل هو ...؟»

ردَّت السيدة بيلمور، بتأكيدٍ متأنٍّ ولكن تغمره ابتسامةٌ خفيفة: «الإحساس، بما أنك تسأل، كان خليطًا ما بين المادي والروحي.»

فقال تيرنس وقد بدَت عليه فجأة الجدية: «بالطبع، لقد كان حُلمًا أو نوعًا من الهلوسة. لا أحد يؤمن بالأشباح هذه الأيام. إذا كنتِ تسردين القصة بدافعٍ من طيبة قلبكِ يا سيدة بيلمور، فلا يسعني إلا أن أكون ممتنًّا لكِ. فقد جعلتِ والدتي في منتهى السعادة، وفكرة الجد الثائر كانت مذهلة.»

تنهَّدَت السيدة بيلمور. ثم قالت مستسلمة: «إن هذا هو القدَر المعتاد لمن يرونَ الأشباح. مقابلتي الخاصة مع الشبح ترجع لعسر الهضم الناتج عن تناول سلطة جراد البحر أو للتعود على الكذب. على الأقل لديَّ ذكرى واحدة من هذا الأمر، قُبلة من العالم الآخر. هل تعلم يا تيرنس إن كان الكابتن كينسلوفينج رجلًا شجاعًا للغاية؟»

فردَّ تيرنس متأملًا: «لقد هُزم في يورك تاون، على ما أعتقد. يُقال إنه فرَّ هو ورفقتُه بعد أول معركة هناك.»

قالت السيدة بيلمور بذهن شارد: «أعتقد أنه لا بد أن يكون جبانًا. ربما حصل على فرصةٍ أخرى.»

فتساءل تيرنس ببلادة: «معركة أخرى؟»

فردَّت السيدة بيلمور: «ماذا يمكن أن أعني غير ذلك؟ يجب أن أذهبَ وأستعدَّ الآن؛ ستصل السيارة في غضون ساعة. لقد استمتعتُ بالإقامة في كليفتوب كثيرًا. يا له من صباحٍ مشرق! أليس كذلك يا تيرنس؟»

وفي طريقها إلى المحطة، أخرجَت السيدة بيلمور من حقيبتها منديلًا حريريًّا، ونظرَت إليه بابتسامة مميزة. ثم عقدَت المنديل بسلسلة من العقد الكثيرة المُحكَمة، وعند لحظةٍ معينة، رمته على حافة المنحدر على طول الطريق.

كان تيرنس جالسًا في غرفته يعطي خادمه بروكس بعض التعليمات. فقال: «احزم هذه الأشياء في طرد، واشحنه إلى العنوان المدوَّن على البطاقة.»

البطاقة كانت لعميل من نيويورك. وهذه «الأشياء» كانت زيًّا لرجلٍ نبيل يرجع عمره إلى القرن الثامن عشر؛ عبارة عن رداءٍ من الحرير الأبيض وأبازيم فضية وجوارب بيضاء من الحرير وحذاء أبيض مصنوع من جلد الجدي. وأكمل هذا الزي شعرٌ مستعار يغطيه مسحوق وسَيف.

واستكمل تيرنس تعليماته لبروكس ببعض القلق: «وابحث يا بروكس عن منديلٍ حريري مطبوع على أحد أطرافه الأحرف الأولى لاسمي. لا بد أنني أسقطتُه في مكانٍ ما.»

مَر ما يقارب الشهر، عندما كانت السيدة بيلمور، ومعها نبيل أو نبيلان آخران، يُعِدُّون قائمة بالأسماء المشاركة برحلة بالعربات إلى جبال كاتسكيل. أمعنَت السيدة بيلمور في القائمة لمراجعتها مرةً أخيرة. وكان اسم تيرنس كينسلوفينج في القائمة. مرَّرتِ السيدة بيلمور سن قلمها لتشطب على اسم تيرنس برفق.

وتمتمَت بعذوبة مُفسرةً: «إنه شديد الخجل!»

المحققون

في دهاليز المدن الكبرى، يختفي الشخص اختفاءً تامًّا ومفاجئًا مثلما ينطفئ لهيب شمعة مشتعلة. ومن أجل البحث عنه، يجري استدعاء جميع جهات التحري؛ كلاب التعقب، ومحققي أقسام المدينة، وكذا المحققون أصحاب النظريات والرؤى الاستقرائية. في الغالب، لن يرَى أحدٌ وجه ذلك المفقود مجددًا. أحيانًا يظهر مجددًا في مدينة شيبويجن، أو في براري مدينة تيرا هوت، مُطلقًا على نفسه أحد الأسماء المشابهة لـ «سميث»، وناسيًا الأحداث حتى وقتٍ معين، وفيها فاتورة البقالة الخاصة به. أحيانًا سيُكتشَف — بعد البحث في الأنهار، وسؤال أصحاب المطاعم لمعرفة إذا كان ينتظر أن تُقدم له شريحة لحم بقري مطهوة جيدًا — أنه قد انتقل للعيش في المبنى المجاور.

ذلك التبخر الفوري لشخصٍ ما، الذي يشبه محو رسمة لشخص بالطباشير من سبورة سوداء، طالما كان أحد أكثر المواضيع إبهارًا في تاريخ فن التمثيل الدرامي.

قضية ماري سنايدر، على سبيل المثال، لا يجب تجاهلها.

رجلٌ في منتصف العمر، يُدعى ميكس، سافر من الغرب الأمريكي إلى نيويورك للبحث عن أخته السيدة ماري سنايدر؛ وهي سيدة أرملة، تبلغ من العمر ٥٢ عامًا، وقد مكثَت لمدة عام في غرفة بمجمعٍ سكني داخل أحد الأحياء المزدحمة.

حينما وصل ميكس إلى عنوان أخته، أخبروه أنها قد رحلَت منذ شهرٍ مضى. وكان عنوانها الحالي مجهولًا للجميع.

عند خروجه إلى ناصية الشارع، توجَّه السيد ميكس إلى شرطي يقف على الناصية وشرح له مشكلته.

إذ قال: «أختي فقيرة للغاية، وأنا أرغب بشدة في إيجادها. لقد كسبتُ أخيرًا الكثير من المال من منجم لاستخراج الرصاص، وأريدُها أن تشاركَني حياتي الرغدة. وليس من فائدة في نشر إعلان عنها؛ لأنها لا تجيد القراءة.»

تحسَّس الشرطي شاربه ونظر نظرةً ملؤها التفكير والشموخ، مما دفع ميكس إلى الاعتقاد بأنه قارَبَ على إيجاد أخته، وتخيل دموع الفرح تسيل منهمرةً على خدَّيها لتُبلل ربطة عنقه الزرقاء وهي تعانقه.

فقال الشرطي: «اذهَب إلى حي كانال ستريت، واحصُل على عمل سائق لأكبر عربة لنقل الأثقال يمكن أن تجدها. كثيرًا ما تصطدم السيدات العجائز بهذه العربات هناك. ولربما تكون شقيقتك إحداهن. إذا لم تشأ فعل ذلك، فمن الأفضل أن تذهب إلى مركز الشرطة وتطلب منهم أن يُعيِّنوا محققًا للبحث عن السيدة.»

تحصَّل ميكس على المساعدة حينما وصل إلى مركز الشرطة. إذ أُرسِلَت مذكرة عامة بالأمر ووُزعَت نُسَخ من صورة ماري سنايدر كان قد قدَّمها ميكس على جميع مراكز الشرطة. بعدها عيَّن رئيس المركز المحقق مولينز الذي يقع مكتبه في شارع مولبيري للتحقيق في القضية.

انفرد المحقق بميكس جانبًا وقال له:

«هذه ليست بالقضية العصية جدًّا على الحل. احلِق لحيتك، واملأ جيوبك بالسيجار الجيد، وقابِلني في مقهَى فندق والدورف في الساعة الثالثة عصر اليوم.»

بالفعل أطاعه ميكس. ووجد مولينز في انتظاره. شربا زجاجةً من النبيذ في أثناء طرحِ المحقق بعضَ الأسئلة بخصوص السيدة المفقودة.

قال مولينز: «حسنًا، نيويورك مدينةٌ كبيرة، لكن نظام التحقيق لدينا منهجي ومنظَّم. هناك طريقتان للبحث عن شقيقتك. سنجرِّب إحداهما أولًا. لقد أخبرتَني أنها في الثانية والخمسين من عمرها، أليس كذلك؟»

فردَّ ميكس: «تخطَّت ذلك بقليل.»

أخذ المحقق السيد ميكس إلى أحد المكاتب الفرعية للإعلانات الخاصة بواحدة من أكبر الصحف اليومية. وهناك دوَّن المحقق «الإعلان» التالي وعرضَه على ميكس:

«مطلوب على الفور، مائة فتاةٍ جذابة لجوقة من أجل عملٍ كوميدي موسيقي جديد. تقدَّمن على مدار اليوم على رقم ... مسرح برودواي.»

غضب ميكس.

وقال: «أختي امرأة فقيرة، وكادحة وعجوز. لا أدري كيف يُمكن أن يفيدنا إعلان مثل ذلك في إيجادها.»

فردَّ المحقق: «لا مشكلة. أعتقد أنك لا تعرف نيويورك جيدًا. لكن إذا كانت لا تعجبك هذه الخطة، فيمكننا أن ننتقل إلى الأخرى. وهذه الخطة الثانية نجاحها أكيد. لكنها ستكلفك المزيد من المال.»

قال ميكس: «لا تهم التكلفة، دعنا نجربها.»

عاد المحقق برفقة ميكس إلى مقهى والدورف. وقال له: «احجز غرفتَين وصالونًا، ودعنا نصعد إلى هناك.»

أتم ميكس الطلبات وصعد الاثنان إلى جناحٍ فخم في الطابق الرابع. لكن ميكس بدا في حَيْرة مما يحدث. غاص المحقق في كرسي مخملي ذي ذراعَين وأخرج عُلبة سيجاره.

ثم قال: «لقد نسيتُ أن أخبرك يا صديقي أنه يجب أن نحجز الغرفتَين لمدة شهر. لن تغرم بذلك الكثير.»

فصاح ميكس: «شهر! ماذا تعني؟»

فاستطرد المحقق: «سنحتاج وقتًا لتنفيذ تلك الخطة. أخبرتُك أنها ستكلفك المزيد. سيتعين علينا أن ننتظر حتى حلول فصل الربيع. وقتها سيصدر دليلٌ جديد لسكان المدينة وعناوينهم. ومن المحتمل جدًّا أن يظهر اسم شقيقتك وعنوانها به.»

هنا قرر ميكس الاستغناء عن خدمات المحقق. وفي اليوم التالي، نصحه أحدهم بأن يستشير المحقق الخاص الشهير في مدينة نيويورك؛ شامروك جولنيز، والذي أتعابه كبيرة جدًّا، لكنه حقَّق نتائج مبهرة فيما يتعلق بحل الجرائم والقضايا الغامضة.

جلس ميكس بغرفة الانتظار لما يقارب الساعتَين في شقة المحقق الكبير، حتى حضر المحقق لمقابلته. جلس المحقق جولنيز مرتديًا رداءً أرجوانيًّا أمام طاولة شطرنج مرصَّعة بالعاج، وأمامه مجلة كان يحاول أن يحل إحدى أحاجيها. اتسم ذلك المحقق الشهير بملامحَ غنية عن الوصف؛ بوجهه الرفيع الذي ينم عن الذكاء، وعينَيه الحادتَين، وطريقة حديثه المقتصدة.

أوضح ميكس له المهمة المطلوبة منه. فردَّ عليه المحقق: «سيكون أجري، في حال نجحتُ في المهمة، ٥٠٠ دولار أمريكي.»

أومأ ميكس برأسه موافقًا.

في النهاية قال المحقق: «سأتولى قضيتك يا سيد ميكس. لطالما كان اختفاء الأشخاص بهذه المدينة مشكلة تثير اهتمامي. أتذكر قضيةً نجحتُ في حلها منذ عامٍ مضى. عائلة تحمل

اسم كلارك اختفوا فجأة من شقتهم الصغيرة التي كانوا يعيشون بها. ظللتُ أراقب العمارة على مدار شهرَين بحثًا عن دليل. وذات يوم، لاحظتُ أن بائع ألبان وصبي بقالة كانا دائمًا ما يسيران بشكلٍ عكسي عند توصيلهما لبضائعهما. وبمتابعة الفكرة التي ألهمَتْني بها تلك الملاحظة، استطعتُ تحديد موقع العائلة المفقودة. لقد انتقلوا إلى الشقة المواجهة لشقتهم وغيَّروا اسم عائلتهم إلى كرالك.»

ذهب المحقق شامروك جولنيز برفقة موكله ميكس إلى المجمع السكني الذي كانت تمكث به ماري سنايدر، وطلب المحقق أن يعاين غرفتها التي كانت تعيش بها. إذ لم يؤجرها أحد منذ ذلك الحين.

كانت الغرفة صغيرة وقذرة وأثاثها رديئًا. جلس ميكس مغتمًا على كرسي مكسور، بينما أخذ المحقق الكبير يبحث هنا وهناك، بين الجدران والأرضية وقطع الأثاث القديمة المتهالكة في سبيل العثور على دليل.

وبعد مرور نصف ساعة من عملية البحث، جمع المحقق بعض الأغراض التي تبدو غير مترابطة: دبوس قبعة أسود رخيص، وورقة مقطوعة من برنامج مسرحي، وطرف بطاقة ممزقة صغيرة مطبوع عليها كلمة «يسار» والرموز «سي ١٢».

مال شامروك جولنيز بجسده ناحية رف الموقد لمدة عشر دقائق، مسندًا رأسه إلى يده، واستغرق في التفكير في تلك الأغراض. وفي النهاية، صاح بحيوية:

«تعالَ يا سيد ميكس، لقد حللت القضية. يمكنني أن آخذك بشكل مباشر إلى المنزل الذي تسكن فيه شقيقتك. ولا يجب أن تقلق على حالها، لأنها تملك المال الكافي، على الأقل في الوقت الحاضر.»

شعر ميكس بمزيج متماثل من الفرحة والتعجب.

وسأله بنبرة إعجاب: «كيف حللت الأمر؟»

ربما كانت نقطة ضعف المحقق جولنيز الوحيدة هي فخره الغامر بإنجازاته الكبيرة في فن التحري. إذ كان على استعداد دائم لإبهار وسحر مستمعيه بكشف النقاب عن أساليبه.

أفرد المحقق كل ما جمعه على الطاولة الضئيلة وبدأ في شرحه: «باستخدام أسلوب الاستبعاد، استبعدتُ بعض المناطق في المدينة التي من الممكن أن تذهب إليها السيدة سنايدر. هل ترى دبوس القبعة هذا؟ هذا يستبعد أن تذهب السيدة إلى بلدة بروكلين. إذ لا يمكن لامرأة أن تشق طريقها بالترام عبْر جسر بروكلين من دون التأكد من أن لديها دبوس القبعة الخاص بها حتى تضمن الحصول على أحد المقاعد. والآن سأخبرك لماذا لا

يمكن أن تكون قد ذهبَت إلى بلدة هارلم كذلك. خلف ذلك الباب يُوجد خطافان على الجدار. على الخطاف الأول تُعلق السيدة سنايدر قبعتها، وعلى الآخر تُعلق شالها. ستلاحظ أن الجزء السفلي من الشال المعلق قد ترك تدريجيًّا أثر اتساخ على الحائط المكسو بالجص. علامة الاتساخ هذه واضحة المعالم مما يعني أن شالها لا يحتوي على شراشيب. والآن، هل شاهدتَ من قبلُ امرأةً في منتصف العمر ترتدي شالًا، وتسافر بالقطار إلى بلدة هارلم، من دون أن يكون هذا الشال ذا شراشيب كي يعلق ببوابة المحطة، ويؤخر المسافرين من ورائها؟ لذلك ينبغي أن نستبعدَ رحيلها لهارلم.

ومن هنا أخلُص إلى أن السيدة سنايدر لم ترحل بعيدًا عن هنا. سترى على هذه القطعة الممزقة من البطاقة كلمة «يسار» والحرف «سي» والرقم «١٢». والآن، يتصادف أن أعرف أن ١٢ الجادة سي هو عنوان نُزلٍ فاخر يفوق إمكانيات شقيقتك المادية، على حد معرفتنا. لكنني وجدتُ بعد ذلك قطعة ورقة البرنامج المسرحي المجعَّدة على نحوٍ غريب. يا تُرى ما المعنى الذي توحي به؟ بالنسبة إليك لا شيء على الأرجح يا سيد ميكس، لكنها توحي بالكثير بالنسبة إلى شخصٍ عاداتُه وتدريبُه جعلاه يهتم بشدة بالتفاصيل الصغيرة.

لقد أخبرتَني أن شقيقتك تعمل عاملة نظافة. إذ تنظف أرضيات المكاتب والأروقة. دعنا نفترض أنها عملَت بأحد المسارح. هل تعلم ما أكثر الأماكن التي تُفقد بها المجوهرات الثمينة، يا سيد ميكس؟ إنها المسارح، بالطبع. انظر مجددًا لورقة البرنامج المسرحي هذه يا سيد ميكس. وعاينِ شكل الطي الدائري بها. على الأرجح لقد طُويَت حول خاتم ربما يكون ثمينًا. لقد وجدَته أثناء عملها في المسرح. فقطعَت بسرعة قطعةً من ورقة البرنامج وطوَتْها حول الخاتم بحذَر ثم دسَّتها داخل صدرها. في اليوم التالي باعت الخاتم وقرَّرَت أن تبحث عن مكانٍ أفضل تمكُث فيه بأموال الخاتم. عند الوصول إلى هذا الحد من تسلسل الحكاية، يصبح العنوان ١٢ الجادة سي غير مستبعد. وهناك على الأرجح سوف نجدها، يا سيد ميكس.»

ختم شامروك جولنيز خطبته المُقنعة بابتسامة فنانٍ ناجح. كان ميكس في حالة إعجاب تعجز الكلمات عن وصفها. بعدها، ذهبا معًا إلى العنوان المشار إليه. لقد كان منزلًا مبنيًّا من الطوب البُني ذا طرازٍ قديم، ويقبع في حيٍّ مزدهرٍ وراقٍ.

رن أحدهما جرس باب المنزل ولكنهما تفاجآ بأنه لا يُوجد أحد باسم السيدة سنايدر هناك، كما لم يأتِ ساكنٌ جديد إلى ذلك المنزل منذ ستة أشهر.

وعندما وقفا على الرصيف مرةً أخرى، فحص ميكس الأغراض التي أحضرها معه من غرفة شقيقته القديمة.

وقال بعد أن رفع ورقة البرنامج إلى مستوى أنفه: «أنا لست بمحقق، لكن يبدو لي أنه بدلًا من الخاتم الذي افترضنا أنه طُويَ داخل الورقة، لقد كانت مجرد قطعة مستديرة من حلوى النعناع الفلفلي. وبطاقة العنوان، ما هي إلا جزء من نهاية تذكرة مقعد؛ أي مقعد رقم ١٢ الصف سي، الممر الأيسر.»

ظهرَت نظرة شرود في عينَي شامروك جولنيز.

ثم قال: «أعتقد أنه من الأفضل أن تستشير جوجينز.»

فردَّ ميكس: «من جوجينز هذا؟»

فقال جولنيز: «إنه قائد مدرسة جديدة وحديثة في التحري. أساليبه مختلفة عن تلك الخاصة بنا، لكن يُقال إن جوجينز حلَّ قضايا صعبة للغاية. سآخذك إليه.»

عند وصولهما، وجدا جوجينز العظيم في مكتبه. كان رجلًا ضئيل الحجم، خفيف الشعر، وكان منهمكًا بشدة في قراءة أحد الأعمال الأدبية البرجوازية للكاتب ناثانيال هاوثورن.

تصافح المحققان الكبيران، أصحاب المدارس المختلفة، بحرارة، وقُدِّم ميكس لجوجينز.

قال جوجينز وهو يستكمل القراءة: «أخبِرني بالوقائع.»

وعندما انتهى ميكس من سرد الوقائع، أَغلق المحقق الكبير كتابه وقال:

«هل أفهم من كلامك أن شقيقتك عمرها ٥٢ عامًا، ولديها شامة على جانب أنفها، وأنها أرملةٌ فقيرة جدًّا، تعيش حياةً كادحةً من خلال عملها بالتنظيف، وملامح وجهها وهيئتها بسيطة؟»

فأكد ميكس على كلامه قائلًا: «هذا هو وصفها بالتحديد.» فوقف جوجينز وارتدى قبعته.

ثم قال: «في خلال ١٥ دقيقة، سأعود جالبًا لك عنوانها الحالي.»

بدا شامروك جولنيز شاحب الوجه لكنه تصنَّع بسمةً خفيفة.

عاد جوجينز في خلال الوقت المحدَّد، وفي يده قطعةٌ ورقية صغيرة.

ثم أعلن في هدوء: «شقيقتك ماري سنايدر موجودة بمنزل رقم ١٦٢ شارع تشيلتون. إنها تعيش في غرفة خلفية تقع في الطابق الخامس. المنزل يقع على بُعد أربعة منازل من هنا.» ثم أضاف موجهًا حديثه إلى ميكس: «اذهب وتحقق من المعلومات ثم عُد إلى هنا. السيد جولنيز سيكون في انتظارك إذا لم يكن لديك مانع في ذلك.»

هُرع ميكس في الحال، وبعد ٢٠ دقيقة، عاد مجددًا بوجهٍ مشرق.

وصاح: «إنها هناك وحالتها جيدة! أخبِرني بما تريده من أتعاب.»

فردَّ جوجينز: «دولاران.»

رحل ميكس بعد أن دفع المال، ثم وقف شامروك جولنيز أمام جوجينز ممسكًا قبَّعته بيده.

تلعثم وهو يستفسر: «إذا لم يكن في سؤالي حرج، فهل من الممكن أن تتفضل عليَّ ... هل ستعارض أن ...»

فأجابه جوجينز بسرور: «بالطبع لا، سأخبرك كيف فعلتُها. هل تتذكَّر مواصفات السيدة سنايدر؟ هل صادفتَ من قبلُ امرأة مثلها لم تكن تدفع أقساطًا أسبوعية من أجل حصولها على صورة فوتوغرافية ملوَّنة مكبَّرة لنفسها؟ أكبر مصنع في البلاد يُنتج تلك الصور يقع على ناصية الشارع. ذهبتُ إلى هناك وحصلتُ على العنوان من دفاترهم. هذا كل ما في الأمر.»

خُبز الساحرات

كانت الآنسة مارثا ميتشم تمتلك مخبزًا صغيرًا على ناصية الشارع (ذلك المخبز الذي تصعد ثلاث درجات سلم حتى تصل إليه والذي يرن الجرس الخاص به عندما تدخل من الباب).

كانت الآنسة مارثا في الأربعين من عمرها، ولديها دفتر حساب بنكي به ألفا دولار، وكان لها اثنتان من الأسنان الصناعية، وقلب عامر بالعطف والحنان. الكثير من النساء المتزوجات كانت فرصهن في الزواج أقل بكثير من فرص الآنسة مارثا، لكنها لم تتزوج.

اعتاد أحد الزبائن أن يأتي للمخبز مرتَين أو ثلاثًا أسبوعيًّا، وقد بدأَت الآنسة مارثا تُولِيه بعضَ الاهتمام. كان في منتصف عمره، يرتدي نظارة، ولديه لحيةٌ بنية اللون مهذَّبة لدرجة متقنة.

كان يتحدث الإنجليزية بلكنةٍ ألمانية واضحة. بدت ملابسه بالية ومرتوقة في أجزاء منها، ومجعَّدة وفضفاضة في أجزاء أخرى. لكنه بدا حسَنَ المظهر ومهذبًا للغاية.

اعتاد التردُّد على المخبز لشراء رغيفَين من الخبز البائت. ثمن الرغيف الطازج كان خمسة سنتات. بينما كنتَ تحصل بالمقابل نفسه على اثنَين من الأرغفة البائتة. لم يطلب هذا الرجل قَط شراء أي شيءٍ سوى الخبز البائت.

ذات يوم، لاحظَت الآنسة مارثا بقعةً حمراء وبُنية على أصابعه. وتيقَّنَت حينذاك أنه فنان وأنه فقير للغاية. ما من شك في أنه يعيش في عُلِّيَّة حيث يرسم لوحاته، ويأكل خبزه البائت، ويفكر في المأكولات الشهية التي يتمنى أن يحصل عليها من مخبز الآنسة مارثا.

كثيرًا ما كانت الآنسة مارثا، حينما تجلس لتناول وجبتها المكوَّنة من شرائح اللحم ولفافات الخبز الصغيرة والمربى والشاي، تُطلق تنهيدةً حالمة وتسرح بخيالها متمنية أن لو كان ذلك الفنان دمث الأخلاق يجلس بجوارها، ويشاركها وجبتها، بدلًا من أن يتناول

قطع الخبز الجاف بتلك العُلِّيَّة الباردة. فكما ذكرنا من قبلُ، تتمتع الآنسة مارثا بقلبٍ حساس متعاطف.

ومن أجل أن تختبر افتراضَها بخصوص مهنته، جلبَت من غرفتها ذات يوم لوحةً كانت قد اشترتها من مزاد، ووضعَتْها أمام الأرفف مباشرة خلف طاولة البيع في المخبز.

لقد كانت لوحة لمنظر فينيسي. كان قصرٌ رخاميٌّ بديع (كما هو مكتوب على اللوحة) يقبع في مركز اللوحة وأمامه مياهٌ جارية. تحوي اللوحة كذلك جناديل (يحمل جندول منها امرأة تتدلى منه لتلامس المياه بأطراف أصابعها)، وسُحبًا وسماءً والكثير من التلاعب بالتباين الضوئي ما بين الإضاءة والظلام. لا يُوجد فنان لا يمكنه أن يلاحظ تلك اللوحة.

بعد مرور يومَين، حضر الرجل إلى المخبز.

وقال: «أريد رغيفَين من الخبز البائت من فضلك.»

ثم قال ومارثا تُغلِّف الخبز: «سيدتي، لديك لوحةٌ جيدة هنا.»

فردَّت بحسها الماكر: «حقًّا؟ أنا معجَبة بشدة بالفن و...» (قالت في نفسها إنه لن يكون من الصائب أن تقول «الفنانين» بتلك السرعة)، «واللوحات.» وسألَتْه: «هل تعتقد أنها لوحةٌ رائعة؟»

فردَّ الرجل: «هذا القصر غير مرسوم بإتقان. المنظور الخاص به ليس بحقيقي. طاب صباحك يا سيدتي.»

ثم حمل الخبز، وانحنى مودعًا، وخرج مسرعًا.

نعم، لا بد أنه فنان. أعادت الآنسة مارثا اللوحة لغرفتها.

كم لمَعت عيناه برقَّة ولطف خلف نظارته! يا للجبهة العريضة، التي تنم عن الذكاء، التي يمتلكها! كيف له أن يلاحظ المنظور في اللوحة من مجرد نظرة عابرة رغم أنه يعيش على الخبز البائت؟! لكن العبقرية غالبًا ما تُعاني حتى تنال التقدير.

كم سيكون أمرًا رائعًا للفن والمنظور لو أن تلك العبقرية دُعمَت بألفَي دولار في البنك، ومخبز، وقلب مُحب ... لكن تلك أحلام يقظة، يا آنسة مارثا.

فيما بعدُ، كلما أتى الرجل للمخبز، كان يطيل الحديث مع الآنسة مارثا عند طاولة البيع. وبدا مستمتعًا بكلماتها المُبهِجة.

استَمَر في شراء الخبز البائت. لم يشترِ قَط كعكةً أو فطيرةً أو أيًّا من كعكات سالي لون الشهية التي تصنعها.

شعرَت بأنه بدأ يبدو أكثر نحولًا، وقانطًا. تاق قلبها إلى أن تضيف إلى وجبته الهزيلة طعامًا مشبعًا ليأكله، لكن عجزَت شجاعتها عن أخذ تلك الخطوة. إذ لم تشأ أن تجرح كرامته. فقد كانت تعلم مدى كبرياء الفنانين.

أخذَت الآنسة مارثا ترتدي بلوزةً حريرية منقَّطة باللون الأزرق وهي تقف خلف طاولة البيع. وفي الحجرة الخلفية، حضَّرَت خلطةً غامضةً من بذور السفرجل ومسحوق البورق. وهو خليطٌ يستخدمه الكثيرون لبشرتهم.

وذاتَ يوم، جاء الرجل كعادته، ووضع نقودَه على الطاولة طالبًا خبزه البائت. وبينما كانت الآنسة مارثا تجلب له الخبز، ظهر فجأة صوتُ صفير وقعقعة عالٍ، ومرَّت بجوار المخبز ببطء عربة إطفاء حريق.

هروَل الرجل تجاه الباب لينظر ما الأمر، كما كان سيفعل أي شخص في مكانه. ألهَم ذلك الحدثُ المفاجئ الآنسة مارثا بأن تنتهز الفرصة.

كان هناك رطلٌ من الزبد الطازج موضوعٌ على الرف السفلي خلف طاولة البيع؛ حيث تركه بائع منتجات الألبان منذ عشر دقائق. فتحَت الآنسة مارثا كلًّا من الرغيفَين مستخدمةً سكين الخبز، ثم أضافت كميةً كبيرة من الزبد داخلهما وأغلقَتْهما مجددًا.

وعندما التفَت الرجل مرةً أخرى للطاولة، كانت تُغلف الخبز بالورق.

عندما رحل الرجل بعد حديثٍ قصير لطيف على نحوٍ غير معتاد بينهما، ابتسمَت الآنسة مارثا لنفسها، وراح قلبها يخفق قليلًا.

هل كانت مبالغةً في جرأتها؟ هل سيشعُر بالإهانة؟ لكن بالتأكيد لا. لا تُوجد لغةٌ خاصة بالطعام. الزبد ليس علامة على الإقدام غير الملائم من قِبل النساء.

ظل عقلها مدةً ليست بالقصيرة في ذلك اليوم منشغلًا بالتفكير في ذلك الأمر. تخيلَت اللحظة التي سيكتشف فيها خدعتَها الصغيرة.

سيترك فُرشاة الرسم ولوحة الألوان جانبًا. وسيكون أمامه الحامل الذي عليه اللوحة التي كان يرسمها، والتي منظورها غير قابل للنقد.

سيشرع في تناول وجبة غدائه من الخبز البائت والماء. سيقطع أحد الرغيفَين إلى شرائح ... أوه!

تورَّد وجه الآنسة مارثا خجلًا. هل سيفكر في اليد التي وضعَت الزبد وهو يأكل؟ هل سيَ...

رن جرس الباب الأمامي بضراوة. دخل شخص وكان يُحدث الكثير من الجلبة.

أسرعَت الآنسة مارثا لواجهة المخبز. كان هناك رجلان. الأول شابٌّ صغير يُدخن غليونًا؛ وهو شخص لم تَرَه من قبلُ. والآخر كان ذلك الفنان.

كان وجه الأخير يستشيطُ غضبًا، وكانت قبَّعته على الجزء الخلفي من رأسه، وشعره أشعث بشدة. ضم قبضتَي يدَيه ولوَّح بهما بعدائية تجاه الآنسة مارثا. تجاه الآنسة مارثا!

ثم صاح بصوتٍ عالٍ: «حمقاء!» ثم أتبع ذلك بقوله: «مؤذية!» أو كلمة شبيهة لها باللغة الألمانية.

حاول الشاب الصغير أن يسحبه بعيدًا.

فصاح بغضب: «لن أرحلَ قبل أن أُخبرها.»

ثم أخذ يضرب بيدَيه بغضب على طاولة الآنسة مارتا وكأنها طبلة.

وردَّد يقول، وعيناه الزرقاوان تلمعان من الغضب من خلف نظارته: «لقد أضعتِ جهدي سُدًى.» وأكمل: «سأخبرك بأمر. أنتِ قطةٌ عجوزٌ متطفلة!»

استندَت الآنسة مارثا بوهَن على الأرفُف ووضعَت إحدى يدَيها على بلوزتها الحريرية المنقَّطة باللون الأزرق. فأمسك الشاب الرجل الآخر من تلابيبه.

ثم قال له: «هيا الآن، لقد قلتَ ما يكفي.» ثم جرَّ صديقه الغاضب بقوة للخارج تاركًا إياه على الرصيف، ثم عاد للداخل.

وقال للآنسة مارثا: «أعتقد أنه يحق لكِ يا سيدتي أن تعرفي سببَ كل ذلك الغضب. هذا الشخص اسمه بلومبرجر. إنه رسامٌ معماري. وأنا أعمل معه بالمكتب نفسه.

لقد كان يعمل بجد على مدار ثلاثة أشهر على رسم مخطَّط لمبنى مجلس المدينة الجديد. لقد كان سيشارك به في المسابقة ذات الصلة. لقد انتهى من رسم الخطوط بالحبر أمس. وكما تعلمين فإن الرسام المعماري دائمًا يرسم بالقلم الرصاص في البداية. وعندما ينتهي من رسمه، يمسح الخطوط المرسومة بالقلم الرصاص مستخدمًا فُتات الخبز البائت. فهي أفضل في المسح من المحاة.

لذلك كان بلومبرجر يشتري الخبز البائت من هنا. حسنًا، اليوم ... حسنًا كما تعلمين يا سيدتي فإن هذا الزبد ليس ... حسنًا، مخطَّط بلومبرجر الآن لا يصلح سوى كورق لتغليف شطائر السفر.»

دخلَت الآنسة مارثا إلى الغرفة الخلفية. وخلعَت بلوزتها الحريرية المنقَّطة باللون الأزرق وارتدَت بلوزتها الصوفية البُنية القديمة التي اعتادت ارتداءها. وألقت بخليط بذور السفرجل ومسحوق البورق من النافذة داخل سلة النفايات.

أكتوبر ويونيو

حدَّق الكابتن بعبوس تجاه سيفه المعلَّق على الحائط. وفي داخل الخزانة القريبة منه، كان يقبع زيه العسكري الباهت اللون؛ والذي كان ملطخًا وباليًا بفعل عوامل الجو والاستخدام. بدا وكأن وقتًا طويلًا للغاية قد مرَّ على تلك الحرب التي خاضها.

والآن، ها هو ذلك العسكري المخضرم، الذي عاصَر أيام بلاده العصيبة، ذليلٌ ومستسلمٌ أمام العينَين الساحرتَين والشفتَين الباسمتَين لامرأة. كان يجلس بغرفته الهادئة يحمل في يده الخطاب المُرسَل للتو منها؛ ذلك الخطاب الذي كان السبب في هذا العبوس البادي على وجهه. أعاد قراءة الجزء الذي قضى على أمله في الزواج منها.

> إن رفضي للشرف الذي منحتني إياه بطلبك للزواج مني يُحتم عليَّ أن أتحدثَ إليك بصراحة. السبب الذي دفعَني لرفض عرضك هو الفارق الشاسع في العمر بيني وبينك. أنا معجَبة بك بشدة، لكنني متأكدة من أن زواجنا لن يكون زواجًا سعيدًا. أتأسَّف لأنه توجَّب عليَّ الإشارة إلى ذلك، وأعتقد أنك ستُقدر صراحتي في إخبارك بالسبب الحقيقي.

تنهَّد الكابتن، وأسند رأسه إلى يده. صحيحٌ أن الفارق في السن بينهما كبير. لكنه رجلٌ قوي وبصحة جيدة، ولديه ثروة ومكانة مرموقة. ألا يُعوِّضها حبه ورعايته الحنونة والفرص التي يمكن أن يوفرها لها عن مسألة العمر؟ كما أنه كان متيقنًا إلى حدٍّ كبيرٍ أنها كانت تبادله المشاعر نفسها.

اتسم الكابتن بأنه رجل الأفعال الحاسمة. فلطالما امتاز بحزمه وحيويته في الميدان. عقد العزم على رؤيتها والتماس موافقتها مجدَّدًا بالمواجهة المباشرة. العمر؟! لا يُوجد ما يمكن أن يحول بينه وبين من أحب.

وفي غضون ساعتَين، جهَّز نفسه آخذًا معه أقل الأغراض الممكنة وهو متجه نحو معركته الكبرى. ركب القطار المتوجه للبلدة الجنوبية القديمة التي تعيش فيها حبيبتُه بولاية تينيسي.

كانت ثيودورا ديمينج تقف على سلالم القصر القديم الجميل ذي الرواق المعمَّد، تستمتع بالغَسَق الصيفي، حينما دخل الكابتن من البوابة وسار على الممر المفروش بالحصى. قابلَتْه بابتسامه تخلو من الإحراج. وعندما توقَّف الكابتن عند درجة السلم التي تسبق درجتَها، لم يبدُ فارق العمر بينهما كبيرًا للغاية. لقد كان الكابتن طويلًا، مستقيمَ القامة، حادَّ البصر وبُني البشرة. وقد كانت هي في ريعان أنوثتها الفاتنة.

قالت ثيودورا: «لم أتوقع مجيئك، لكن بما أنك هنا، اجلس هنا على السلم. ألم تصِلك رسالتي؟»

فردَّ الكابتن: «وصلَتني؛ ولهذا أنا هنا. أريد منكِ أن تُعيدي النظر في ردِّك على عرضي يا ثيو.»

ابتسمَت له ثيودورا بنعومة. كان لا يزال يحافظ على صحته وشبابه رغم تقدمه في العمر. وهي حقًّا مغرمة بقوَّته، وشكله، ورجولته ... لربما، إذا ...

ثم هزَّت رأسَها في إصرار قائلة: «لا، لا، الأمر مُنتهٍ. أحبكَ كثيرًا لكن لا يمكننا الزواج. الفارق بين سني وسنك ... من فضلك لا تجعلني أردِّد هذا مجددًا، أخبرتُك بذلك في رسالتي.»

شعَر الكابتن بالخجل قليلًا واحمَر وجهه المتلألئ باللون البرونزي. صمَت لبرهة، وأخذ يُحدق بحزن في الغَسَق. خلف حدود الغابة التي تقع على مرأًى من بصره، رأى الحقل الذي عسكَر به الجنود ذات مرة بزيهم الأزرق قُبيل توجُّههم إلى البحر. كم بدا ذلك منذ وقتٍ طويل! لقد خانه حقًّا القدَر والزمَن شر خيانة. فعددٌ قليل فقط من السنوات حال بينه وبين سعادته!

تسلَّلَت يد ثيودورا واستقرَّت في قبضة يده البُنية المحكمة. وشعرَت على الأقل بتلك العاطفة التي تُماثل الحب.

وأردفَت بعطف: «هوِّن على نفسك، من فضلك. إن ذلك هو الأفضل. لقد توصَّلتُ لذلك القرار السديد بمفردي تمامًا. ستكون ممتنًّا لعدم زواجي منك يومًا ما. سيكون زواجنا رائعًا لفترة من الزمن، لكن فكِّر قليلًا! في غضون عددٍ قليل من السنوات ستكون أذواقنا مختلفة بشدة. أحدنا سيفضل الجلوس بجانب المدفأة والقراءة، وربما سيعاني من التهاب

الأعصاب ويكابد من شقاء الروماتيزم في المساء، بينما سيكون الآخر شغوفًا بشدة بحضور الحفلات الراقصة وسهرات العشاء المتأخرة وارتياد المسارح. لا، يا صديقي العزيز. لا يشبه وضعنا تحديدًا الفارق بين شهرَي يناير ومايو، بل هو أقرب بوضوح للفجوة بين أكتوبر وبدايات يونيو.»

ردَّ الكابتن: «سأفعل دائمًا ما تريدين مني أن أفعله يا ثيو. إذا أردتِ أن ...»

فقاطعته ثيودورا: «لا، لن تفعل. أنت الآن تعتقد ذلك، لكنك لن تفعل حينذاك. من فضلك لا تُعِد طلبك مرةً أخرى.»

خسر الكابتن معركته. بيد أنه كان محاربًا شهمًا، وعندما وقف ليودعها الوداع الأخير، كان فمه مغلقًا على نحوٍ متجهم وكتفاه مفرودتان.

ركب القطار المتجه للشمال في تلك الليلة. وفي المساء التالي، كان في غرفته، حيث بقي سيفه معلقًا على الحائط. كان يرتدي ملابسه لتناول العشاء، وقد أخذ يربط ربطة عنقه البيضاء بشكلٍ محكَم جدًّا. وفي الوقت نفسه، استغرق في مناجاة تأملية.

«على كل حال، أعتقد بأمانة أن ثيو كانت على حق. لا يمكن لأحد أن ينكر مدى جمالها، لكن لا بد أنها في الثامنة والعشرين من عمرها، وذلك على أقل تقدير.»

فكما ترون، الكابتن كان عمره تسعة عشر عامًا فقط، وسيفه لم يُستخدم قط إلا في المنطقة التي تُقام فيها العروض العسكرية في مدينة تشاتانوجا، ولم يشارك قَط في الحرب الأمريكية الإسبانية.

تحوُّل مارتن بيرني

دعُونا نستعرض قصة مارتن بيرني، التي تدور حول التبغ.

كانوا يُشيدون الطريق السريع على طول الضفة الغربية لنهر هارلم. ورُبط مركب المعسكر الخاص بدينيس كوريجان، المقاول من الباطن، بشجرة على الضفة. كان اثنان وعشرون عاملًا أيرلنديًّا يكدحون هناك في ذلك المشروع المنهِك. أحد هؤلاء العمال، الذي كان يعمل بمطبخ المركب، كان ينحدر من سلالة قوطية. وكان يشرف عليهم جميعًا شخصٌ يُدعى كوريجان؛ وهو رجلٌ صارم كان يقودهم وكأنه قبطان يقود طاقم قادس. كان يمنحهم أجورًا بخسة إلى الحد الذي جعل معظمهم، مهما كان مقدار عملهم، يكسبون أقل مما يؤمِّن ثمن الطعام والتبغ، وقد كان العديد منهم مدينين له. كان كوريجان يُئْويهم جميعًا بالمركب ويوفِّر لهم طعامًا جيدًا، حتى يقدموا أفضل ما لديهم في العمل.

كان مارتن بيرني أكثرهم معاناة. كان نحيلًا لكن قوي البنية، ويمتلك لحيةً كثَّة يمتزج بها اللونان الأحمر والرمادي. لم يكن حجمه ملائمًا للعمل الشاق المكلَّف به، الذي يحتاج تنفيذه إلى قوة كبيرة.

كان العمل شاقًّا. كذلك امتلأَت ضفَّتا النهر بالبعوض. وكالطفل الذي يثبِّت ناظره على الضوء الباهت الآتي من النافذة المؤنسة الوحيدة الموجودة في غرفة مظلمة، كان العاملون يراقبون الشمس منتظرين الساعة الوحيدة التي يكون بها عناؤهم أقل وطأة. وبعد انتهائهم من وجبة العشاء عقب غروب الشمس، كانوا يجتمعون معًا على ضفة النهر، ليطردوا البعوض من خلال نفثات الدخان الكثيفة والكريهة الرائحة الصادرة من ثلاثة وعشرين غليونًا من التبغ. كانوا يستَرِقُون بفعلهم الدفاعي الجماعي هذا من الزمن ساعة يتذوَّقون خلالها القليل من القطرات العذبة من كأس السعادة.

بمرور الأسابيع، كان مارتن بيرني يغرق أكثر في ديونه. إذ قد أبقى كوريجان مخزونًا صغيرًا من البضائع على المركب، وأخذ يبيع منه للعمال بأسعار لا تكبده أي خسارة. وقد كان بيرني عميلًا دائمًا على طاولة بيع التبغ. كان يحصل على كيسٍ من التبغ عند ذهابه للعمل صباحًا، وكيسٍ آخر عندما يعود ليلًا، مما جعل حسابه يتضخم يومًا بعد يوم. بيرني كان مدخنًا شرهًا. وشاع بين العمال أنه يتناول طعامه وغليون التبغ في فمه، على الرغم من عدم صحة ذلك. لم يكن الشاب الصغير ساخطًا على حاله. كان لديه الكثير ليأكله؛ والكثير من التبغ ليدخنه، وفي ذهنه طاغية لا يتوقف عن سبِّه ولعنه، لذا لمَ لا يكون ذلك الأيرلندي راضيًا عن حياته؟

وفي صباح يومٍ ما، خرج بيرني للعمل مع الآخرين، وتوقَّف كعادته عند طاولة البيع المصنوعة من خشب الصنوبر، لشراء كيس التبغ الصباحي المعتاد.

قال له كوريجان: «لا يُوجد المزيد من أجلك. حسابك أُغلق. أنت استثمارٌ خاسر. لن تحصل على المزيد من التبغ يا بُني. لن تحصل على المزيد منه على الحساب. إذا أردتَ أن تستمر بعملك وتحصل على طعامك فلا مشكلة بذلك، لكن رصيدك من التبغ قد نفد تمامًا. إذا أردتَ نصيحتي، فابحث لك عن عملٍ جديد.»

فردَّ بيرني وهو متفاجئ بأن ذلك يمكن أن يحدث له: «ليس لديَّ تبغ لأدخنه في غليوني اليوم يا سيد كوريجان.»

فقال كوريجان: «احصُل على مقابله واشتره.»

بقي بيرني في المشروع. فهو لا يعرف عملًا آخر. في البداية لم يكن يتصور بأن التبغ أصبح بمنزلة والده ووالدته، مخلِّصه وعشيقته، زوجته وابنه.

لمدة ثلاثة أيام، استطاع بيرني أن يوفر التبغ من خلال اقتراضه من زملائه في العمل إلى أن قرَّروا جميعًا التوقف عن إعطائه أي شيء. أخبروه، بحزم لكن بوُد، بأنه، ومن بين جميع الأشياء في العالم، بينما تُعَد مشاركة التبغ في حالة الشدة عملًا تحث عليه الصداقة، فإن ازدياد الاعتماد على الأصدقاء في الحصول عليه يصبح خطرًا حقيقيًّا يهدد تلك الصداقة.

أخذ اليأس يتسرب إلى قلب بيرني حتى تملَّكه. ظل يمتص آخر ما تبقَّى بغليونه الفارغ، وتثاقَل في عمله وهو يحمل الحجارة والأتربة، مستشعرًا ولأول مرة بأن لعنة آدم قد حلَّت عليه. ربما قد يلجأ العمال الآخرون المحرومون من المتعة إلى مباهجَ أخرى، لكن بيرني تقتصر متعته في الحياة على شيئَين فقط. الأول هو غليون التبغ، والثاني هو الأمل بألا يكون هناك طريقٌ سريعٌ آخر يجب إنشاؤه في الحياة الأخرى.

عندما يحين وقت تناول الطعام، كان يترك الجميع يذهبون أولًا للمركب، ثم يجثو على يدَيه وركبتَيه باحثًا بقوة في الأرض التي كان يجلس عليها بقية العمال حتى يجد بعضَ فتات التبغ المتبقية منهم. وفي إحدى المرات، نزل أسفل الضفة وملأ غليونه بأوراق صفصافٍ زابلة. ومع أول نفثة من الغليون، أخذ يبصق باتجاه القارب، ويطلق جام لعناته على كوريجان وكل أجداده الذين ظهروا يومًا على سطح الأرض، وكل سلالته من اليوم وحتى يوم القيامة. بدأ يكره كوريجان بكل كيانه. حتى إن فكرة القتل خطرَت على باله بشكلٍ عابر. مرَّت خمسة أيام من دون أن يُدخِّن التبغ، وهو الذي طالما داوم على التدخين طوال النهار، وكان يظن أن الليل الذي لم يستيقظ فيه ليُدخِّن مرةً أو مرتَين وهو تحت غطاء الفِراش قد ضاع سُدًى.

ذات يوم، مرَّ شخصٌ على المركب وأخبرهم بأن هناك فرص عمل بحديقة برونكس؛ حيث هناك حاجة لعددٍ كبير من العمال للقيام ببعض التجديدات هناك.

بعد العشاء، سار بيرني مسافة ثلاثين ياردة أسفل ضفة النهر بعيدًا عن رائحة الغليون الصادرة من العمال، التي تثير جنونه. جلس على حجَر. وفكَّر بأنه يمكن أن يرحل إلى حي ذا برونكس. فعلى الأقل سيحصل على التبغ هناك. لكن ماذا إذا كشفَت الدفاتر أنه مَدينٌ لكوريجان؟ إن عمله كفيل بسداد هذا الدَّين. لكنه سيكره أن يترك المكان من دون أن يثأر من ذلك الوغد القاسي القلب الذي حرمه من تبغه. فهل من طريقة لفعل ذلك؟

ظهر توني متسللًا بهدوء من بين الكتل الترابية، وهو شخصٌ منحدر من السلالة القوطية، ويعمل في المطبخ. ابتسم توني لبيرني التعيس الغاضب بشدة والمشحون بالعداء، فزمجر بيرني تجاهه متسائلًا: «ماذا تريد مني، يا داجو؟»

توني كان هو الآخر لديه حقدٌ دفين ... وخطةٌ للانتقام. كان هو أيضًا كارهًا لكوريجان، ويمكنه بسهولة استشعار ذلك الكُره لدى غيره.

فتساءل: «هل تحب السيد كوريجان؟ هل تعتقد أنه رجلٌ لطيف؟»

فردَّ بيرني: «فلتذهب إلى الجحيم معه. فليتحول كبده إلى ماء، ولتتحطم عظامه بسبب قساوة قلبه. ولينمُ البابونج المنتن على قبور أجداده، وليُولَد أحفاد أبنائه بلا أعين. وليتحول الويسكي إلى لبنٍ خاثر في فمه، وليتقرح أخمصَا قدمَيه في كل مرة يعطس فيها. وليجعل دخان غليونه عينَيه تدمعان، ولتتساقط تلك القطرات على الحشائش التي تتغذى عليها أبقاره، فيتسمم الزبد الذي يضعه على خبزه.»

ورغم أن توني لم يفهم تمامًا تلك الصور التشبيهية، فقد استشفَّ منها قناعة بأنها تنمُّ عن كراهيةٍ غامرة تجاه كوريجان. لذا، وبثقة كاملة، من رفيق التآمر، جلس بجوار بيرني على الحجَر وشرع في كشف خطته.

كانت خطةً بسيطة للغاية. اعتاد كوريجان أن يأوي إلى فراشه كل يوم ساعةً بعد تناول العشاء. وفي تلك الأثناء، كان على الطباخ ومساعده توني أن يغادرا المركب كي لا يتسبَّبا بأي ضوضاء قد تزعج ذلك المستبد. وكان دائمًا ما يقضي الطباخ تلك الساعة في المشي. سيقطع توني وبيرني، بعد أن يغط كوريجان في سُباته، الحبال التي تربط المركب بالضفة. حينها سيترنَّح المركب القديم مع التيار السريع، وبالتأكيد سينقلب جرَّاء اصطدامه بصخرة قريبة.

فردَّ بيرني: «هيا، نَفِّذ ما قلت. إذا كان ظهرك يؤلمك من الضرر الذي سبَّبه لك، مثل الهوة التي تتسع بداخلي من قلة تذوُّق الدخان، إذن يجب ألا نتسرع في قطع تلك الحبال.»

فقال توني: «حسنًا. من الأفضل أن نتريَّث عشر دقائق إضافية. حتى يتسنى لكوريجان أن يستغرق في النوم.»

انتظرا جالسَين على الحجَر. كان بقية العمال منشغلين في العمل على الطريق بعيدًا عن الرؤية عند منعطف في الطريق. كان كل شيء سيسير بشكل صحيح — ما عدا بالنسبة إلى كوريجان — إذا لم يقرِّر توني أن يضيف إلى مكيدته عنصرًا تقليديًّا. فهو ينحدر من سلالةٍ درامية، ولربما قد استشعر حدْسه العلاقة بين المكائد الخبيثة والسيجار، التي كانت تُصور في المسرحيات. لذا أخرج توني من صدر القميص سيجارًا طويلًا أسود جميلًا ينذر بالشر، وأعطاه لبيرني كي يُدخنه.

سأله: «أتحب أن تدخن بينما ننتظر؟»

انقَضَّ بيرني على السيجار وقطَع نهايته كما يعَضُّ كلب الترير الفأر. وضع السيجار على شفتَيه في اشتياق عاشق لمحبوبة افتقدها طويلًا. وحينما بدأ الدخان في الظهور، أصدر تنهيدةً طويلةً عميقة، والتفَّت شعيراتُ شاربه الأحمر الرمادي حول السيجار مثل مخالب النسر. اختفى اللون الأحمر من بياض عينَيه ببطء. وثبَّتَ نظره حالمًا على منظر التلال على طول النهر. ومَرَّ بعض الوقت.

قال توني: «حان الوقت للذهاب الآن. سرعان ما سيغرق هذا الوغد كوريجان في النهر.»

استفاق بيرني من نشوته بصوت نخير. أدار رأسه وحدَّق بتعجَّب وحدَّة متأملة في شريكه. سحب السيجار من فمه جزئيًّا، لكن سرعان ما أعاده فورًا، وبدأ يمضغه بهُيامٍ مرة تلو الأخرى، ثم تحدَّث من خلال نفثاتٍ مزدرية من جانب فمه:

«ما هذا أيها الهمجي؟ هل تحيك المكائد ضد السلالات المستنيرة على كوكب الأرض، أيها المحرِّض على الجرائم الخطيرة؟ أتحاول أن توقع مارتن بيرني في شباك خدعك اللئيمة يا داجو؟ هل تشرع في قتل من يُحسن إليك، الرجل الصالح الذي يهبك الطعام والعمل؟ خذ هذا أيها القاتل الذي تشبه اليقطينة!»

حمَل سيل الإهانات التي وجَّهَها مارتن بيرني معه اعتداءً بدنيًّا. أسقَط بيرني بإصبع قدمه الشخصَ التي كان سيقطع الحبال ملقيًا إياه من فوق مقعده.

نهض توني وفرَّ من المكان. وانضمَّت خطة انتقامه لتلك الأفكار التي لم يُكتَب لها أن ترى النور. هرب توني وابتعد كل البعد عن المركب حيث خشي البقاء بعدما حدث.

أخذ بيرني، منشرح الصدر، يشاهد شريكه السابق يختفي من أمامه. ثم رحل هو كذلك متجهًا إلى حي ذا برونكس.

وفي عقبه، كان هناك أثر لدخانٍ كريه الرائحة كثيفٍ ووخيم استحضَر الهدوء إلى قلبه، ودفَع الطيور إلى ترك جانب الطريق إلى أعمق الأدغال.

الحُلم

كان هذا آخر عمل لأوليفر هنري. كانت قد طلبَتْه منه مجلة «كوزمبوليتن»، وبعد وفاته، وُجدَت المخطوطة غير المكتملة الخاصة به في غرفته. وقد نُشرَت القصة المعروضة هنا في تلك المجلة في سبتمبر ١٩١٠.

رأى موراي حُلمًا.

يرتبك علم النفس والعلوم الأخرى عندما تحاول أن تفسر لنا المغامرات الغريبة لذواتنا غير المادية عندما تسرح في عالم «الشقيق التوءم للموت؛ أي، النوم». لن تسعى تلك القصة كي تكون مصدرًا تنويريًّا، إنها فقط سردٌ لحُلم موراي. إن واحدةً من أكثر الصفات المحيرة لذلك النوم اليقظ الغريب هو أن الأحلام التي يبدو أنها تُغطي أحداثًا تستغرق شهورًا أو حتى سنوات قد تستغرق ما لا يزيد عن بضع ثوانٍ أو دقائق.

جلس موراي منتظرًا في زنزانته داخل عنبر المحكوم عليهم بالإعدام. سطع مصباح قوسي كهربائي بسقف الممر بقوة على منضدته. زحفَت نملة بجموح على ورقة بيضاء جيئةً وذهابًا، إلى أن سدَّ موراي مسارها باستخدام ظرف. حُدد موعد الإعدام بالصعق الكهربائي في الثامنة مساءً. ابتسم موراي في أثناء تمعُّنه في عجائب أكثر الحشرات حكمة.

كان هناك سبعة أشخاص آخرين محكوم عليهم بالإعدام في العنبر. ومنذ أن وصل إلى هناك، شهد موراي ثلاثة مُدانين وهم يُساقون إلى مصيرهم المشئوم؛ أحدهم جُن وأخذ يصارع كذبٍ وقع في مصيدة، والثاني لم يقلَّ عنه جنونًا، وراح يردد كلماتٍ مرائية لتقديس الرب، والثالث كان واهنًا، فانهار وحُمل على لوح. سرح موراي مُفكرًا كيف سيواجه ذلك العقاب؛ حيث كانت تلك الأمسية هي موعد موته المحتوم. واعتقد أن الساعة لا بد أنها أوشكَت على الثامنة مساءً.

في مقابل زنزانة موراي، داخل الممر المكوَّن من صفَّين من الزنازين، قبعت زنزانة بونيفاتشو؛ المجرم الصقلي الذي قتل خطيبتَه والشرطيَّين اللذَين جاءا للقبض عليه. كان موراي قد لعب مع بونيفاتشو لعبة الداما ساعاتٍ طويلة، حيث كان كلٌّ منهما يُخبر عن بُعد خصمه الذي لا يراه عبْر الممَر بحركته المقبلة.

نادى بونيفاتشو بصوته المدوِّي الذي له طابعٌ غنائي لا تخطئه الأذن قائلًا:

«سيد موراي، كيف حالك؟ هل أنت بخير؟»

فردَّ موراي بثبات في اللحظة التي سمَح فيها للنملة بأن تتسلق على المظروف، ثم ألقاها برفق على أرضية الحجرة: «أنا بخير يا بونيفاتشو.»

فعاود بونيفاتشو الحديث: «هذا جيد يا سيد موراي. مَن هُم في وضعنا يجب أن يموتوا كالرجال. سأُعدَم في الأسبوع المقبل. حسنًا. تذكَّر يا سيد موراي أنني تغلبتُ عليك في آخر دور للعبة الداما. ربما نلعب مرةً أخرى في المستقبل. لا أعلم. لعله ينبغي أن ننادي بأعلى صوت كي نتمكَّن من اللعب حيث سيأخذوننا.»

كلمات بونيفاتشو الفلسفية القوية التي أعقبَتْها جلجلة ضحكته الموسيقية التي تُصِم الآذان طمأنَت قلب موراي الجامد بدلًا من أن تخيفه. غير أن بونيفاتشو كان لا يزال لديه أسبوعٌ آخر ليعيشه.

سمع سكان الزنازين صوت المزاليج الفولاذية العالي المألوف عندما فُتح الباب الواقع بنهاية الممَر. أتى ثلاثة رجال إلى زنزانة موراي وفتحوها. رجلان منهم كانا من حراس السجن، والثالث كان «لين»؛ كلا، كان ذلك اسمه في الأيام الخوالي، الآن أصبح القس ليونارد وينستون؛ لقد كان صديقًا وجارًا لموراي من أيام الصبا.

قال بينما كان يُسلم على موراي بقوة وبسرعة: «أقنعتُهم بأن يعينوني بوظيفة قسيس السجن.» وكان يحمل بيده اليسرى الكتاب المقدس واضعًا سبَّابته على صفحةٍ معيَّنة.

ابتسم موراي ابتسامةً خفيفة، وأخذ يُرتِّب موضع كتابَين أو ثلاثة وحاملات أقلام على منضدته الصغيرة. أراد أن يتحدث، لكن بدا أنه لم تخطُر بذهنه أي كلماتٍ مناسبة.

كان السجناء قد سمَّوا هذا السجن — والذي كان بطول ٨٠ قدمًا، وعرض ٢٨ قدمًا — «ليمبو لين». أخرج الحارس الرئيسي لسجن ليمبو لين، الرجل الضخم القوي والعطوف، زجاجة ويسكي صغيرة من جيبه وقدَّمها لموراي قائلًا:

«إنه أمرٌ معتاد، كما تعلم. كل مَن يشعر بأنه بحاجة إلى مُنشِّط يشرب هذا. لا يُوجد خطر من أن يتحول ذلك لعادة، كما ترى.»

شرب موراي كميةً كبيرةً من الشراب الموجود في الزجاجة.

قال الحارس: «رائع يا ولدي! فقط القليل من مُقوٍّ للأعصاب، وكل شيء سيمُر بسلاسة كالحرير.»

خرجوا من الزنزانة للمَمَر، وكان السجناء السبعة يعرفون ما يحدث. سجن ليمبو لين هو عالم خارج نطاق العالم، لكن السجناء كان لديهم وعيٌ عالٍ، وكأنه حاسةٌ سادسة. فقد علم الجميع أن الثامنة مساءً قد اقتربَت لا محالة، وأن موراي سيجلس على كرسي الإعدام عند حلول تلك الساعة. في سجن «ليمبو لين»، هناك أيضًا تسلسُل هرمي للجرائم. الرجل الذي يقتل وجهًا لوجه، الذي يُسقط عدوه ومن يلاحقه، مدفوعًا بالعاطفة المجردة، ومتحمسًا للقتال، يزدري مَن يقتلون باستخدام الخداع أو الغش أو الغدر.

لذا، من بين السبعة المحكوم عليهم بالإعدام، ثلاثة فقط ودَّعوا موراي في أثناء سيره في الممر بين الحارسَين، وهم: بونيفاتشو، ومارفين، الذي قتل حارسًا عندما حاول الهروب من السجن، وباسيت، سارق القطارات، الذي كان الدافع وراء جريمته هو رفض حارس الأشياء الثمينة أن يرفع يديه مستسلمًا عندما أمره بذلك. بقيَ الأربعة الآخرون صامتين وممتعضين في زنازينهم؛ إذ طغى بشدة شعورُهُم بالنبذ الاجتماعي داخل مجتمع ليمبو لين على شعورهم بالذنب لجرائمهم الأقل درامية.

تعجَّب موراي من هدوئه وتقريبًا عدم اكتراثه. كان هناك نحو عشرين شخصًا بغرفة الإعدام، تجمُّع مكوَّن من ضباط السجن، ومراسلي الجرائد، والمتفرجين الذين نجحوا في الوصول إلى هناك.

هنا وفي منتصف هذه الجملة، خطَف الموت الكاتب أوليفر هنري من دون أن يستكمل قصته الأخيرة. كان يخطط أن تكون هذه القصة مختلفة عن بقية قصصه؛ إذ كان يعتبرها بداية لسلسلةٍ جديدة من القصص لها أسلوبٌ لم يُجرِّبه من قبلُ. قال: «أريد أن أبيِّنَ للقراء أن بإمكاني كتابة شيءٍ جديد — أقصد جديدًا بالنسبة إليَّ — قصة من دون عامية، حبكة درامية بسيطة معالجة بطريقة تقترب من فكرتي عن الكتابة القصصية الحقيقية.» لكنه قبل أن يبدأ كتابة هذه القصة، كان قد وضع خطوطًا عريضةً مختصرة لكيفية كان ينتوي بها أن يبني تلك القصة: واجه موراي، المجرم المتهم والمُدان بتهمة القتل الوحشي لحبيبته — وهو قتلٌ بدافع الغضب الناجم عن الغَيرة — في البداية عقوبة الإعدام بهدوء، وبدا أنه غير مبالٍ بمصيره. وعند اقترابه من الكرسي الكهربائي، فجأة غمره انفعالٌ شديد. أحس بالذهول والتصلُّب والتفاجؤ. المشهد بأكمله في غرفة الموت — المتفرجون والشهود

وتحضيرات الإعدام — بدا له غيرَ حقيقي. يعتقد أن هناك خطأً كبيرًا. لماذا يجلس مُقَيدًا على الكرسي؟ ماذا فعل؟ ما الجريمة التي ارتكبها؟ في الدقائق القليلة التي تخلَّلَت تقييده بالكرسي، تطرأ على ذهنه رؤيةٌ ما. إنه يحلُم حُلمًا. يرى كوخًا ريفيًّا صغيرًا لامعًا مُضاءً بضوء الشمس، قابعًا وسط تعريشة من الزهور. تُوجد هناك امرأة، وكذلك طفلٌ صغير. هو يتحدث إليهما ويجد أنهما زوجتُه وطفلُه، وأن الكوخ هو منزلهم. لذا يتضح في النهاية أن هذا خطأ. لقد أخطأ شخصٌ ما خطأً مُروِّعًا لا يُغتفر. التهمة والمحاكمة والإدانة، والحكم بالإعدام صعقًا بالكهرباء ... كل ذلك كان حُلمًا. ضمَّ زوجتَه بين ذراعَيه، وقبَّل طفله. نعم، هذه هي السعادة بعينها. لقد كان حُلمًا. ثم ... وبإشارة من حارس السجن جرى تشغيل التيار الكهربائي المُميت.

لقد رأى موراي الحُلم الخاطئ.

آخر ورقة شجر

في منطقة صغيرة غرب ميدان واشنطن سكوير، غدت الشوارع مُربكة وانقسمَت إلى عدة قطاعاتٍ صغيرة تُدعى «الأماكن». هذه «الأماكن» خلقَت منحنياتٍ وزوايا عجيبة. أحد الشوارع هناك يتقاطع مع نفسه مرةً أو اثنتَين. يومًا ما اكتشف فنانٌ احتماليةً مهمةً في هذا الشارع. فالشخص الذي يأتي ليحصل على مقابل قائمة مشتريات من ألوان الرسم والورق ولوح الرسم، من خلال تجوُّله بهذا الشارع، يمكن فجأة أن يقابل نفسه وهو عائد وليس معه سنتٌ واحد من ثمَن تلك الأشياء!

لذا سرعان ما قرَّر الفنانون أن يتجهوا إلى حي جرينتش فيلدج القديم العجيب، باحثين عن نوافذَ شمالية، وجملوناتٍ ذات طراز يعود للقرن الثامنَ عشَر وعُليَّاتٍ ذات طرازٍ هولندي، وإيجاراتٍ قليلة. ثم جلبوا من الجادة السادسة بعض أكواز القصدير وموقدًا صغيرًا أو اثنَين لتسخين الطعام، وأصبحوا بمنزلة «مُستعمرة».

وبأعلى منزلٍ من الطوب مكوَّن من ثلاثة طوابق، كانت سو وجونسي تسكنان في شقة صغيرة. «جونسي» يُعَد أحد أشكال الاسم جوانا. إحداهما كانت من ولاية مين والأخرى من كاليفورنيا. تقابلتا بمطعم ديلمونيكوس بالشارع الثامن عندما كانتا تتناولان الوجبة الموحَّدة السعر، وشعرتا بتقارب أذواقهما في الفن، واشتراكهما في حب سلَطة الشيكوريا والملابس التي تشبه أكمامها أكمام الرهبان، ومن هنا تشاركتا العيشَ في الشقة نفسها.

كان ذلك في شهر مايو. وفي نوفمبر، زار المستعمرة دخيلٌ قاسي القلب غير مرئي يُطلِق عليه الأطباء «الالتهاب الرئوي»، وأخذ ينبش بأنيابه القوية الناس هنا وهناك. وعلى الجانب الشرقي، اختال ذلك المُدمر بجراءة، ضاربًا ضحاياه بأعدادٍ كبيرة، لكن أقدامه تسحبَت ببطء خلال متاهة «الأماكن» الضيقة التي تترعرع بها الطحالب.

لم يكن المدعو الالتهاب الرئوي ما يمكن أن تقول عنه سيدًا نبيلًا شهمًا. فلم يقوَ ذاك الأخرق العجوز ذو القبضتَين الحمراوَين والأنفاس القصيرة على مهاجمة الفتيات الضئيلة الحجم الضعيفات بسبب الرياح الغربية لكاليفورنيا. لكنه أصاب جونسي، ورقدَت بالكاد تستطيع التحرك على سريرها الحديدي الملون، وبقيَت هكذا تنظر عبْر ألواح النافذة الهولندية الصغيرة إلى الجانب الفارغ في المبنى المقابل المصنوع من الطوب.

وفي صباح يوم ما، استدعى الطبيب، المشغول بسبب ارتفاع حالات الإصابة، سو إلى رواق المنزل وكان حاجباه رماديَّين أشعثَين.

وقال لها وهو يرجُّ الزئبق داخل الترومتر الطبي: «احتمال نجاتها واحد من ... دعينا نقُل، عشرة.» وأضاف: «وهذا الاحتمال متوقف على أن ترغب هي في الحياة. عندما لا يرغب الشخص في الحياة، تصبح جميع الأدوية بلا قيمة. صديقتكِ الشابة تعتقد أن حالتها لن تتحسَّن. هل هناك أي شيء يشغلها؟»

فأجابت سو: «إنها ... إنها تريد أن ترسم خليج نابولي يومًا ما.»

فرد الطبيب: «ترسم؟! هراء! هل لديها أي شيء يستحق أن تنشغل به ... رجل على سبيل المثال؟»

فردَّت سو بصوتٍ به رنة أشبه بقيثارة اليهود: «رجل؟ وهل الرجل يستحق؟ ... لا يا دكتور، لا يُوجد شيء من هذا القبيل.»

فقال الطبيب: «حسنًا، إنه الضَّعف إذن. سأفعل كل ما يمكنني فعله من جهدٍ طبي. لكن عندما يبدأ مريضي يفكر في عدد العربات التي ستحضُر جنازته، ينخفض ٥٠ بالمائة من القدرة الشفائية لأدويتي. إذا تمكنتِ من أن تجعليها تسأل سؤالًا واحدًا عن موضة أكمام المعاطف الفضفاضة الشتوية الجديدة، أعدُكِ بأن احتمال نجاتها سيرتفع إلى واحد من خمسة بدلًا من واحد من عشرة.»

رحل الطبيب، فدخلَت سو إلى حجرة العمل وأجهشَت بالبكاء حتى ابتل منديلها الياباني عن آخره. ثم ذهبَت إلى غرفة جونسي حاملةً لوحة الرسم متبخترةً في مشيتها وهي تصفر بلحن مقطوعة بموسيقى الراجتايم.

كانت جونسي راقدةً ونادرًا ما كانت تحرك جسدها تحت الغطاء، وكانت تُصوِّب وجهها ناحية النافذة. توقَّفَت سو عن الصفير معتقدةً أنها نائمة.

وضعَت سو الحاملة وبدأَت في عمل رسمة بالقلم والحبر، تلك التي ستكون بمنزلة رسمةٍ توضيحية لقصة بمجلة. الفنانون الصغار يجب أن يستهلُّوا طريقهم في الفن من

خلال رسم صور لقصص المجلات التي يكتبها الكُتَّاب الصغار، حتى يستهلوا — هم كذلك — طريقهم في عالم الأدب.

وبينما كانت سو ترسم بنطال ركوب الخيل الأنيق والنظارة الأحادية العدسة للبطل، الذي كان أحد رعاة بقر أيداهو، سمعَت صوتًا خافتًا يتكرر عدة مرات. اقتربَت بسرعة من السرير.

كانت عينا جونسي مفتوحتَين. وكانت تُحدق خارج النافذة، وتَعُدُّ الأرقام، تَعُدُّها تنازليًّا.

إذ تقول: «١٢ ... ١١ ... ١٠ ... ٩ ... ٨ ... ٧»، ردَّدتها تقريبًا في الوقت نفسه.

نظرت سو باهتمام خارج النافذة. ماذا هنالك كي يُعد؟ يُوجد فقط فناءٌ كئيبٌ خالٍ، وجانب المبنى الطوبي الخالي الذي يَبعُد عشرين قدمًا. وكذلك يُوجد لبلابٌ عتيق، ملتوٍ وذابل عند الجذور، ذلك الذي تسلق حتى وصل إلى نصف جدار المبنى. اقتلعَت رياح الخريف الباردة أوراقه حتى تشبثَت فروعه الرفيعة، الخالية تقريبًا من الأوراق، بالطوب المتداعي.

سألت سو: «ماذا هنالك يا عزيزتي؟»

فقالت جونسي على نحوٍ شبه هامس: «٦. أصبحَت الآن تتساقط على نحوٍ أسرع. كانت هنالك مائة منها تقريبًا منذ ثلاثة أيام. لقد آلمني رأسي من إحصائها. لكن الآن صار الأمر سهلًا. ها هي ذي واحدةٌ أخرى تسقُط. الآن بقيَت خمسٌ فقط.»

فتعجَّبَت سو مستفسرة: «خمسٌ من ماذا يا عزيزتي؟ أخبري صديقتك سودي.»

فقالت جونسي: «الأوراق. أوراق اللبلاب. حينما تسقط آخر ورقة، سأموت أنا أيضًا. لقد علمتُ ذلك منذ ثلاثة أيام. ألم يُخبرك الطبيب؟»

فاحتجَّت سو بنبرة توبيخ: «لم أسمع بمثل هذا الهُراء من قبل. ما علاقة أوراق اللبلاب الذابلة بتعافيكِ من مرضك؟ وأنتِ اعتدتِ أن تُحبي ذلك اللبلاب، أيتها الفتاة الشقية. لا تكوني حمقاء. عجبًا، أخبرَني الطبيب هذا الصباح أن فرصتك في التعافي قريبًا جدًّا هي — ودعيني أردِّد كلماته بالضبط — قال إن احتمال الشفاء هو عشرة لواحد! عجبًا، إنها نسبة تعادل فرصة نجاتنا عندما نستقل الترام، أو حينما نعبر بجوار مبنًى جديد في شوارع نيويورك. حاولي أن تشربي بعضَ الحساء الآن، ودعي صديقتكِ سودي تركز على رسمها كي تتمكَّن من بيعها لمحرر المجلة، وتشتري بالمقابل بعض نبيذ البورت من أجل طفلتها المريضة، وبعض شرائح لحم الخنزير من أجل شهيتها الشرهة.»

قالت جونسي، وعيناها مُثبَّتتان على النافذة: «لا تُوجد حاجةٌ لإحضار أي نبيذ. ها هي ورقة أخرى تسقط. ولا أريد أي حساء. هذا يجعل عدد الأوراق المُتبقية أربعًا فقط. أريد أن أُعاينَ آخر ورقة تسقط قبل أن يحل الظلام. وحينها سأذهب أنا الأخرى.»

مالت سو بجسدها ناحية صديقتها قائلة: «يا عزيزتي جونسي، هل تعدينَني بأن تُغلقي عينيكِ وألا تنظري إلى النافذة حتى أنتهي من عملي؟ يجب أن أُسَلِّم تلك الرسومات بحلول الغد. وأحتاج لضوء النافذة وإلا لأغلقتُ الستارة.»

فسألَت جونسي بلا مبالاة: «ألا يُمكنكِ أن ترسمي في الغرفة الأخرى؟»

فقالت سو: «أُفضِّل أن أبقى هنا بجوارك. كما أنني لا أريدكِ أن تستمرِّي بالنظر إلى أوراق اللبلاب السخيفة تلك.»

قالت جونسي وهي تُغلق عينَيها وترقد شاحبة وساكنة كالتمثال الساقط على الأرض: «أخبريني حالما تنتهين من عملك؛ لأنني يجب أن أشاهد آخر ورقة وهي تسقط. لقد سئمتُ الانتظار. وأرهقَني التفكير. أريد أن أحرِّر قبضتي من كل شيء، وأهوي لأسفل، لأسفل، تمامًا كتلك الأوراق المسكينة الذابلة.»

فقالت لها سو: «حاولي أن تنامي. يجب أن أذهب لإحضار إيرمان كي يكون موديلًا لعامل المنجم المنعزل العجوز الذي سأرسمه. لن أغيبَ طويلًا. لا تحاولي أن تتحركي حتى أعود.»

العجوز إيرمان هو رسامٌ يعيش في الطابق الأرضي بالمبنى نفسه. لقد تجاوز الستين من عمره، ولديه لحية تشبه لحية موسى في منحوتة مايكل أنجلو؛ حيث تنسدل لحيته المجعَّدة من رأسه الشبيه برأس الساطير، وهو أحد آلهة الإغريق، وتمُر على جسده القصير. كان إيرمان فنانًا فاشلًا. فعلى مدار أربعين عامًا، ظل يزاول الرسم بلا أي نجاحٍ كبير. لطالما أراد وحلَم بأن يرسم تُحفة فنية، لكنه لم يبدأ قَط في رسمها. لعدة سنوات لم يرسم أي شيء باستثناء بعض الرسومات السخيفة للأعمال التجارية أو الإعلانات. كان يكسب القليل من المال من عمله كموديل للفنانين الصغار في المستعمرة ممن لا يمكنهم تحمُّل تكاليف الموديل المحترف. كان يلتهم شراب الجين بإفراط، ولا يتوقف عن الحديث عن تُحفته الفنية المُنتظَرة. وكان من صفاته الأخرى أنه رجلٌ عجوز قصير صارم، يسخر بشدة من الرقة في البشر، ويعتبر نفسه بمثابة كلب حراسة خاص يقف حارسًا للفنانتَين الصغيرتَين الساكنتَين في الأعلى.

دخلَت سو شقة إيرمان ذات الإضاءة الخافتة بالأسفل ووجدتها تفوح منها بشدة رائحة توت العرعر. وفي إحدى زوايا الشقة، كانت تقبع لوحة رسم فارغة، على حامل، تنتظر منذ خمسة وعشرين عامًا أن تستقبل أول خط من التحفة الفنية. أخبرَتْه سو بخيالات صديقتها جونسي، وكيف أنها تخشى؛ حيث إنها بالفعل ضعيفة وهشَّة كورقة شجرة، من أن تسقط وتُفارق الحياة إذا ازداد ضعف الخيط الهزيل الذي يربطها بالعالم.

احمرَّت عينا العجوز إيرمان من الغضب، وعبَّر عن ازدرائه واحتقاره لمثل تلك الخيالات الحمقاء.

وصاح: «ماذا! هل هناك أناسٌ على الأرض يمتلكون من الغباء ما يجعلهم يظنون أنهم سيموتون بعد سقوط آخر أوراق لبلاب ذابل؟! لم أسمع شيئًا كهذا من قبلُ. لا، أنا لن أقف كموديل لرسمتك السخيفة لعامل المنجم الأحمق. لماذا سمحتِ بمثل تلك الأمور السخيفة بأن تقتحم عقلها؟ جونسي، يا لها من مسكينة ضعيفة!»

فردَّت عليه سو: «إنها ضعيفة وواهنة للغاية، ولقد أتعبَت الحمى عقلها وجعلَتْه مليئًا بالخيالات العجيبة. حسنًا يا سيد إيرمان، إذا كنتَ غير مهتم بأن تقف لأرسمك، فأنا لستُ بحاجة لك. لكنني أعتقد أنك عجوزٌ بغيض ... عجوزٌ ثرثار أحمق!»

فصاح إيرمان معترضًا: «لا تكوني امرأة ساذجة. من قال إنني لن أقف لترسميني؟ هيا. سأذهب معك. لمدة نصف ساعة وأنا أحاول أن أخبركِ بأنني مستعد كي ترسميني. يا إلهي! هذا ليس بمكانٍ ملائم للآنسة جونسي الرائعة لترقد مريضة به. يومًا ما سأرسم تحفتي الفنية، وسأكسب مالًا يجعلنا نرحل جميعًا بعيدًا عن هنا. يا إلهي! أليس ذلك برائع؟!»

عندما صعدا للأعلى، كانت جونسي نائمة. فأغلقَت سو ستارة النافذة، وانتقلَت هي وإيرمان للغرفة الأخرى. وهناك حدَّقا خارج النافذة في اللبلاب بعيونٍ مرتعدة. ثم تبادلا النظرات في صمتٍ للحظة. في تلك الأثناء، كان المطر الممتزج بالثلوج يتساقط بشكلٍ مستمر. إيرمان، مرتديًا قميصه الأزرق البالي، جلس مثل عامل منجم منعزل على قِدرٍ مقلوب سيظهر في الرسمة على أنه صخرة.

حين استيقظَت سو بعد ساعةٍ واحدة من النوم في الصباح التالي، وجدَت جونسي تنظر بعينَين فاغرتَين شاحبتَين نحو ستارة النافذة المغلقة.

أمرَت سو بصوتٍ هامس: «ارفعيها؛ أريد أن أرى.»

فسايرتها سو بتجهُّم.

لكن، لا! بعد كل تلك الأمطار الكثيفة والرياح العاتية التي استمرَّت طوال الليلة الماضية، وقفَت ورقة لبلاب واحدة صامدة على جدار المبنى. كانت تلك هي الأخيرة على اللبلاب. كانت الورقة — التي لا يزال لونها أخضر داكنًا عند جذعها لكن حوافيها المدبَّبة مُصفَرَّة من التحلل والذبول — معلقةً بشموخ على فرعٍ يرتفع عن الأرض عشرين قدمًا تقريبًا.

فقالت جونسي: «إنها الأخيرة. اعتقدتُ أنها كانت ستسقط بالتأكيد في أثناء الليل. لقد سمعتُ صوت الرياح. إنها ستسقط اليوم، وسأموتُ في اللحظة نفسها.»

فقالت سو، مُسندةً وجهَها المنهَك على الوسادة: «يا عزيزتي، يا عزيزتي، فكِّري في أمري إذا لم يعُد يهمكِ أمرك. ماذا سأفعل أنا من غيرك؟»

لكن جونسي لم تردَّ على صديقتها. إن أكثر الأشياء شعورًا بالوحشة في هذا العالم، هي تلك الروح التي قد أعدَّت نفسها للذهاب في رحلةٍ غامضةٍ بعيدة. بدا الأمر وكأن تلك الفكرة الخيالية قد استحوذَت عليها أيما استحواذ، مع بدء الروابط التي تربطها بالصداقة والعالم في الانحلال الواحدة تلو الأخرى.

انقضى نهار اليوم، وظلت الورقة متعلقة بجذعها مقابل الجدار حتى خلال وقت الغَسَق. وحلَّ الليل وعادت الرياح الشمالية تضرب من جديد تُرافقها غزارة الأمطار التي تقرع بمخالبها النوافذ وحواف الأسطح المحدَّبة الخفيضة للمنازل بلا هوادة.

ومع بداية سطوع الشمس، عادت المستبدة جونسي لتوجه أوامرها بفتح ستارة النافذة.

ورقة اللبلاب كانت لا تزال صامدة.

ظلت جونسي توجِّه بصرها تجاه الورقة فترة طويلة. ثم نادت على سو بينما كانت الأخيرة تُقلب حساء الدجاج الذي أعدَّته من أجل صديقتها على الموقد.

ثم قالت جونسي: «لقد كنتُ فتاةً سيئةً يا سو. شيءٌ ما دفع تلك الورقة الأخيرة لكي تظل صامدة كي تنبهني كم كنتُ شريرة مؤخرًا. الرغبة في الموت خطيئة. فلتُحضري لي بعض الحساء الآن، والقليل من الحليب وعليه بعض قطرات نبيذ البورت، و... لا؛ أحضري لي مرآة يد أولًا ثم اجمعي بعض الوسائد حولي لأجلس وأشاهدك وأنت تطبخين.»

وبعد ساعة عادت لتُحدِّث صديقتها قائلة:

«آمل يومًا ما أن أرسم خليج نابولي يا سودي.»

جاء الطبيب عصرًا، وصاحبَتْه سو إلى الخارج بعد أن فحص جونسي.

قال الطبيب وهو يمسك يد سو النحيلة المرتجفة: «الآن احتمالات نجاتها وموتها متساوية. مع بعض الرعاية الجيدة، ستنجو. والآن يجب أن أرحل لأرى حالة مريض في الدور الأرضي لمبناكم. اسمه إيرمان ... وعلى حد علمي هو تقريبًا فنان. إنه يعاني من الالتهاب الرئوي أيضًا. هو رجل عجوز ضعيف وحالته خطيرة. لا يوجد أي أمل له في نجاته، لكنه سيذهب اليوم للمستشفى لينعم براحة أكبر.»

في اليوم التالي، أخبر الطبيب سو: «صديقتكِ تخطت مرحلة الخطر. لقد رَبِحتِ المعركة. التغذية والرعاية الآن؛ هذا كل ما في الأمر.»

في عصر ذلك اليوم، جلسَت سو بجوار سرير جونسي، تَغمرها السعادة، وأخذَت تحيك شالًا صوفيًّا بسيطًا أزرق، واضعة إحدى ذراعَيها حول جونسي وكَومة الوسائد.

قالت: «لديَّ خبر لكِ يا فأرتي البيضاء. لقد تُوفي السيد إيرمان من الالتهاب الرئوي اليوم في المستشفى. لقد استمر مرضه يومَين فقط. عثَر البواب عليه في صباح أول يوم مستلقيًا بغرفته لا يقوى على تحمُّل ألمه. كانت ملابسه وحذاؤه مبتلَّين وباردَين كالثلج. لم يتخيل أحدٌ إلى أين يُمكن أن يكون قد ذهب في تلك الليلة العاصفة. ثم عثَروا على مصباح لا يزال مُضاءً، وسُلَّم أُحضر من موضعه، ولوحة ألوانٍ ممزوج داخلها اللونان الأخضر والأصفر، وبعض فُرش التلوين المُبعثرة؛ و... انظري من النافذة يا عزيزتي إلى ورقة اللبلاب الأخيرة المعلقة على الجدار. ألم تتساءلي لماذا لم ترفرف أو تتمايل قط عندما هبَّت الرياح؟ آه، يا محبوبتي، إنها تُحفة إيرمان الفنية؛ لقد رسمها على الجدار في اليوم الذي سقطَت فيه آخر ورقة.»

قصة جريدة

في الساعة الثامنة صباحًا، كانت الجريدة موجودة على أرفف كشك الجرائد الخاص بجوسيبي وكانت لتوها قد خرجَت من المطبعة. جوسيبي، وكما اعتاد الحاذقون من أمثاله، وقف في الجهة المقابلة للكشك مغازلًا المارة، وتاركًا إياهم يُعاونون أنفسهم على اقتناء ما يشاءُون من الجرائد، وكان لا يحمل شكًّا بالفرضية التي تقول بأن الإناء المُراقَب لا يغلي أبدًا.

كانت تلك الجريدة، على وجه التحديد، ووفقًا لما يشير إليه تصميمها ودأبها، جريدة تعليمية وإرشادية تُطلِع قراءها على كل جديد وتدافع عن مصالحهم، وتقدم لهم استشاراتٍ موثوقًا بها في الشئون المنزلية.

من مزاياها العديدة يمكن أن نختار ثلاثة مقالات. أولها كان مصوغًا بلغة بسيطة وواضحة لكنها مستنيرة، وكان موجهًا لأولياء الأمور والمعلمين، ويستنكر العقاب البدني للأطفال.

وثانيها كان يتضمن اتهامًا وتحذيرًا مهمًّا موجَّهًا لأحد القيادات العمالية السيئة السمعة، الذي كان على وشك تحريض أتباعه على القيام بإضراب من شأنه أن يثير المشاكل.

أما ثالث تلك المقالات، فكُتِبَ على هيئة مطالبةٍ بليغةٍ بدعم الشرطة ومساعدتهم بكل شيء من شأنه أن يُحسِّن من كفاءة عملهم في حماية الناس وخدمتهم.

إلى جانب تلك المطالبات والاتهامات الأكثر أهمية المتعلقة بالمواطنة الجيدة، كانت تُوجد في عمود «من القلب للقلب» روشتة أو وصفة حكيمة تصف لشاب يشتكي من عناد الفتاة التي يحبها كيف يُمكن أن يحظى بحبها.

وفي صفحة الجمال، أُفرِدَت إجابةٌ كاملة لفتاةٍ شابةٍ تستفسر عن بعض النصائح اللازمة للحصول على عينَين جذابتَين، وخدَّين متوردَين، وطلة مُشرقة.

ومن العناصر الأخرى التي تستحق ذكرًا خاصًّا هنا «إعلان شخصي» عبارة عن رسالةٍ قصيرة محتواها كالتالي:

عزيزي جاك، سامحني. لقد كُنتَ على حق. قابِلني عند زاوية ماديسون و... في الساعة الثامنة والنصف صباح اليوم. سنغادر في الظهيرة.

النادمة

في تمام الثامنة صباحًا، مَرَّ شابٌّ على كشك جرائد جوسيبي، ووضع سنتًا على طاولته، وحصل على نسخة من الجريدة، وكشفَت عيناه عن نظرة شاحبة وبدت عليه أمارات عدم الراحة. لقد قضى الشاب ليلته الماضية بلا نوم فاستيقظ متأخرًا. وكان عليه الوصول إلى مكتبه في التاسعة صباحًا، وحلق ذقنه وشرب فنجان قهوة سريعًا في الوقت المتبقي.

عرج في طريقه على محل الحلاقة الذي يتعامل معه، ثم خرج مسرعًا في طريقه. طوى جريدته داخل جيبه على أمل أن يطَّلع عليها لاحقًا لا في أثناء تناول غدائه. وعند ناصية الشارع التالي، سقطَت الجريدة من جيبه وسقط معها قفازه الجديد. وبعدما عبَر ثلاث مجموعات مبانٍ، انتبه لوقوع قفازه وعاد أدراجه غاضبًا.

مضت نصف ساعة حتى وصل إلى الناصية التي وقع عندها القفاز والجريدة. ولكنه فجأة نسي على نحوٍ غريب السبب الذي عاد لأجله. فقد أمسك بيدَين صغيرتَين وضمَّهما بقبضتَيه بأقصى قوة، وأخذ ينظر إلى عينَين بُنيتَين نادمتَين والسعادة تملأ قلبه.

قالت الفتاة: «عزيزي جاك، كنتُ على يقين أنك ستأتي إلى هنا في الوقت المحدد.»

فحدَّث الشاب نفسه: «يا تُرى ما الذي تقصده بتلك الكلمات؟ لكن لا يهم، لا يهم.»

هبَّت ريحٌ غربية قوية، أخذت الجريدة من فوق الرصيف وفتحتها ثم طيَّرتها في الهواء إلى أن ألقتها على الأرض بشارع جانبي. وفي مقدمة ذلك الشارع الجانبي، كان الشاب الذي راسل قسمَ «من القلب للقلب»، من أجل وصفة تُمكنه من الظفر بحبه، يقود عربة ذات عجلاتٍ عنكبوتية يجرُّها حصانٌ كستنائي تسهل إخافته.

رفرفَت الجريدة في الهواء مجددًا من هبَّة ريح لعوب، فطارت ملتصقة في وجه الحصان. ثار الحصان في ذُعر فانطلق متخبطًا مهتاجًا بالعربة على مسافة أربع مجموعات مبانٍ. ثم اصطدم بصنبور مياه، ذلك الذي كان هناك ليلعب دوره في هذا القَدر الكوني،

فتحوَّلَت العربة إلى شظايا من الخشب، وارتمى السائق الشاب على الأسفلت ساكنًا في مكانه أمام قصرٍ مصنوع من الحجر الرملي البني.

خرج أناسٌ من القصر وحملوه إلى الداخل على الفور. متجاهلة كل الناظرين، صنعَت فتاةٌ شابة وسادة لرأسه، ومالت نحوه قائلة: «أوه، لقد كنتَ أنت، أنتَ المنشود على الدوام يا بوبي! ألم ترَ ذلك؟ وإذا مِت، كان عليَّ أن أموت أنا كذلك، و...»

دعُونا نترك ذلك ونذهب لنلحق بالجريدة مع تلك الريح.

أمسك شرطي يُدعى أوبراين بالجريدة لكونها شيئًا من شأنه أن يعيق المرور. وقف أوبراين أمام البوابة العائلية لمقهى شاندون بيلز، وأخذ يرتب صفحات الجريدة غير المرتَّبة بأصابعه الضخمة البطيئة. حينها لفت نظره عنوان في الجريدة ردده بتأمل. «الصحافة تلعب دورًا مهمًّا في مساعدة الشرطة.»

قاطعه صوت داني، كبير عاملي المقهى، القادم من باب المقهى نصف المفتوح: «تفضل جرعة من الشراب أيها العجوز مايك.»

خلف تلك الأعمدة الكثيرة والمحبَّبة للقلب بين صفحات الجريدة، تناول الشرطي أوبريان الشراب الذي كان من نوعٍ فاخر. ثم مضى في طريقه قويًّا ومنتعشًا ومجدِّدًا لقواه لاستكمال عمله. بالتأكيد، كان بإمكان المحرر الصحفي أن يفخر بالنتائج الفورية والمعنوية والمادية لجهوده.

طوى الشرطي الجريدة ودسَّها مازحًا تحت ذراع فتًى صغير كان مارًّا. كان اسم ذلك الولد جوني، وقد أخذ جوني الجريدة معه إلى المنزل. أخته كانت تُدعى جلاديس؛ وهي الفتاة التي راسلَت محرر قسم الجمال، طالبةً منه أن يخبرها بلمساتٍ عملية للجمال. أرسلَت جلاديس رسالتها منذ عدة أسابيع مضت، وتوقفَت عن انتظار الرد. كانت جلاديس فتاة ذات هيئةٍ شاحبة وعينَين غير جذابتَين وعلى وجهها تعبيرٌ ساخط. كانت ترتدي ملابسها للخروج إلى الشارع كي تشتري بعض أشرطة الشعر. شبَّكَت جلاديس ورقتَين من صفحات الجريدة التي جلبها أخوها أسفل تنورتها. وفي أثناء سيرها، كان صوت الخشخشة يحاكي تمامًا الصوت الذي يصدر من الملابس الحريرية.

قابلَت جلاديس في الطريق فتاةً سمراء تسكن في الشقة التي توجد أسفل شقتها، ووقفتا تتبادلان الحديث. فجأة تغير لون وجه الفتاة السمراء. إذ علمَت بأن ذلك الصوت الصادر من تنورة جلاديس لا يمكن أن يصدر إلا من حرير يبلغ سعر الياردة منه خمسة دولارات. اشتعلَت نيران الغَيرة في قلب تلك الفتاة السمراء، وقالت بعضَ الكلمات الحاقدة، ثم رحلَت في طريقها وهي تزمُّ شفتَيها.

استأنفَت جلاديس سَيْرها. وتلألأَت عيناها الآن كالألماس. وتورَّد خداها، وانطبعَت على وجهها ابتسامةٌ ناعمة مُظفَّرة مفعَمة بالحيوية. بدت جميلة. فيا ليت محرر قسم الجمال قد رآها الآن! بالتأكيد كانت هنالك نصيحة في إجابته تدعو إلى إبداء بعض الطيبة تجاه الآخرين، ما من شأنه أن يُحول الملامح العادية إلى ملامح جذابة.

كان والد جلاديس وجوني هو القائد العمالي الذي أُرسل إليه تحذيرٌ مهيب وجاد عبْر مقال الجريدة. أخذ الوالد ما تبقى من الجريدة بعد أن استخدمَت جلاديس بعض صفحاتها لإصدار صوت الحرير التجميلي. لم تقع عينه على المقال، لكن بدلًا من ذلك سرقتَ نظره إحدى تلك الأحاجي البارعة والماكرة التي ينجذب لها الأحمق والحكيم على حدٍّ سواء.

مزَّق القائد العمالي نصف الصفحة، وجلس إلى طاولة وأحضر قلمَ رصاصٍ وورقة وانكَب على حل الأحجية.

مرَّت ثلاث ساعات، وبعد انتظار العمال، دون جدوى، ظهور قائدهم في المكان المحدَّد، قام قادةٌ محافظون أكثر بإعلان وتأييد قرار التحكيم، وبذلك تلاشت مخاطر الإضراب. وأشارت طبعاتٌ لاحقة من الجريدة، بخطوط ملوَّنة وبلهجة زهو، إلى نجاحها في إحباط خطَط القائد العمالي المزعومة.

لم تتوانَ البقية الباقية من صفحات الجريدة أيضًا عن إثبات مدى فاعليتها.

عند عودته من المدرسة، فتَّش جوني عن مكان منعزل، وأزال صفحات الجريدة التي دسَّها أسفل ملابسه المدرسية؛ حيث وزَّعها جوني على مناطق جسده بذكاء، كي يحمي المناطق التي عادةً ما تتعرض للعنف المدرسي من جانب المعلمين. لقد كان جوني يرتاد مدرسةً خاصة، وطالما عانى من مشاكل جمَّة مع مدرِّسه. وكما ذكَرنا، فقد كان في الجريدة مقالٌ مميز ضد العقاب البدني في تلك الطبعة الصباحية، وبلا شك كان له مفعوله.

بعد كل ذلك، هل يُمكن لأيِّ أحدٍ أن يُشكِّك في قوة الصحافة؟

العصافير في ميدان ماديسون

لا يسع الشاب الذي في ظروف حياتية صعبة، والذي ذهب إلى مدينة نيويورك كي يقتحم مجال الأدب، إلا أن يقوم بشيءٍ واحد، بشرط أن يكون قد درس هذا المجال جيدًا قبل ذلك. إذ ينبغي أن يتوجه مباشرةً إلى ميدان ماديسون ليكتب مقالةً عن العصافير هناك، ثم يبيعها إلى جريدة «ذا صن» مقابل ١٥ دولارًا.

كل القصص والروايات التي تتناول هذا الموضوع الشائع، الذي يحكي عن شاب يافع قادم من الريف إلى العاصمة لكي يحصد الشهرة والثروة مستفيدًا من براعة قلمه، اعتادت أن ترسم بطلها وهو يبدأ حياته على هذا النحو. من الغريب أنه لم يحاول أيُّ كاتب قصص أو روايات من قبلُ إضفاء روحٍ أصلية على حبكته بتغيير بعض التفاصيل؛ بحيث يجعل البطل يكتب عن العصافير الزرقاء في ميدان يونيون، ويبيع المقالة إلى جريدة «هيرالد»! لكن البحث خلال أدب العاصمة يُظهر أن العصافير وميدان ماديسون القديم هما اللذان لهما الغلبة، وجريدة «ذا صن» هي التي طالما تدفع المقابل.

وبالطبع يسهل معرفة لماذا دائمًا تنجح تلك المحاولة الأولى للكاتب الناشئ في المدينة. إذ تدفعه الضرورة إلى بذل أقصى جهده، ووسط أجواء المدينة الصاخبة الغارقة في غابة من الحديد والحجر والرخام، يجد نفسه أمام تلك الطيور المغردة والحشائش والأشجار الخضراء للحديقة، ويمتزج كل إحساسٍ رقيق بداخله مع ذاك الألم العذب المنبعث من حنينه لبلدته القديمة، وفي تلك اللحظة تنبعث عبقريته كما لو كانت لحظة الانبعاث الأخير، فيرتفع تغريد الطيور وتتمايل فروع الأشجار، وتتوارى أصوات عجلات العربات؛ وينكفئ الشخص وروحه متجسدة داخل قلمه، ثم يبيع ما كتبه إلى جريدة «ذا صن» مقابل ١٥ دولارًا.

لقد قرأتُ عن تلك الظاهرة خلال الأعوام العديدة التي سبقَت انتقالي إلى نيويورك. وعندما كان أصدقائي يحاولون بشتى الطرق أن ينصحوني بالعدول عن الانتقال إلى هناك، ما كان مني إلا أن أبتسم لهم ابتسامةً هادئة. فهم لا يعرفون شيئًا عن تلك الميزة التي كانت في جَعْبتي.

حينما بلغتُ نيويورك، وأخذَتني السيارة مباشرةً من العبَّارة بأعلى الشارع الثالث والعشرين إلى ميدان ماديسون، كان بإمكاني سماع حفيف الأموال التي ستسكن قريبًا جيبي.

أجَّرتُ غرفة في فندق بسيط، وفي صباح اليوم التالي مكثتُ على أحد مقاعد ميدان ماديسون والعصافير على وشك الاستيقاظ. وحينما تمعَّنتُ في تغريد العصافير المتناغم، وراقَتْني رؤية أوراق الأشجار الجميلة الناضرة التي تستحضر أجواء الربيع، والحشائش الفواحة النظيفة، لاحت أمامي صورة مزرعتي القديمة التي تركتُها، وكادت الدموع تسقط من عيني.

ثم، وفي لحظة خاطفة، شعرتُ بالإلهام يغمرني. شكلَت تلك النغمات الجريئة النافذة من تلك الطيور الصغيرة المبتهجة الأساس لأغنيةٍ بديعة خفيفة وحالمة عن الأمل والبهجة والإيثار. ومثلي، كانت تلك الكائنات ذات قلوبٍ متعلقة بالأشجار والحقول، ومثلي، كانت أسيراتٍ لتلك المدينة الفاترة المتبلدة، ومع هذا تحملت ذلك بقدْرٍ كبير من السمو والسعادة!

بعد ذلك بدأ البشر يتوافدون عابرين ميدان ماديسون إلى أعمالهم؛ كانوا أشخاصًا عابسين، بنظرات جانبية ووجوه كالحة، لا ترى منهم سوى التعجل. أما أنا فاستقيتُ مقالتي من غناء تلك العصافير، والتي تحولَت إلى عِبرة وقصيدة ورقصة كرنفالية وتهويدة؛ ثم حولتُ كل هذا إلى نثر وبدأتُ الكتابة.

سافر قلمي الرصاص عبْر الورق بلا كلل قرابة الساعتَين. وحالما انتهيتُ، غادرتُ إلى الغرفة الصغيرة التي استأجرتُها مدة يومين، وهناك اختصرتُ ما كتبتُ إلى النصف وأرسلتُه، وجسدي تعتمره حرارة الحماس، عبْر البريد إلى جريدة «ذا صن».

استيقظتُ في اليوم التالي مع شروق الشمس، وأنفقتُ سِنتَين من مالي لشراء نسخة من الجريدة. غير أنني لم أتمكن من ملاحظة كلمة عصافير بها.

أخذتُ الجريدة إلى غرفتي، وبسطتُها على سريري، ورحتُ أتفحصها عمودًا وراء عمود. لا بد أن هناك خطأً ما.

بعد مرور ثلاث ساعات، جاء ساعي البريد وأحضر لي مظروفًا كبيرًا يحتوي على مسوَّدة مقالتي، ومعه ورقةٌ رخيصة لا تتعدى أبعادها ثلاث بوصات في أربع بوصات —

أعتقد أن بعضكم قد رأَوها من قبلُ — مكتوبٌ عليها بحبر بنفسجي اللون: «مع تحيات جريدة «ذا صن».»

عُدتُ أدراجي إلى ميدان ماديسون وجلستُ على المقعد. وبالطبع لم تتسع شهيتي لأي فطور ذلك الصباح. بدا لي مظهر الميدان بشعًا ومريعًا في وجود تلك الحشود المرتبكة من العصافير بأصواتها الغبية المزقزقة بلا توقف. لم أرَ قَط طيورًا على ذلك النحو المزعج الوقح المُشتت طوال حياتي.

كان من المفترض في ذلك الوقت، وفقًا لكل التقاليد المعتادة، أن أكون واقفًا داخل مكتب محرر صحيفة «ذا صن». وهذا الشخص — الطويل القامة، الرزين، ذو الشعر الأبيض — يرنُّ بإحدى يدَيه جرسًا فضيًّا قابعًا على مكتبه وباليد الأخرى يصافحني، ثم يمسح النداوة عن نظارته.

كان سيقول لأحد مرءوسيه حينما يظهر: «يا سيد ماكتشيزني، هذا هو السيد هنري، الشاب اليافع الذي أرسل لنا تلك التحفة المنقطعة النظير حول عصافير ميدان ماديسون. امنحه مكتبًا هنا في الحال. وراتبك يا سيد هنري سيكون ٨٠ دولارًا أسبوعيًّا كبداية.»

كان ذلك ما توقعتُه من خلال كل تلك القصص الرومانسية حول نيويورك الموجودة في الأدب.

هناك خطأ حتمًا في هذا التقليد. ولم أشأ أن أتحمَّل اللائمة؛ لذا وضعتُها على عاتق العصافير. فصرتُ أكرهها أيما كره.

وفي تلك اللحظة، وجدتُ شخصًا بجانبي ذا لحية كبيرة، ويرتدي قبعتَين، وحمل معه نفحة هواء مزعجة.

تمتم بنبرة مداهنة: «قُل لي، يا ويلي، هل لك أن تعطيني دايمًا من جيبك لأشتري كوبًا من القهوة هذا الصباح؟»

فقلتُ له: «أنا مُفلِس يا صديقي. جلُّ ما يمكنني أن أمنحك إياه هو ثلاثة سنتات.»

فردَّ عليَّ: «وأنت تبدو رجلًا وقورًا، كذلك. ما الذي أوصلَك إلى هذه الحال ... الخمر؟»

فأخبرتُه بحنق: «الطيور. تلك الطيور المغردة البُنية الرقبة التي تُنشد ألحانها المفعمة بالأمل والسرور لشخصٍ مهترئ مثلي يكابد في وسط غبار وضجيج تلك المدينة. تلك الرسل المجنحة الصغيرة القادمة من المروج والغابات المستغرقة في تغريدها اللطيف على أسماعنا، لتحدثنا عن السماء الزرقاء والحقول المزدهرة. تلك الطيور البغيضة الصغيرة ذات العيون شبه المغمَضة التي تجأر كمجموعةٍ مصطفة من آلات الكاليوب العازفة، والتي تلتهِم بشراهة

بذور الحشائش والحشرات، بينما يجلس ها هنا شخصٌ على مقعد بلا طعام فطور. نعم يا سيدي إنها الطيور! انظر إليها!»

وفي أثناء حديثي التقطتُ فرعَ شجرة ذابلًا مرميًّا بجانب المقعد، ورميتُه بأقصى عزمي تجاه تجمُّع قريب للعصافير كان واقفًا على الحشائش. تفرَّق شمل الحشد وطار إلى الأشجار مُصدِرًا صرخاتٍ صاخبة مجلجلة؛ لكن بقيَ فقط طائران منبطحان على الحشائش.

نهض صديقي البغيض في لمح البصر، وتواثب على صفوف المقاعد حتى انقَض على الطائرَين المصابَين، ووضعَهما في الحال داخل جيبه. ثم أشار إليَّ بإحدى سبابتَيه المتسخَتَين.

قال: «تعالَ يا أخي. حان وقت الطعام.»

اتبعتُ صديقي القذر مثقلًا بالوهن. قادني من الحديقة إلى شارع جانبي، ودخلنا من خلال فتحة سياج إلى منطقة فارغة كانت تتم بها عملية حفر. استقررْنا خلف كَومة قديمة من الحجارة والخشب، ثم أخرج الطائرَين من جيبه.

وقال: «لديَّ أعواد ثقاب. هل لديك أيُّ ورقة حتى نُشعل نارًا؟»

انتزعتُ ورقة مسوَّدة مقالة العصافير من جيبي، وقدَّمتُها كقربانٍ للنار. وجدنا في الجوار ألواحًا ورقائق وشظايا خشبية قديمة ساعدَتنا على إشعال النار. وأخرج صديقي القذر من داخل ملابسه الرثة نصف رغيف من الخبز وبعض الفلفل والملح.

وفي خلال عشر دقائق، كان كلٌّ منا يحمل عودًا معلقًا عليه عصفور أعلى النيران المشتعلة.

قال رفيقي في التخييم: «ذلك ليس بأمرٍ سيئ حينما يشعر المرء بالجوع. وهذا يذكِّرني بأول مرة أتيتُ فيها إلى نيويورك؛ منذ نحو خمسة عشر عامًا. كنتُ قادمًا من الغرب للبحث عن وظيفة في جريدة. جئتُ إلى حديقة ميدان ماديسون في أول صباح لي هنا، وكنتُ أجلس ها هنا على تلك المقاعد. لفت انتباهي تغريدُ العصافير، وكانت الحشائش والأشجار تبدو خضراء وخلابة؛ بحيث شعرتُ وكأنني عُدتُ إلى قريتي من جديد. ثم أخرجتُ بعض الورق من جيبي و...»

فقاطعتُ حديثه: «أعلم ماذا فعلتَ. بالتأكيد أرسلتَها إلى «ذا صن» وحصلتَ على ١٥ دولارًا.»

فردَّ صديقي بريبةٍ: «عجبًا، يبدو وكأنك تعلم الكثير. يا تُرى أين كنتَ حينها؟ وقتَها استغرقتُ في النوم على ذلك المقعد هناك، في الشمس، وسرق شخصٌ مني كل ما أملك من مال؛ أي، ١٥ دولارًا!»

الطرف المذنب

جلس رجلٌ أصهبُ غير حليق وغير مهندم الثياب على كرسيه الهزاز بجانب نافذة. كان قد أشعل للتو غليونه، وأخذ يُطلق سحبَ دخانٍ زرقاء بشعورٍ كبير بالارتياح. كان قد خلع حذاءه وارتدى زوجًا من النعال المنزلية الزرقاء الرثة. بنهَم مَرَضي لتتبُّع وقراءة الأخبار اليومية، فتح على نحوٍ أخرق صفحات جريدةٍ مسائية وأخذ يتابع بحماس العناوين الرئيسية بخطها العريض، ويتبعها بقراءة التفاصيل المكتوبة بخط أصغر.

في غرفة مجاورة كانت تقف امرأة تُحضِّر العشاء. فاحت روائح اللحم المقدَّد والقهوة المغلية وتصارعَت في الهواء مع أبخرة ذلك الغليون المسائي.

كان منزلهما يُوجد في أحد أكثر الشوارع ازدحامًا في الجانب الشرقي الذي، حينما يأتي الغَسَق، يقيم فيه الشيطان مجلسه. حشدٌ كبير من الأطفال كانوا يرقصون ويجرون ويلعبون في الشارع. بعضهم يرتدي ملابسَ ممزقة وبعضهم يرتدي ملابسَ نظيفة ويضع أشرطة الزينة وبعضهم يبدو جامحًا وهائجًا كصقورٍ صغيرة، وبعضهم يتسم بوجوهٍ رقيقة خجولة؛ وبعضهم تتطاير منهم أقبح وأوقح الكلمات، وبعضهم يقفون مستمعين لتلك الكلمات مذهولين منها في بادئ الأمر، لكن سرعان ما يتآلفون معها ويقومون بالشيء نفسه؛ هنا بهذا الشارع كان الأطفال يلعبون في زقاق ساحة الإثم. كان هنالك طائرٌ ضخم يحوم دائمًا فوق ساحة لعب الأطفال. كان الساخرون يرون أنه طائر لقلق. بينما في شارع كريستي كان السكان أكثر علمًا بأسماء الطيور. فكانوا يرون أنه نسْر.

اقتربَت فتاةٌ صغيرة في الثانية عشرة من عمرها في خجلٍ من ذلك الرجل الذي يقرأ ويجلس بجوار النافذة وقالت له:

«يا أبي، هل لك أن تلعب معي لعبة الداما لو لم تكن متعبًا جدًّا؟»

فأجابها الرجل الأصهب غير الحليق، غير المهندم، الجالس بلا حذاء بجوار النافذة بأن عبس في وجهها.

وقال: «الداما! لا لن ألعب. ألا يمكن للرجل الذي يكدُّ في عمله طوال اليوم أن يحصلَ على بعض الراحة حينما يعود إلى منزله؟ لمَ لا تخرجين وتلعبين مع الأطفال الآخرين في الشارع؟»

حضَرَت المرأة، التي كانت تطبخ، إلى الباب.

وقالت: «أنا لا أريد أن تخرج ليزي للَّعِب في الشارع يا جون. إن الأطفال يتعلمون الكثير من الأمور الخطيرة هناك التي قد تضُرهم. لقد مكثَت الفتاة في البيت طيلة اليوم. ولن تخسر كثيرًا إذا ما أعطيتَ لها بعضًا من وقتك لتُسلِّيها عندما تأتي إلى المنزل.»

فردَّ عليها الرجل الأصهب غير الحليق وغير المهندم: «دعيها تخرج وتلعب مثل بقية الأطفال إذا أرادت أن تحصل على بعض التسلية، ولا تزعجيني.»

قال كيد مولالي: «قَبِلتُ الرهان. أراهنك على ٥٠ دولارًا مقابل ٢٥ دولارًا على أنني سوف آخذ آني إلى الحفل الراقص. ضعوا رهانكم.»

امتلأَت عينا كيد السوداوان بنيران التحمُّس لذلك الرهان والتحدي. وأخرج كَومة نقود من جيبه، ووضع خمسَ عشراتٍ على طاولة البار. وأعقبه بعد ذلك بقية الشباب الذين كان عددهم ثلاثة أو أربعة، والذين وضعوا بتمهُّل نقود رهانهم. التقط الساقي، الذي كان المشرف على الرهان بحكم المنصب، النقود من فوق الطاولة وطواها بدأب، وسجَّل الرهان في دفتره باستخدام قلم رصاصٍ قصير جدًّا، ووضع جميع أموال الرهان في ركن درج آلة الدفع.

قال أحد المراهنين وفي عينَيه نشوةٌ استباقية: «ستواجه الكثير من المتاعب في سبيل ذلك.»

فرد عليه كيد بعناد: «تلك مشكلتي. املأ أكوابهم بالشراب يا مايك.»

وبعدما انتهَوا من شرابهم، شد بيرك، مساعد كيد ورفيقه وصديقه ومرشده ووزيره الأكبر، الأخير من ذراعه، وأخذه إلى زاوية الصالون الخاصة بتلميع الأحذية؛ حيث تُسوَّى كل الأمور المهمة والرسمية لنادي الساعات القصيرة الاجتماعي. استغل بيرك فترة تلميع الفتى توني للمرة الخامسة هذا اليوم للحذاء البيج الخاص بكيد؛ الذي كان رئيس النادي وأمين صندوقه، وبدأ يقول لرئيسه بعض الكلمات الحكيمة.

قال له: «فلتترك تلك الشقراء يا كيد، وإلا فستقع في المتاعب. ما الذي تنتوي أن تخسر فتاتك من أجله؟ لن تعثر قَط على فتاةٍ مخلصة تمامًا لك مثل ليز. هي تساوي مئات الفتيات من عينة آني.»

قال كيد وهو يُسقِط رماد سيجارته على حذائه المُلمَّع لتوه، ويمسحه في كتف ماسح الأحذية توني: «أنا لستُ معجبًا بآني! لكنني أريد أن أُلقِّن ليز درسًا. هي تعتقد أنها تمتلكني. وتتباهى بأنني لا أجرؤ على التحدث مع فتاة غيرها. ليز فتاةٌ جيدة، في بعض الصفات. لكنها في الفترة الأخيرة أصبحَت تُسرف في الشراب قليلًا. وصارت تستخدم لغة ينبغي ألا تستعملها سيدة.»

فسأله بيرك: «ألستَ خاطبًا لها؟»

فرد كيد: «بالتأكيد. وربما نتزوج في العام القادم.»

فقال له بيرك: «لقد رأيتك وأنت تعطيها أول كأس جِعة في حياتها. كان ذلك منذ عامَين، عندما اعتادت القدوم إلى زاوية شارع كريستي حاسرة الرأس من دون قبَّعة بعد تناولها العشاء. لقد كانت فتاة خجولة وهادئة للغاية آنذاك، ولم تقدر على الحديث من دون أن يحمَر وجهها.»

فقال كيد: «الآن أصبحَت سريعة الغضب قليلًا بين الحين والآخر. أنا أكره الغيرة. ولذلك سأخرج للرقص مع آني. لعل ليز تتعقل قليلًا.»

فقال له بيرك في النهاية: «حسنًا، من الأفضل أن تتحلى بالحذر. لو كانت ليز فتاتي وقررتُ أن أتسلل من ورائها للرقص مع فتاةٍ أخرى مثل آني، لكنتُ قد حصَّنتُ نفسي بدرعٍ واقية أسفل ثيابي البرَّاقة، لقد نبهتُك.»

تجولَت ليز في أرض اللقلق-النسر. كانت عيناها السوداوان تبحثان وسط الحشود المارة بضراوة يكتنفها الغموض. وبين الفينة والأخرى أخذت تُهمهِم ببعض الأغاني القصيرة السخيفة. وكذلك كانت تجزُّ على أسنانها البيضاء الصغيرة لتطلق السباب البذيء الذي أضفاه ذلك الجانب الشرقي على اللغة.

كانت ليز ترتدي تنورةً حريرية خضراء. وكانت بلوزتها ذات نقوشٍ مربعة كبيرة يمتزج فيها اللونان الوردي والبُني، وبدت ملائمةً عليها وذات طابعٍ مقبول. كانت ترتدي كذلك خاتمًا ذا فصوصٍ كبيرة من الياقوت المُقلَّد، ودلايةً طويلة تصل إلى ركبتيها تتدلى من سلسلة فضية. كان حذاؤها مهترئًا وذا كعب عالٍ ملتوٍ، وغير ملمَّع. أما قبَّعتُها فكانت كبيرة للغاية؛ بحيث يصعب إدخالها في برميلٍ دقيق.

دخلَت ليز مقهى بلو جاي من «مدخل العائلات». جلسَت على طاولة، ونادت على النادل بنبرة امرأةٍ كريمة المحتد تستدعي عربتها. بصوتٍ خفيض وأسلوبٍ محترم غير متكلف، حضر النادل، الذي كان ذا ذقَن كبير. عدَّلَت ليز وضعية تنورتها الحريرية بحركة سريعة. كانت في الحقيقة تستمتع بشدة بجلوسها في ذلك المكان. فهنا يمكنها أن تطلب شيئًا ويُحضَر لها ما تريده. وكان ذلك هو كل ما يمكن لعالمها الصغير أن يقدمه لها كامتياز لامرأة.

«ويسكي يا تومي»، هكذا قالت كما يتمتم نظراؤها في أعلى المدينة: «شامبانيا، يا جيمس.»

فأجاب: «بالتأكيد، آنسة ليزي. وماذا تريدين بعده؟»

فقالت: «مياه كربونية. قل لي يا تومي هل جاء كيد إلى هنا اليوم؟»

فردَّ قائلًا: «كلا يا آنسة ليزي، لم أرَه اليوم.»

كانت كلمتا «آنسة ليزي» تخرجان من لسان تومي بإصرار من جانبه؛ لأن كيد كان معروفًا باعتزازه الشديد بكرامة خطيبته.

وبعدما شربَت كأس الماء الكربونية وتناثَر رذاذه أسفل أنفها، قالت: «أنا أبحث عنه. لقد نما إلى سمعي أنه ينوي أخذ آني كارلسون إلى حفلٍ راقص. دعه يفعل ذلك. ذلك الجرذ الأبيض ذو العينَين الورديتَين. أنا أبحث عنه. أنت تعرفني يا تومي. أنا وكيد مخطوبان منذ عامَين. انظر إلى ذلك الخاتم الذي بإصبعي. يقول إنه قد كلفه خمسمائة دولار. دعه يأخذها إلى الحفل الراقص. ماذا سأفعل؟ سأنزع قلبه من صدره. أعطني كأسًا أخرى من الويسكي، يا تومي.»

فردَّ عليها النادل بهدوء، من فمه الصغير الذي لا يكاد يبدو من ذقَنه الكبير: «لم أكن لأهتم بمثل هذه الشائعات، يا آنسة ليزي. كيد مولالي ليس بذلك الشخص الذي يتخلى عن امرأة مثلك. المزيد من المياه الكربونية؟»

كرَّرَت ليز، وقد بدأ تأثير الشراب يُهَدئ منها قليلًا: «عامان. لطالما اعتدتُ اللعب في الشارع في المساء نظرًا لعدم وجود أي شيء لأفعله في البيت. ولمدةٍ طويلة، كنت أجلس فقط على عتبة باب المنزل، أتطلع إلى الأضواء والأشخاص وهم يمرُّون من حولي. وفي مساء يومٍ ما، جاء كيد وأخذَني معه، وانجذبتُ إليه بشدة على الفور. أول كأس شربتها كانت من يده، ورحتُ أبكي طوال تلك الليلة في المنزل، وعُوقبتُ بالضرب بسبب الضوضاء التي أحدثتُها. والآن قل لي يا تومي، هل رأيتَ من قبلُ تلك التي تُدعى آني كارلسون؟ لولا ماء الأكسجين،

لما كان شعرها أصفر. أنا سأظل أبحث عنه. وأنت أخبِر كيد إذا أتى. أأنا يُفعل بي هذا؟ أنا سوف أنتزع قلبه من جسده. دع الأمر لي. أعطني كأسًا أخرى من الويسكي، يا تومي.»

خرجَت ليز إلى الشارع وهي غير متزنة قليلًا، لكنْ عيناها كانتا مترقبتَين وساطعتَين. وفي أثناء سيرها، وجدَت طفلةً ذات شعر مجعد تجلس على عتبة منزل مصنوع من الطوب، وكانت الطفلة في حَيرة بشأن بعض العُقَد الملفوفة حول خيطٍ متشابك. ألقت ليز بنفسها بجانبها، وكانت هناك ابتسامةٌ شريرة وغريبة على وجهها المحمَر. لكن فجأة عادت عيناها لحالتها الصافية البريئة.

ثم قالت وهي تُزيح تنورتها الحريرية الخضراء أسفل حذائها المهترئ: «دعني أُرِكَ كيف تصنع لعبة سرير القط، يا كيد.»

وبينما جلسا هناك على تلك العتبة، أُضيئت الأنوار في صالة نادي الساعات القصيرة الاجتماعي من أجل الحفلة الراقصة. لقد كانت حفلةً تقام مرتَين في الشهر، وهي مناسبةٌ رسمية طالما اعتز بها أعضاء النادي، وحثُّوا أنفسهم فيها على التزيُّن والاستمتاع.

في التاسعة مساءً، وصل الرئيس، كيد مولالي، وسار على أرضية الصالة وهو يصطحب معه امرأة. كان شعرها ذهبيًّا مثل شعر حورية البحر الخرافية لوريلي. وكانت موافقتها على طلبه تبدو على استحياء، لكنها بلا شك لم تتردَّد في قبول عرضه للرقص. خطَت على ذيل ردائها واحمَر وجهها، و… ابتسمَت في عينَي كيد مولالي.

بعد ذلك بينما وقف الاثنان في منتصف الأرضية المشمَّعة، وقع ذلك الحدث الذي طالما بذل العلماء والباحثون في مكاتبهم ومكتباتهم الكثير من المال والجهد لمنعه.

فمن بين دائرة المتجمهرين حول صالة الرقص، قفز القدَر متجسدًا على هيئة تنورة خضراء حريرية، تحت مسمَّى «ليز». كانت عيناها حادتَين وغارقتَين في السواد. لم تصرُخ أو تتردَّد. وعلى نحوٍ لا يليق بالنساء، أطلقَت لعنةً بصوتٍ عالٍ — اللعنة المفضَّلة لكيد مولالي — وبنبرة صوته العميقة نفسها؛ وبينما دبَّت الفوضى في النادي، نفَّذَت ليز ما قالته للنادل تومي — نفَّذَته بمقدار ما يسمح لها حد سِكِّينها وقوة ذراعها.

ثم أتى دور الغريزة البدائية الخاصة بالحفاظ على الذات — أم يا تُرى الإبادة الذاتية؛ الغريزة التي تأثَّرَت بضغوط المجتمع؟

فرَّت ليزلي مهرولة إلى الشارع كأنها دجاجة الأرض تطير عبْر بستان من الشجيرات وقت حلول الغَسَق.

ثم حلَّ بعد ذلك أكبر عار في تاريخ المدينة الكبيرة؛ الآفة الباقية الأقدم والأكثر تعفنًا، مصدر تلوثها وخزيها، منبع فسادها وانحرافها، سلوكها المشين وذنبها الذي لا يُغتفر،

المترسخ والمتعاقب كأثرٍ على الوحشية المنحطة على مَر قرنٍ مضى، ألا وهو مطاردة المجرم. لم يبقَ ذلك الفعل إلا في المدن الكبرى، حيث من المفترض أن يُوجد الكمال فيما يتعلق بالثقافة والمواطنة والأفضلية المزعومة؛ حيث يخرج الناس في انزعاج وصراخ في تلك المطاردة.

طاردوا ليز — طاردها حشدٌ غاضب من الآباء والأمهات والعُشاق والعذارى — بعُوائهم وصيحاتهم ونداءاتهم وصفيرهم يطالبون بالقصاص. حتى الذئب في المدينة الكبيرة قد يبقى خارج البوابة. قد يتردَّد قلبه، الأكثر رقة، قبل أن يشارك في ذلك الحصار.

عارفةً طريقها، ومتلهفةً لخلاصها، اندفعَت عبْر الدروب المألوفة حتى اصطدمَت قدماها أخيرًا بالصلابة البليدة للرصيف المتهالك. وما هي إلا بضع خطواتٍ لاهثة أخرى، حتى احتضنَت الأم الحنون المتمثلة في النهر الشرقي ليز إلى صدرها، وهدَّأتها بعكارته ولكن بسرعة، وحسمَت في خمس دقائق المعضلة التي تُبقي الأنوار مضاءة طوال الليالي في آلاف الكنائس والجامعات.

كم هي غريبةٌ الأحلام التي قد يراها المرء أحيانًا. يطلق عليها الشعراء رؤًى، لكن الرؤيا ما هي إلا حُلم جُسِّد على هيئة شعرٍ مُرسَل. لقد حلمَت ببقية هذه القصة.

حسبتُ أنني في العالم الآخر. ولا أعلم كيف وصلتُ إلى هناك؛ لربما كنت أقود قطار الجادة التاسعة المعلق أو قد تناولتُ أحد الأدوية غير المجربة، أو حاولتُ اقتلاع أنف الملاكم جيم جيفريز أو قمت بأحد الأفعال الغريبة الأخرى. لكن، على أي حال، أنا هناك الآن، وتجمع حشدٌ كبير منا خارج قاعة المحكمة حيث تصدر الأحكام. وبين كل حين وآخر، كان يخرج حاجبٌ جميل ومهيب جدًّا من الملائكة لينادي على قضيةٍ أخرى.

وبينما كنتُ أتأمل خطاياي الدنيوية وأفكر إذا ما كان من الممكن أن أستخدم حجة أنني كنتُ أعيش في نيو جيرسي في محاكمتي، أتى الملاك الحاجب إلى الباب ونادى:

«القضية رقم ٩٩٨٥٢٧٤٣.»

أتى رجل يرتدي ملابسَ مدنية — كان هنالك العديد منهم هناك، وكانوا يلبسون تمامًا مثل الوعاظ، ويعملون على تنظيم صفوفنا نحن الأرواح تمامًا مثلما يفعل الضباط على الأرض — وجذب شخصًا من ذراعه ... من تعتقدون هذا الشخص؟ عجبًا، إنها ليز!

أدخلَها موظف المحكمة وأغلق الباب. ذهبَت للمحقق الذي يرتدي ملابسَ مدنية واستفسرَت عن القضية.

قال وهو يضع أطراف أصابعه المتناسقة معًا: «إنها قضيةٌ حزينة للغاية. إنها فتاة لا سبيل إلى تقويمها. أنا المفتش الأرضي الخاص، الموقَّر جونز. لقد وكلَت القضية إليَّ. قتلَت

الفتاة خطيبها ثم أقدمَت على الانتحار. ليس لديها أي دفاع. إن تقريري للمحكمة يسرد الحقائق بالتفصيل، وكلها مدعومة بشواهدَ قاطعة. إن عاقبة الخطيئة هي الموت. المجد للرب.»

فتح موظف المحكمة الباب وخطا إلى الخارج.

قال المفتش الأرضي الخاص، الموقَّر جونز ودمعة تترقق في عينه: «إنها فتاةٌ مسكينة. لقد كانت تلك واحدة من أكثر القضايا الحزينة التي مرَّت عليَّ. بالطبع هي ...»

فقاطعه موظف المحكمة: «بُرئَت. تعالَ إلى هنا يا جونزي. إذا استمررتَ هكذا فربما سوف تُنقَل إلى فريق فطيرة القدْر. كيف سيروقك أن تنضَم إلى القوات التبشيرية في جزر البحار الجنوبية، ها؟ والآن، عليك أن تتوقف عن عمليات الاعتقال الخاطئة هذه، وإلا فستُنقل، أفهمت؟ إن الطرف المذنب الذي يجب أن تبحث عنه في هذه القضية هو الرجل الأصهب غير الحليق وغير المهندم، الجالس بجوار النافذة مستغرقًا في قراءته، ومرتديًا نعلًا منزليًّا، في الوقت الذي يلعب فيه أطفاله في الشوارع. فلتمضِ الآن من أمامي.»

والآن، أليس ذلك بحُلمٍ سخيف؟

القلوب والأيادي

في مدينة دينفر، استقل حشد من الركاب قطار بي آند إم إكسبريس المتجه ناحية الشرق. في إحدى عربات القطار، جلسَت امرأةٌ شابة جميلة للغاية مرتدية ملابسَ أنيقة وفاخرة ومحاطة بكل رفاهيات المسافر الخبير. ومن بين الراكبين الجدد كان شابان؛ أحدهما ذو طلةٍ وسيمة وأسلوبٍ واثق وملامحَ جريئة تشع جاذبية؛ أما الآخر فكان مغتمًّا وذا وجه عابس، وقوي البنية وملابسه غير مهندمة. كانت يداهما مقيدتَين معًا بالأصفاد.

حينما مَرَّ الشابان في ممَر تلك العربة، لم يجدا مكانًا شاغرًا سوى المقعد المقابل لتلك السيدة الشابة الجذابة. فجلس الشابان المكبَّلان بعضهما ببعض بذلك المقعد. نظرَت المرأة الشابة إليهما نظرة عدم اكتراث باردة وسريعة؛ ثم بابتسامة لطيفة سطع بها محيَّاها وتورُّد ناعم سرى في خدَّيها المستديرَين، مدَّت يدها المغطاة بفردة قفازٍ رمادي اللون لتلقي عليهما التحية. وريثما بدأَت في التحدث، كشف صوتها العذب والطلق والواضح أن صاحبته شخصٌ اعتاد أن يتحدث وأن يُستمع إليه.

قالت: «حسنًا يا سيد إستون، اسمح لي أن أتحدث أولًا. يبدو لي أنك لا تتذكَّر أصدقاءك القدامى حينما تقابلهم في الغرب؟»

أثار صوتُها مشاعر الشاب الأصغر بشدة، وبدا محرجًا نوعًا ما في البداية لكنه تخلص بسرعة من ذلك الإحراج، ومن ثَم همَّ ليصافح يدها بيده اليسرى.

وردَّ مبتسمًا: «إنكِ الآنسة فيرتشيلد. من فضلك اعذريني على عدم مصافحتك بيدي الأخرى؛ لأنها مشغولة في الوقت الحالي.»

رفع الشاب يدَه اليمنى قليلًا لأعلى، فظهرت اليد مقيدة من الرسغ بالأصفاد اللامعة مع اليد اليسرى لمرافقه في السفر. تبدلت النظرة السعيدة على وجه الفتاة ببطء إلى صدمة مفزعة. وتلاشى التورد من خديها. وانفتحَت شفتاها في قلقٍ واهن وغريب. كان إستون،

الذي ضحك ضحكةً خفيفة كما لو كان مستمتعًا بالأمر، على وشك التحدث مجددًا إلا أن رفيقه حثَّه على السكوت. كان هذا الرجل ذو الوجه العابس يجلس مراقبًا ملامح الفتاة بنظراتٍ خفية بعينَيه الصارمتَين والحصيفتَين.

قال: «اعذريني على مقاطعة حديثكما يا آنسة، لكنني أرى أنك على معرفةٍ سابقة بهذا المارشال. إذا طلبتِ منه أن يوصي عليَّ عندما نصل إلى السجن، أعتقد أنه سيُنفذ طلبك، وذلك سيُسهل الأمور عليَّ هناك. هو سيُسلمني إلى سجن ليفينوورث. لقد حُكم عليَّ بالسجن مدة سبع سنوات بتهمة التزوير.»

ردَّت الفتاة وقد عادت الدماء لتجري في عروقها وتنفسَّت الصعداء: «أوه! إذن هذا ما تفعله هنا؟ تعمل كمارشال!»

فقال لها إستون بهدوء: «يا عزيزتي الآنسة فيرتشيلد، كان عليَّ أن أحصل على عمل. المال لديه أجنحةٌ تجعله لا يبقى في يدٍ واحدة مدةً كافية، وأنتِ تعلمين أن مسايرة المجتمع في واشنطن تحتاج إلى مال. وقد عثرتُ على فرصة العمل تلك في الغرب، و... حسنًا، رغم أن وظيفة المارشال ليست بقيمة ووجاهة السفير نفسيهما، لكن ...»

فقالت الفتاة بمودَّة: «ذاك السفير لم يعُد يتصل بي. وينبغي ألا يفعل أبدًا. أحببتُ أن تعلم ذلك. إذن قد صرتَ الآن واحدًا من هؤلاء الأبطال المغوارين في الغرب الذين يمتطون خيولهم ويطلقون النار هنا وهناك، ويخوضون جميع أنواع المغامرات الخطرة. إن هذا وضعٌ مختلف تمامًا عن الحياة في واشنطن. عشيرتك القديمة هناك تفتقدك.»

نظرت عينا الفتاة، اللتان بدا بهما الافتتان، للخلف ثم اتسعتا قليلًا وانتهى بهما المطاف على الأصفاد اللامعة.

فقال الرجل الآخر: «لا تقلقي بشأن تلك الأصفاد يا آنسة. من واجب المارشال أن يقيد نفسه بالسجين كي يمنعه من أي محاولة للفرار. السيد إستون يعلم واجباته جيدًا.»

فتساءلَت الفتاة: «هل سنراك قريبًا في واشنطن؟»

فأجابها: «ليس في وقتٍ قريب، على ما أعتقد. أخشى أن عهدي بالحرية والانطلاق قد ولَّى.»

قالت على نحوٍ لا يتوافق مع سياق الحديث: «أنا أعشق الغرب.» ثم لمعَت عيناها بعذوبة. ونظرت خارج نافذة العربة. وبدأَت في الإسهاب في الحديث بصدق وبساطة منزوع منها بريق اللغة المنمقة والأسلوب المتكلف، فقالت: «قضيتُ أنا ووالدتي الصيف في دينفر. لقد رحلت منذ أسبوع بسبب المرض الطفيف الذي ألمَّ بوالدي. يمكنني أن أعيش

وأكون في منتهى السعادة في الغرب. أعتقد أن الهواء هنا ينعشني ويتوافق معي. المال ليس كل شيء. غير أن الناس اعتادوا إساءة فهم الأشياء والتقوقع في غبائهم ...»

فدمدم الرجل ذو الوجه العابس: «يا مارشال. هذا ليس عدلًا. أنا بحاجة لشراب، ولم أدخن طوال اليوم. ألم تتحدثا بما فيه الكفاية؟ ألا يمكنك أن تأخُذني إلى مقصورة التدخين الآن؟ أكاد أموت شوقًا من أجل تدخين غليون.»

نهض الرجلان المقيدان بعضهما ببعض، واستمرت الابتسامة المتراخية نفسها ظاهرة على وجه إستون.

قال بمرح: «ليس من شيمي أن أرفض طلبًا من أجل التبغ. إنه الصديق الوحيد للشخص التعس. وداعًا يا آنسة فيرتشيلد. الواجب يناديني، كما تعلمين.» ثم مدَّ يده ليودعها.

فردَّت عليه، بعد أن عادت لتتبنَّى تلك اللغة المنمقة والأسلوب المتأدب، قائلة: «إنه لمن المؤسف للغاية أنك لن تعود إلى الشرق. لكنك من المفترض أن تذهب إلى ليفينوورث، أليس كذلك؟»

فأجابها إستون: «بلى، عليَّ أن أتوجه إلى ليفينوورث.»

انعطف الرجلان جانبيًّا في الممر ذاهبَين إلى مقصورة التدخين.

كان هنالك مسافران آخران جالسان بجوارهما قد سمعا تقريبًا معظم المحادثة التي دارت. قال أحدهما للآخر: «يا له من رجلٍ صالح ذلك المارشال! بعض رجال الغرب هؤلاء حقًّا نماذجُ مشرِّفة.»

فسأله الآخر: «لكنه صغير السن جدًّا بحيث يتولى منصبًا كهذا، أليس كذلك؟»

فتعجَّب المتحدث الأول قائلًا: «صغير السن! لماذا ... أوه، لم تتبيَّن حقيقة الأمر؟ هل رأيتَ من قبلُ ضابطًا يُقيِّد سجينًا بيده «اليمنى»؟»

سجين زيمبلا

عصت الأميرة أوستلا أوامر والدها الملك مما جعله يدخل في ثورة غضبٍ عارمة جعلَت مَن حوله يخشون الاقتراب منه، ويعلن أنه سوف تُقام مسابقة نزال ضخمة؛ بحيث يحظى الفارس المنتصر الذي يُبدي بسالةً استثنائية بيد الأميرة أوستلا.

وأرسل الملك مناديًا كي يخبر الجميع بالأمر.

جاب المنادي جميع أرجاء البلاد ليعلن الخبر مُستخدمًا بوقًا كبيرًا من القصدير، وممتطيًا جوادًا أصيلًا يتبختر ويقفز في أثناء سيره، فتجمَّع حوله القرويون وحدَّقوا فيه، وقالوا: «انظروا، هذا واحد من المقامرين بأبواقهم القصديرية الذين طالما سمعنا عنهم.»

وحينما حان اليوم المنتظر، جلس الملك شامخًا في مقصورته العليا متأهبًا لإطلاق فعاليات المعركة، وبجانبه جلسَت الأميرة أوستلا وهي تبدو شاحبةً وجميلةً جدًّا لكن يظهر الأسى في عينَيها؛ حيث منعَت دموعها من الانهمار بصعوبة بالغة. حدَّق الفرسان المشاركون في تلك المنافسة في الأميرة وأعينُهم لا تقوى على إخفاء مدى انبهارهم بجمالها، وأقسَم كلٌّ منهم على الفوز للظفر بها، والعيش في قصر الملك. وفجأة خفَق قلب الأميرة بشدة؛ إذ رأت بين الفرسان أحد الطلبة الفقراء الذي تكِنُّ له حبًّا جمًّا.

امتطى الفرسان خيولهم، وتحركوا في صف أمام مقصورة الملك، وأوقف الملك ذلك الطالب الفقير والذي امتلك أسوأ حصان ودرع من بين جميع الفرسان الحاضرين، وقال له:

«أيها الفارس، هلا أخبرتني مِمَّ صُنعت درعك هذه البالية التي يعلوها الصدأ؟»

فردَّ الفارس الشاب: «أيها الملك، بما أننا على وشك خوض معركة حامية، أعتقد التعبير الأدق هو أنها الحديد الخردة، أليس كذلك؟»

فقال الملك: «يا إلهي! ذلك الفتى لديه طرافةٌ جلية.»

في ذلك الوقت، بدأَت الأميرة أوستلا تشعر بتحسُّن عندما رأت محبوبها، فأخرجَت علكة من جيبها، وقذفَتها في فمها ثم أغلقَته، وابتسمَت حتى ابتسامةً خفيفة، فبرزَت اللآلئ الجميلة الموجودة في فمها. عندئذٍ، وبمجرد أن شاهد الفرسان ذلك، ذهب ٢١٧ منهم إلى خازن الملك، ودفعوا ثمن إطعام خيولهم ثم عادوا إلى منازلهم.

فقالت الأميرة: «أيبدو غريبًا للغاية ألَّا يمكن لفتاة أن تتزوج إذا كانت تمضغ العلكة؟»

غير أنه بقي اثنان من الفرسان، أحدهما ذاك الفارس العاشق.

فقال الملك: «هذا كافٍ لعقد نزال على أي حال. تعالَيا إلى هنا، أيها الفارسان، هل ترغبان في النزال للظفر بيد تلك الفتاة الحسناء؟»

فأجابا: «نعم سنفعل.»

تصارع الفارسان مدة ساعتَين، وفي النهاية انتصر عاشق الأميرة وطرح منافسه أرضًا. جعل الفارس المنتصر حصانه يلتفت نصف التفاتة أمام الملك، وانحنى هو على سرجه.

تدفقَت الدماء بوجنتَي الأميرة أوستلا، وتنافسَت الإثارة والحماس مع وهج الحب العذب في الظهور في عينَيها، وفغرت فاها، وحرَّرَت شعرها الجميل المعقود، وقبضَت بيدها على ذراعَي مقعدها وانحنَت إلى الأمام بابتسامةٍ سعيدة وقلبٍ متلهف لسماع كلمات محبوبها.

قال له الملك: «لقد حاربتَ ببسالة أيها الفارس. وإذا شئتَ الحصول على أي شيء تتوق نفسك له، فلتُخبرني به في الحال.»

فردَّ الفارس: «حسنًا، سوف أطلب منك ما يلي: لقد اشتريتُ حقوق براءة الاختراع الخاصة بمفتاح القرد (المفتاح الإنجليزي) الذي صنعه شنايدر في مملكتك، وأريدك أن تكتب لي خطابًا يفيد بتأكيد ذلك.»

فأجابه الملك: «ستحصل عليه، لكن ينبغي أن أخبرك بأنه لا تُوجد قرود في مملكتي.»

أطلَق الفارس المنتصر صيحة غضب، وقفز على حصانه، ثم انطلق بالحصان بعيدًا بعَدْو ثائر.

كان الملك على وشك أن يتحدث، عندما باغتَتْه الدهشة، وأخذ يصارع الموت على المنصة. فصاح: «يا إلهي! لقد نسي أن يأخذ الأميرة معه!»

فدية الزعيم الأحمر

بدا الأمر مجديًا، لكن انتظِر حتى أقص عليك ما حدث. كنا في الجنوب، في ولاية ألاباما، أنا وبيل دريسكول، حينما خطرَت على بالنا فكرة الاختطاف هذه. أتت، كما وصفَها بيل فيما بعدُ، «أثناء لحظة اختلالٍ عقلي مؤقَّت»، لكننا لم ندرك ذلك إلا لاحقًا.

كانت تُوجد بلدة هناك؛ مسطَّحة كالفطيرة، ومع ذلك يُطلَق عليها «ساميت» (القمة). كان سكان تلك البلدة من الفلاحين المسالمين والقانعين بحيواتهم، والذين يتمتَّعون بالمرح والبساطة كهؤلاء الذين يرقصون حول السواري في يوم مايو.

جمعنا أنا وبيل قرابة ٦٠٠ دولار، وكان ينقصنا فقط ٢٠٠٠ دولار إضافية كي ننفذ خطةً احتيالية للاستيلاء على قطعة أرض بغرب ولاية إلينوي. لقد تناقشنا في الأمر على سلم الفندق. وتوصَّلنا إلى حقيقة أن حب المرء لأولاده من النزعات القوية في المجتمعات شبه القروية؛ لهذا السبب، ولأسباب أخرى، من المفترض أن تنجح عملية الاختطاف في هذه البلدة الصغيرة، مما لو حدثَت في الأماكن التي ترسل فيها الصحف مراسليها بملابسَ مدنية للاستقصاء وإثارة الجدل حول مثل تلك العمليات. كنا نعرف أن ساميت ليس بوسعها أن تطاردنا في حالة إتمام العملية إلا ببعض ملاحقات من الشرطة المحلية، وربما بعض الكلاب البوليسية الواهنة، ومقالٍ لاذع أو اثنَين في الجريدة المحلية. لذا بدا الأمر مجديًا.

اخترنا أن يكون ضحية الاختطاف هو الابن الوحيد لرجلٍ ذي شأن يُدعى إبنيزر دورسيت. كان ذلك الوالد محترمًا وبخيلًا، ومولعًا بالرهون العقارية، كما أنه من مرتادي الكنيسة الملتزمين الذين لا يجمعون فقط التبرعات، بل أيضًا لا يتوانَون عن الحجز على الأشياء المرهونة في حالة عدم تسديد الديون. كان ابنه طفلًا في العاشرة من العمر، لديه نمشٌ بارز، ويبدو لون شعره كلون غِلاف المجلة التي تشتريها في كشك الصحف عندما

ترغب في اللحاق بالقطار. اعتقدنا أنا وبيل أن إبنيزر سوف يخضع دون تردُّد لدفع فدية قدرها ٢٠٠٠ دولار مقابل استعادة ابنه. لكن انتظروا حتى أخبركم بما جرى.

يُوجَد جبلٌ صغير مغطًّى بأجمةٍ كثيفة من أشجار الأرز على بُعد ما يقرب من ميلَين من بلدة ساميت. وعلى الارتفاع الخلفي لذلك الجبل كان يُوجَد كهف. بداخله كان يقع مقرُّنا الذي نخزن به مؤنَنا. في إحدى الأمسيات عقب غروب الشمس، قُدنا عربة يجرُّها حصان ومررنا بجوار منزل دورسيت القديم. كان الطفل يلعب في الشارع، يرمي حجارة على قطةٍ صغيرة عند السياج المقابل لمنزله.

قال بيل: «مرحبًا يا فتى، هل ترغب في كيسٍ من الحلوى، ورحلةٍ لطيفة بالعربة؟»

ففاجأه الفتى بأن رماه بحجَر أصاب مباشرةً عينه.

فقال بيل عند صعوده العربة: «هذه المشاغبة ستكلف والده خمسمائة دولار إضافية.»

وحالما عزمنا على خطفه، صارع الفتى وكأنه دبٌّ كستنائي داكن ثقيل الوزن؛ لكننا في النهاية تمكَّنَّا من تقييده في مؤخرة العربة وعُدنا أدراجنا. أخذناه إلى الكهف الموجود داخل الجبل، وربطتُ حصان العربة في إحدى أشجار الأرز. وبعد حلول الظلام، أخذتُ العربة إلى القرية الصغيرة التي تبعُد ثلاثة أميال، لكي أعيدَها إلى صاحبها الذي أجَّرتُها منه، ثم عُدتُ إلى الكهف سيرًا على الأقدام.

كان بيل يضع ضماداتٍ على الجروح والكدمات الموجودة في وجهه، تلك التي تسبَّب فيها الفتى. وكانت هناك نار تشتعل خلف الصخرة الكبيرة المواجهة لمدخل الكهف، وجلس الفتى يراقب إناءً من القهوة المغلية، وعلى شعره الأحمر ريشتان من ذيل صقرٍ حوَّام. وعندما وصلتُ إلى الكهف، وجَّه عصًا ناحيتي وقال:

«أنت أيها الرجل الأبيض، كيف تجرؤ أن تقتحم معسكر الزعيم الأحمر، مُرعب السهول؟»

فقال لي بيل، في أثناء طيه بنطالَه وفحصه بعضَ الجروح على ساقَيه: «إنه في أحسن حال الآن. نحن نلعب لعبة الهنود الحمر. كنا نقدم عرضًا إلى بافلو بيل، ونجعله يبدو كعرضٍ مُمِل وقديم باستخدام الفانوس السحري. ألعب أنا دور الصياد العجوز هانك، الذي وقع في أَسْر زعيم الهنود الحمر، الذي سيكون مصيره هو السلخ مع بزوغ الفجر. على يد جيرونيمو الذي يلعب هذا الفتى دوره باقتدار، ويا لركلاته العنيفة!»

كان على حق؛ فالفتى بدا وكأنه يستمتع بوقته كما لم يستمتع من قبلُ. إذ ظهر أن استمتاعه بالتخييم في كهف جعله ينسى أنه طفلٌ مخطوف. وكذلك أقحمَني في ذلك

العرض وأطلَق عليَّ اسم «عين الثعبان»، الجاسوس، ووعدَني بأنه حينما يعود محاربوه من حربهم، سوف أتعرض إلى الإعدام حرقًا مع طلوع الشمس.

بعد هذا تناولنا العشاء، وملأ الفتى فمه بالخبز ولحم الخنزير والمرق وبدأ في الكلام. وألقى علينا خطبة في منتصف الطعام تشبه ما يلي:

«يُعجبني ذلك كثيرًا. لم أذهب في رحلة تخييم من قبلُ؛ لكن حصَلتُ على حيوان أبوسوم أليف ذات مرة، وكنتُ في التاسعة في عيد ميلادي السابق. أنا أكره الذهاب إلى المدرسة. أكلَت الفئران ١٦ بيضةً من بيضات الدجاج المرقَّط لعمة صديقي جيمي تالبوت. هل هنالك أي هنودٍ حُمرٍ حقيقيين في هذه الأحراش؟ أريد المزيد من المرق. هل حركة الأشجار هي ما تقف وراء هبوب الرياح؟ كانت لدينا خمسة كلابٍ صغيرة. ما الذي يجعل أنفك شديدة الحمرة هكذا يا هانك؟ أبي يملك الكثير من المال. هل النجوم ساخنة؟ ضربتُ إيد والكر بالسوط مرتَين يوم السبت الماضي. لا أحب الفتيات. لا يمكنك أن تصطاد صغار الضفادع إلا باستخدام خيط. هل تُصدر الثيران أي ضوضاء؟ ما السبب في أن ثمار البرتقال مستديرة؟ هل يوجد أَسِرَّة للنوم في هذا الكهف؟ ذلك الفتى أموس موراي عنده ستُّ أصابع في قدمه. الببَّغاء يمكنه الكلام، لكن القرد أو السمكة لا يمكنهما ذلك. ما الأرقام التي يمكن جمعها معًا ويكون الناتج ١٢؟»

وبين حين وآخر، كان يتذكر الفتى أنه من الهنود الحمر، فيلتقط عصاه التي يعتبرها بندقيته، ويسير على أطراف أصابعه إلى مدخل الكهف ليراقب أي حَراكٍ لهؤلاء الكشافة التابعين للرجل الأبيض الكريه. وكان ينتهز كل فرصة كي يطلق صيحة الحرب لدى الهنود الحمر، مما يجعل الصياد العجوز هانك يقشعرُّ بدنه. أثار ذلك الفتى ذعر بيل منذ البداية.

قُلتُ للفتى: «أيها الزعيم الأحمر، هل تود أن تعود إلى منزلك؟»

فردَّ الفتى بتلقائية: «تبًّا، ولماذا أعود؟ ليس هناك أي مرحٍ في البيت. وأنا أكره الذهاب إلى المدرسة. أحب التخييم. أنت لن تُعيدَني إلى المنزل مرةً أخرى، يا عين الثعبان، أليس كذلك؟»

فقلتُ له: «ليس فورًا. سنمكُث ها هنا في الكهف بعض الوقت.»

فردَّ الفتى: «حسنًا! هذا رائع. لم أحظَ قَط بمثل هذا الاستمتاع في حياتي كلها.»

خلَدنا إلى النوم بحلول الحادية عشرة تقريبًا. فرَشْنا على الأرض بعضَ البطانيات والألحفة العريضة، ووضعنا الزعيم الأحمر بيننا. لم يكن ذلك بداعي الخوف من أن يهربَ منا. وقد أبقانا مستيقظين طيلة ثلاث ساعات؛ إذ أخذ يقفز لأعلى ويمسك ببندقيته ويصرخ

قائلًا: «اسمع! يا رفيق» في أذني وأذن بيل، كلما هيأ له خياله أن صوت قرقعة أغصان الشجر أو خشخشة أوراقها يُنذر بالاقتراب المختلس لفرقة من الخارجين عن القانون. في النهاية، سقطتُ في قسطٍ من النوم المضطرب، وراودَني حُلم أن قبطانًا متوحشًا ذا شعرٍ أحمر قد اختطفَني وقيدَني في جذع شجرة.

وتمامًا مع بزوغ الفجر، استيقظتُ على صوت سلسلة من الصرخات المريعة من بيل. قد تعتقدون أنها كانت صُراخًا أو عويلًا أو صياحًا أو هتافًا أو تثاؤبًا صاخبًا، فهذا ما تتوقَّع أن يصدر من أحباله الصوتية، لكنها لم تكن كذلك، بل ببساطة بدت كصرخاتٍ مهينة وغير لائقة ومرعبة؛ كتلك التي تخرج من أفواه النساء حينما يشاهدون شبحًا أو يسروعًا. يا لها من شيءٍ مريع أن تسمع رجلًا قويًّا سمينًا يائسًا يصرخ على نحوٍ غير لائق داخل كهفٍ مع بزوغ الفجر!

وثبتُ من موضعي لأرى ماذا يحدث. كان الزعيم الأحمر يجلس على صدر بيل، وإحدى يديه تُمسك بشعر بيل. وكان يُمسِك باليد الأخرى سكين المائدة التي نستخدمها في قطع لحم الخنزير؛ وكان يحاول بكل جدية وعزم أن يقطع فروة رأس بيل، واضعًا على عاتقه تنفيذ الحكم الذي أُصدر بشأنه مساء أمس.

سحبتُ السكين من الفتى وأعدتُه إلى مرقده مجددًا. لكن، ومنذ تلك اللحظة، لم يعُد بيل كما كان واهتزَّت ثقته بنفسه. رقد على جانبه من الفراش، غير أنه لم يغلق عينَيه ولو لوهلة طالما بقي ذلك الفتى معنا. غفَوتُ قليلًا، لكنني تذكرتُ قُرابة طلوع الشمس أن الزعيم الأحمر أخبرنا بأنني سأُعدم حرقًا عند شروق الشمس. لم أكن متوترًا أو خائفًا؛ لكنني جلستُ وأشعلتُ غليوني، ثم اتكأت على صخرة.

فسألني بيل: «لماذا استيقظتَ مبكرًا هكذا يا سام؟»

فقلتُ: «أنا؟ أشعر ببعض الألم في كتفي. فافترضتُ أن جلوسي سيخفف من وطأته.»

فردَّ بيل: «يا لك من كاذب! أنت خائف. كان من المفترض أن تُحرق عند شروق الشمس، وشعرتَ بالرعب من احتمالية إقدام الفتى على فعل ذلك. وكان سيفعل هذا أيضًا لو استطاع أن يجد عود ثقاب. أليس ذلك بمريعٍ يا سام؟ أتتخيل أن هنالك أي شخصٍ سيدفع مالًا من أجل أن يستعيد عفريتًا صغيرًا مثل هذا إلى منزله؟»

فقلتُ له: «بالتأكيد. إن الصبية المشاكسين مثله هم من يعشَقهم الآباء. والآن، فلتنهض أنت والزعيم لتُحضِرا لنا وجبة الإفطار، بينما سأصعد أنا إلى قمة هذا الجبل لأقوم ببعض الاستطلاع.»

تسلقتُ إلى قمة الجبل الصغير وفحصت بعيني كامل المنطقة المحيطة. وحينما توجهت بنظري إلى ساميت، توقعت أن أرى ملاك الأراضي الأشداء ومعهم مناجلهم ومعازقهم يذرعون الريف باحثين عن هؤلاء الخاطفين الأوغاد. غير أن كل ما رأيته لا يتعدى أرضًا خضراء هادئة وبها فلاحٌ واحد يحرث أرضه ومعه بغل لونه بُنيٌّ ضارب إلى الرمادي. لم أجد أحدًا يبحث عن الفتى في الخليج الصغير، ولم يقع بصري على رسلٍ يبحثون عنه هنا وهناك، حاملين أنباء لوالدَي الطفل الشاردَي الذهن بأنهم لم يعثروا عليه. يكاد الناظر من موقعي هذا ألا يرى سوى قطاعٍ بري من ألاباما تتخلله أجواء من السكون المخدِّر الذي لا تشوبه شائبة. حينها قلتُ لنفسي: «ربما لم يُكتَشف بعد أن الذئاب قد حملَت ضحيتها بعيدًا عن الحظيرة. فليساعد الرب الذئاب!»، ثم نزلتُ من الجبل لتناول الإفطار.

وصلتُ إلى الكهف، فوجدتُ بيل يتراجع للوراء بمحاذاة الجدار، وهو يلهث، وأمامه الفتى يهدده بأن يحطم رأسه بصخرة حجمها في نصف حجم ثمرة جوز الهند.

فأخبرَني بيل: «لقد وضع ثمرة بطاطس مغلية بشدة أسفل ظهري، ثم هرسها بقدمه، فالتفتُّ ولكمتُه في أذنَيه. هل تحمل معك مسدسًا يا سام؟»

أخذتُ الصخرة من يد الطفل وهدَّأتُ من رَوْعهما. فقال الفتى لبيل: «سأنتقم منك. لم يُفلِت قَط أيُّ شخصٍ من عاقبة ضربه للزعيم الأحمر. عليك أن تحذر مني!»

بعد الانتهاء من الفطور، أخرج الفتى من جيبه قطعةً من الجلد ملفوفةً حولها سلاسل، وذهب خارج الكهف وجلس محاولًا فك تلك السلاسل.

قال بيل وهو متوتر: «يا تُرى إلى ماذا يخطط الآن؟ ألا تعتقد أنه سيهرب يا سام؟»

فقلتُ له: «لا خوف من ذلك. لا يبدو أنه فتًى يحبذ العودة إلى منزله. لكن علينا أن نُدبِّر خطةً من أجل الفدية. لم يظهر في استطلاعي أي إثارة في ساميت فيما يتعلق باختفائه؛ لكن لعلهم لم يُدركوا بعدُ أنه غيرُ موجود. لربما يعتقد أهله أنه قضى الليلة الماضية في منزل العمة جين أو منزل أحد جيرانهم. على أي حال، اليوم سيشعرون بغيابه. واليوم أيضًا ينبغي أن نبعث برسالة لوالده نطالبه فيها بإرسال ٢٠٠٠ دولار لو أراد عودة ابنه.»

وفي تلك اللحظة، استمَعنا إلى ما يشبه صيحة الحرب؛ صيحة تشبه تلك التي ربما أطلقَها داود حينما صرع المقاتل جالوت. كان الزعيم الأحمر قد سحب مقلاعًا من جيبه وكان يلفُّه حول رأسه.

فجأةً وجدتُ نفسي أتفادى شيئًا مقذوفًا، وسمعتُ صوتًا أشبه بالتنهيدة يخرج من بيل؛ صوتًا يشبه صوتَ الحصان عندما يُخلع عنه سرجه. واتضح أن الفتى قد أصاب

بحجرٍ أسودَ في حجم البيضة المنطقة الخلفية لأذن بيل اليسرى. سقط في النار التي تُوجد قبالة إناء القلي المملوء بالماء الساخن الذي يُستخدم في غسل الأطباق. ساعدتُه على النهوض، وأخذتُ أسكُبُ على رأسه ماءً باردًا مدة نصف ساعة.

مضى بعض الوقت، وكان بيل جالسًا يتحسَّس خلف أذنه وقال: «هل تعلم شخصيتي المفضَّلة في الكتاب المقدس، يا سام؟»

فقلتُ له: «فلتهدأ يا بيل. ستعود لاتزانك عما قريب.»

فصرَّح بيل: «إنه الملك هيرودس. لا تغادر وتتركني بمفردي يا سام، هل تسمعني؟»

خرجتُ وأمسكتُ بالفتى، وهزَزتُه حتى ارتعد جسده.

ثم قلتُ له: «إذا لم تتأدب، فسوف أعيدك فورًا إلى منزلك. والآن هل ستُحسِن التصرف أم لا؟»

ظهر التجهُّم على ملامح الفتى وهو يقول: «لقد كنتُ أمزح وحسب. لم أشأ أن أوذيَ العجوز هانك. لا أعلم لماذا ضربَني؟ أعدُك بأنني سأتأدب يا عين الثعبان، إذا لم ترسلني إلى المنزل، وإذا تركتني ألعب لعبة الكشاف الأسود اليوم.»

فأخبرتُه: «أنا لا أعرف تلك اللعبة. هذا شيءٌ تقرره أنت والسيد بيل معًا. هو رفيقك في اللعب اليوم. سأرحل لبعض الوقت في مهمة عمل. والآن عليك أن تدخل وتصبح أنت وهو صديقَين، وتعتذر له عما بدر منك لكيلا أعيدك إلى منزلك، في الحال.»

حرَصْتُ على أن يتصافح الفتى وبيل، ثم انفردتُ ببيل وأخبرتُه أنني ذاهب إلى «بوبلار كوف»؛ وهي قرية صغيرة تبعُد ثلاثة أميال عن الكهف، لمحاولة اكتشاف كيفية استقبال ساميت نبأ الاختطاف. كما رأيتُ أنه من الأفضل أن أرسل خطابًا حاسمًا إلى العجوز دورسيت في ذلك اليوم؛ لطلب الفدية وتحديد طريقة دفعها.

فردَّ عليَّ بيل: «أنت تعرف جيدًا يا سام، أنني ساندتُك في أصعب الأوقات؛ تقلُّبات ألعاب البوكر، والتفجيرات، وغارات الشرطة، وسرقات القطارات، والأعاصير. ومع هذا لم أفقد أعصابي قَط مثلما هو الحال مع ذلك الصاروخ المتحرك المتجسد على هيئة طفل. لقد جعلَني أُجن. أتعِدُني أنك لن تتركَني هنا وحدي معه، يا سام؟»

فقلتُ له: «سأعود قريبًا في عصر اليوم. يجب عليك أن تُبقيَ الفتى مستمتعًا وهادئًا حتى أعود. والآن دعنا نكتب رسالة الفدية إلى العجوز دورسيت.»

أحضرنا أنا وبيل ورقةً وقلمَ رصاص وبدأنا العمل على الرسالة، بينما انشغل الزعيم الأحمر بحراسة مدخل الكهف طاويًا بطانيةً حول جسده، وقد أخذ يتبختر يمينًا ويسارًا.

توسَّل بيل إليَّ بشدة أن أُخفِّض مبلغ الفدية من ٢٠٠٠ دولار إلى ١٥٠٠ دولار. إذ قال: «أنا لا أسعى هنا إلى التقليل من قيمة الجانب الأخلاقي المعروف للعاطفة الأبوية، لكننا نتعامل مع بشر، وليس من الطبيعي للبشر أن يتخلَّوا عن ٢٠٠٠ دولار مقابل استعادة هذا القط البري المنمَّش البغيض الذي يزن أربعين رطلًا. دعنا نكتفي بـ ١٥٠٠ دولار. ويمكنك أن تخصم الفرق من حصَّتي.»

ومن أجل أن أُطمئِن بيل، قبلتُ رأيه؛ ومن ثَم كتبنا رسالةً جاءت على هذا النحو:

إلى الموقَّر إبنيزر دورسيت،

لقد اختطفنا ابنك وأخفيناه في مكانٍ بعيد عن بلدتك. لا تحاول أن تُضيعَ وقتك في البحث عنا فلن تجدنا، لا أنت ولا حتى أمهر المحققين. لذا فالطريقة الوحيدة التي يمكن أن تجلب لك ابنك هي كما يلي: عليك أن تدفع لنا ١٥٠٠ دولار من الورق ذي الفئات الكبيرة من أجل استرجاعه، ويجب أن تترك الأموال اليوم في منتصف الليل في المكان نفسه وبالصندوق نفسه الذي ستضع فيه ردَّك، كما سنصف لك الآن. إذا وافقتَ على تلك الشروط، فأرسل ردَّك مكتوبًا مع رسولٍ منفرد الليلة في تمام الساعة الثامنة والنصف. بعد عبور خليج أول، في الطريق إلى قرية بوبلار كوف، تُوجد ثلاث أشجار عالية يبعُد كلٌّ منها عن الأخرى نحو ١٠٠ ياردة، على مقربة من سياج حقل القمح على الجانب الأيمن. أسفل عمود السياج المقابل للشجرة الثالثة، يوجد صندوقٌ كرتوني صغير.

سيضع رسولك الرد في الصندوق ويعود في الحال إلى ساميت.

إذا حاولتَ أن تلجأ إلى أي خداع أو لم تذعن لمطالبنا كما هي موضَّحة، فلن ترى ابنك مجددًا على الإطلاق.

إذا دفعتَ المبلغ المطلوب، فسيعود إليك سالمًا معافًى في خلال ثلاث ساعات. هذه الشروط نهائية ولا رجعة فيها، ولو لم تقبل بها، فلن يكون هنالك أي تواصلٍ آخر بيننا.

توقيع: شخصان متهوران.

كتبتُ عنوان الرسالة إلى مقر دورسيت، ووضعتُها في جيبي. وحالما هممتُ بالرحيل، استوقفَني الفتى وقال:

«يا عين الثعبان، لقد أخبرتَني أنه يمكنني أن ألعب لعبة الكشَّاف الأسود في أثناء غيابك.»

فقلتُ له: «بالطبع يمكنك أن تلعبها. سيلعب معك السيد بيل. ما هذه اللعبة؟»

فردَّ الزعيم الأحمر: «أنا الكشاف الأسود، ويجب عليَّ أن أمتطيَ حصاني وأذهبَ إلى السياج لأحذر المستوطنين بأن الهنود الحمر قادمون. لقد سئمتُ من لعب دور الهندي. أريد أن أصبح الكشاف الأسود.»

فقلتُ: «حسنًا. تبدو لعبةً غير مؤذية. أعتقد أن السيد بيل سيُساعدك على هزيمة الأوغاد المتوحشين.»

فنظر بيل إلى الفتى نظرة ريبة وقال: «وماذا سيكون دوري في هذه اللعبة؟»

فردَّ الكشاف الأسود: «أنت ستكون الحصان. اركع على ركبتَيك ويدَيك. فكيف لي أن أذهبَ إلى السياج من دون حصان؟»

فقلتُ لبيل: «حاول أن تُبقيه منغمسًا في لهوه حتى يتسنَّى لنا تنفيذ خطتنا. اهدأ قليلًا.»

فانحنى بيل على أطرافه الأربعة، وبدت في عينَيه نظرة الأرنب حينما يقع في فخ.

وسأل بصوتٍ أجش: «كم يبعُد ذلك السياج يا فتى؟»

فردَّ الكشاف الأسود: «٩٠ ميلًا. وعليك أن تفردَ ظهرك كي نصلَ هناك في الموعد المحدَّد. أوه، هيا تحرك الآن.»

قفز الكشاف الأسود على ظهر بيل وبدأ يغرز كعباه في جانبي جسد بيل.

فقال بيل: «بحق السماء، فلتسرع في عودتك يا سام قدْر المستطاع. أتمنى لو أننا لم نَزِد الفدية عن ١٠٠٠ دولار. اسمع يا فتى، توقف عن ضربي بقدمَيك وإلا فسأنهض وأوسعك ضربًا.»

سرتُ إلى بوبلار كوف وجلستُ بالقرب من مكتب بريد ومحل آخر، وبدأتُ بالتحدث إلى الفلاحين القادمين من هنا وهناك. أحدهم أخبرَني بأنه سمع أن ساميت في حالة انزعاجٍ عام بسبب ما حدث لابن دورسيت؛ حيث يُشاع أنه تاه أو اختُطِفَ. وهذا كل ما أردتُ سماعه. اشتريتُ بعضَ تبغ التدخين، وتفحَّصتُ على نحوٍ عابرٍ سعر اللوبيا، ثم أرسلتُ الرسالة بالبريد خلسةً وعُدت أدراجي. أخبرَني رئيس مكتب البريد أن ناقل الرسائل سيأتي في ظرف ساعة لكي يأخذ الرسائل إلى ساميت.

حينما عُدتُ إلى الكهف، لم أجد بيل والفتى في المكان. بحثتُ في المناطق المجاورة للكهف، حتى إنني خاطرتُ بمناداتهم بصوتٍ عالٍ مرةً أو اثنتَين، لكنني لم أتلقَّ إجابة.

لذا أشعلتُ غليوني وجلستُ على ضفة مجرًى مائي تُغطيها الطحالب منتظرًا أي مستجدات.

بعد انقضاء نصف ساعة تقريبًا، سمعتُ صوت حفيف الشجيرات، ثم وجدتُ بيل يترنح في مشيته عند الفسحة الصغيرة في مقدمة الكهف. ومن خلفه قَدِمَ الفتي وهو يسير بهدوء كأنه أحد الكشافة الحقيقيين، وقد ارتسمَت على مُحياه ابتسامةٌ عريضة. توقف بيل عن الحركة، وخلع قبَّعته ومسح وجهه بمنديلٍ أحمر. ووقف الفتى على بُعد نحو ثماني أقدام خلف بيل.

قال بيل: «سام، أعتقد أنك سترى أنني خائن، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي. أنا رجلٌ بالغ لديه ميولٌ ذكورية وعاداتٌ دفاعية، غير أنه يأتي وقتٌ تفشل فيه كل آليات الأنا والهيمنة الذكورية. لقد اختفى الفتى. لقد أرسلتُه إلى منزله. انتهى كل شيء. كان هنالك شهداء في العصور السابقة فضَّلوا الموت على تخلِّيهم عن معتقداتهم. ومع ذلك لم يكابد أيٌّ منهم كل ذلك التعذيب الرهيب الذي مررتُ به. حاولتُ أن أكون مخلصًا لقواعد عملياتنا في السرقة؛ لكن لكل شيء حد.»

فسأَلتُه: «ما المشكلة يا بيل؟»

فأجاب بيل: «لقد سار بي إلى السياج على بعد تسعين ميلًا من هنا وهو يمتطيني، ولم أتوقف ولو لثانية. وبعدما أنقذ المستعمرين، أُعطيت بعض الشوفان لأتناوله. وكأن كل تلك الرمال التي دخلَت فمي لم تكن كافية. ثم كان عليَّ لمدة ساعة أن أوضِّح له لماذا لا يُوجد شيء داخل الحفر الموجودة على الطريق؛ وكيف للطريق أن يسير في اتجاهَين؛ ولماذا الحشائش لونها أخضر. صدِّقني، يا سام، المرء يمكنه أن يتحمل إلى حدٍّ معين. لذا، جذبتُه من ياقة قميصه وجررتُه إلى أسفل الجبل. وفي الطريق إلى هنا، ظل يركل ساقيَّ حتى ازرقَّتا من الركبتَين إلى القدمَين؛ وقد عضَّ إحدى يديَّ وأصابعها مرتَين أو ثلاثًا حتى اضطُررتُ لكي يديَّ حتى تلتئم جروحهما.»

توقَّف بيل ثم عاد ليستكمل: «لكنه الآن رحل ... رحل إلى منزله. لقد وصفتُ له طريق العودة إلى ساميت، وركلتُه بقوة إلى مسافة تصل إلى نحو ثماني أقدام في هذا الاتجاه. أنا آسف أننا خسرنا الفدية؛ لكن لم يعُد لديَّ، أنا بيل دريسكول، خيارٌ آخر وإلا لأصابني الجنون.»

أخذ بيل يلهث بشدة، لكن ظهر على ملامحِ وجهه الوردي الداكن لمحةُ ارتياحٍ لا يُوصف، رضًا متزايد.

فقلتُ له: «أنت متأكد من أنه لا يُوجد مرضُ قلبٍ وراثي في عائلتك يا بيل، أليس كذلك؟»

فرد بيل: «لا، لا يُوجد شيءٌ مزمن بعائلتنا سوى الإصابة بالملاريا وبعض الحوادث العرضية. لماذا تسأل؟»

فقلتُ له: «إذن التفِت وانظر خلفك.»

التفت بيل ورأى الفتى، وفجأةً شحب وجهُه وارتمى فجأةً على الأرض، وبدأ يقطف الحشائشَ والعصيَّ الصغيرة من الأرض بلا هدف. ظَللتُ أراقبه مدة ساعة ينتابني قلقٌ على سلامة عقله. ثم أخبرتُه أن خطتي ستُنهي المهمة بشكلٍ سريع بنجاح، وأننا سنحصُل على الفدية ونفرُّ بها بحلول منتصف الليل إذا ما رضخ دورسيت العجوز لعرضنا. استعاد بيل قليلًا من اتزانه بقَدْر ما يسمح أن يُلقيَ بابتسامةٍ شاحبةٍ نحو الفتى، ويعطيه وعدًا بأن يلعب معه لعبة الروسي في حرب اليابان حالما يشعر ببعض التحسن.

كان لديَّ خطة لالتقاط تلك الفدية من دون التعرض لخطر المؤامرات المضادة المألوفة لدى المختطفين المحترفين. إذ كانت الشجرة التي سيُوضَع تحتها الرد — ومن بعده المال — قريبةً من سياج الطريق المؤدي إلى حقولٍ شاسعة مكشوفة من كل الجوانب. إذا تخفَّى مجموعة من الشرطيين لمراقبة أي شخصٍ يأتي لأخذ رسالة الرد، يمكنهم أن يرَوه قادمًا من بعيد عابرًا لتلك الحقول أو الطريق. لكنني لستُ غبيًّا! في تمام الثامنة والنصف مساءً، سأكون بالفعل متسلقًا هذه الشجرة كما لو كنتُ علجومًا متخفيًا بين أغصانها، منتظرًا وصول الرسالة.

وفي الوقت المحدَّد بالضبط، وصل فتًى راكبًا دراجته أعلى الطريق، وظل يقودها حتى عثَر على الصندوق الكرتوني عند عمود السياج، ووضع صفحةً ورقيةً مطوية داخله، ثم ركب دراجته عائدًا إلى ساميت.

انتظرتُ ساعةً حتى تأكدتُ من أن المكان آمن. انزلقتُ أسفل الشجرة وأمسكتُ بالرسالة، وتسللتُ خلف السياج حتى وصلتُ إلى الأحراش، ثم عُدتُ إلى الكهف في غضون نصف ساعةٍ أخرى. فتحتُ الرسالة وجلستُ بجانب المصباح وبدأتُ أقرأ الرسالة على بيل. كانت رسالةً مكتوبة بقلم حبر وبخط رديء، وكان محتواها كالآتي:

إلى الشخصَين المتهورَين،

أيها السيدان: لقد استلمتُ رسالتكما اليوم بالبريد بخصوص الفدية التي تطلبانها مقابل عودة ابني. أعتقد أنكما تُغاليان قليلًا في مطالبكما؛ لذا سأقدم

لكما عرضًا آخر؛ ذلك الذي أفترض أنكما سوف تقبلانه. أنتما ستُحضِران لي جوني إلى المنزل وستدفعان لي ٢٥٠ دولارًا نقدًا، وسأوافق على أن أُخلصَكما منه. يجب أن تأتيا بالليل؛ لأن الجيران يعتقدون أنه تائه، ولن أكون مسئولًا عما قد يفعلونه لأي شخصٍ يشاهدونه قادمًا وبصحبته الفتى.

خالص تحياتي،
إبنيزر دورسيت.

فقلتُ: «يا له من قرصانٍ أرستقراطي! إنه صفيق ...»

حدَّقتُ في وجه بيل وشعَرتُ بالحيرة. إذ ارتسمَت على ملامحه أكثر صورة جذابة لوجه شخصٍ أبله أو حيوانٍ متكلم.

ثم قال: «سام، ٢٥٠ دولارًا ليس بمبلغٍ كبير، أليس كذلك؟ ونحن نمتلكه. إذا قضيتُ ليلة أخرى مع ذلك الفتى فسينتهي بي المطاف في مستشفى المجانين. السيد دورسيت ليس فقط رجلًا نبيلًا، بل هو أيضًا شخصٌ سخي لكي يقدم لنا مثل هذا العرض الكريم. أنت لن تضيِّع من أيدينا تلك الفرصة، أليس كذلك؟»

فأجبتُه: «لن أُخفيَ عليك يا بيل أن هذا الخروف الصغير بدأ يثير أعصابي بعض الشيء أنا أيضًا. دعنا نُعِده إلى منزله، وندفع الفدية لوالده ونهرب بعيدًا.»

أخذنا الفتى إلى منزله في تلك الليلة. استطعنا أن نُقنعَه بالعودة حينما أخبرناه بأن والده اشترى له بندقيةً مزينة بأجزاء من الفضة وحذاءً خاصًّا بالهنود الحمر، وأننا سوف نصطحبه لصيد الدبَبة في اليوم التالي.

كانت الساعة الثانية عشرة مساءً تمامًا عندما طرقنا باب منزل إبنيزر الأمامي. ولغرابة الأقدار، كانت اللحظة التي يَعُدُّ فيها بيل مبلغ ٢٥٠ دولارًا ليعطيها دورسيت هي اللحظة نفسها التي كان من المفترض أن نتسلم فيها ١٥٠٠ دولار من الصندوق أسفل الشجرة.

وعندما علم الفتى أننا سوف نتركه ونغادر، بدأ يصدر صوتَ عُواء رهيب وألصق نفسه كالعَلَقَة في ساق بيل. أخذ يجذبه والده تدريجيًّا كأنه لاصقةٌ طبية لا تريد أن تغادر جرحها.

فسأل بيل الوالد: «كم من الوقت تستطيع أن تمسكه قبل أن ينفلت؟»

فردَّ عليه دورسيت العجوز: «لم أعُد بقوتي نفسها في الماضي، لكن أعتقد أنني قادرٌ على حجزه مدة عشر دقائق.»

فقال بيل: «هذا كافٍ. في غضون عشر دقائق سأتجاوز الولايات الوسطى والجنوبية والغربية الوسطى في البلاد، حتى إنه يمكنني الترحال حتى أتعثَّر بحدود كندا في طريقي.»

وبرغم توغُّل الظلام الدامس، وكل تلك الدهون التي تُغطي جسد بيل، ومع حقيقة أنني عدَّاءٌ سريع، فإن بيل استطاع أن يبتعد عن ساميت بمسافة ميل ونصف قبل أن أتمكَّن من اللحاق به.

«فتاة»

بحروف ذهبية كُتِبت على الزجاج المصنفر لباب غرفة رقم ٩٦٢ الكلمات التالية: «السمساران: روبينز وهارتلي». كان الموظفون قد غادروا بالفعل. إذ كانت الساعة قد تجاوزَت الخامسة، وقد بدأَت عاملات النظافة تتوافدن على مبنى المكاتب — ذاك المبنى الذي يناطح السحُب ويرتفع لعشرين طابقًا — محدثةً جلبةً شديدة تشبه الدبدبة القوية لحشدٍ من خيول الجرِّ الجيدة. فُتحَت النوافذ قليلًا، فدخلتَ منها نفثة من الهواء الساخن الممتزجة برائحة الليمون ودخان الفحم الناعم ورائحة زيت الحوت.

توجَّه روبينز — ذو الخمسين عامًا، وهو رجلٌ بدين ومتأنق، ومُدمن على حضور أول عرضٍ للعروض الفنية وارتياد قاعات الاحتفال بالفنادق — بحديثه إلى شريكه هارتلي متصنعًا أنه يغار من مباهج الحياة في الضواحي التي يتمتع بها.

حيث قال: «بالطبع سيكون للرطوبة شأنٌ كبير الليلة. هنيئًا لكم أيها القادمون من خارج المدينة بكل مباهجكم؛ صوت الجنادب وضوء القمر والمشروبات الكبيرة في الشرفة الخارجية!»

تنهَّد هارتلي، الذي كان شابًّا جادًّا، في التاسعة والعشرين من عمره، رفيعًا، حَسَن الطلة، عصبي المزاج، ثم عبس قليلًا.

فردَّ هارتلي: «نعم، نحن دائمًا ما نقضي ليالي جميلة في فلورالهيرست، خاصةً في فصل الشتاء.»

في تلك الأثناء، دخل عليهما رجلٌ يكتنفه الغموض، وتوجَّه مباشرةً إلى هارتلي.

أعلن ذلك الرجل بصوتٍ شبه هامس يشي بالغموض الذي يفضح المحقق وهو يزاول عمله: «لقد عرفتُ أين تعيش.»

نظر هارتلي إليه نظرةً متجهمة في حالة من السكون والهدوء الدراميَّين. لكن في تلك اللحظة، كان روبينز قد أمسك بعصاه وأخذ يُعدِّل من وضعية دبوس ربطة عنقه، ثم أومأ برأسه في كياسة مودعًا شريكه وخرج للتمتع بمباهج المدينة.

عاود المحقق كلامه بنبرة طبيعية هذه المرة بعد أن حُرِم من لمسة الغموض الاستعراضية، وقال: «ها هو العنوان.»

أخذ هارتلي الورقة المقطوعة من المفكرة البالية للمحقق. وعلى الورقة كُتبَت بقلم رصاص الكلمات: «فيفيان أرلينجتون، ٣٤١ شرق الشارع الـ...، عناية السيدة ماكوموس.»

أضاف المحقق: «انتقلَت إلى هذا العنوان منذ أسبوع مضى. والآن، إذا أردتَني أن أراقبها بأي نحو يا سيد هارتلي، يمكنني أن أُنجز لك هذا العمل مثل أي شخصٍ آخر في المدينة. ولن يكلفك الأمر أكثر من سبعة دولارات لليوم الواحد، وبالطبع تكاليف الحركة. ويمكن أن أرسل لك تقريرًا يوميًّا مكتوبًا بالآلة الكاتبة، يغطي ...»

فقاطعه السمسار: «لن أحتاج إلى ذلك. إنها ليست قضية من هذا النوع. أنا أردتُ العنوان فحسب. ما المقابل الذي تريده؟»

قال المحقق: «أتعاب عمل يومٍ واحد. ١٠ دولارات ستفي بالغرض.»

دفع هارتلي للرجل أتعابه وتركه يغادر. بعدها غادر هارتلي المكتب مستقلًّا الترام الذي يسير عبْر شارع برودواي. وفي أول طريقٍ رئيسي كبير عبْر المدينة، استقل سيارة متجهة شرقًا، تلك التي نزل منها على رصيف جادة متدهورة المعالم، كانت مبانيها القديمة يومًا ما مصدر فخر ومجد تلك المدينة.

مشى هارتلي بضعة مربَّعات سكنية حتى وصل إلى المبنى الذي يريده. كان عبارةً عن عمارة حديثة، منحوت على بوابتها الحجرية الرخيصة الاسم الرنان: «ذا فالامبروسا». كانت سلالم الهروب من الحرائق تمتد بشكلٍ متعرج في مقدمة العمارة وكانت محمَّلة بمتاع السكان، والغسيل المنشور، والأطفال المنزعجين من شدة قيظ منتصف الصيف. يتناثر في محيط المبنى نبتاتٌ مطاطية باهتة منبثقة من كتل حشائش متفرقة هنا وهناك، وتكاد تتساءل عن تصنيفها: أهي نباتات أم حيوانات أم مجرد جمادات؟

ضغط هارتلي على زر جرس شقة السيدة ماكوموس. استجاب مزلاج الباب بطقطقة مترددة؛ أحيانًا مرحبة وأحيانًا متشككة، كما لو كان لا يعرف ما إذا كان الواقف صديقًا أم محصل ديون. دخل هارتلي العمارة وبدأ يصعد السلالم متخذًا هيئة شخص يبحث عن أصدقائه في عمارات المدينة، تمامًا مثل الصبي الذي يتسلق شجرة تفاح ويتوقف حينما يصل إلى مراده.

عندما بلغ الطابق الرابع، رأى فيفيان تقف على عتبة بابٍ مفتوح. دعته للدخول بإيماءة وابتسامةٍ مشرقة صادقة. وضعَت له مقعدًا بالقرب من نافذة، ثم جلسَت بخفة على حافة إحدى قطع الأثاث الغامضة التي تبدو مسالمة وعادية في الصباح، ثم تصبح مصدر رعب في الليل.

ألقى هارتلي نظرةً خاطفة متفحصة وتقديرية عليها قبل أن يشرع في الحديث، وأخبر نفسه سرًّا بأن ذوقه في الاختيار لا يُخطئ.

كانت فيفيان تقريبًا في الحادية والعشرين من عمرها. كانت نموذجًا للجمال الأنجلوساكسوني. كان لون شعرها ذهبيًّا ضاربًا إلى الحمرة؛ وكانت كل جديلة من شعرها المصفَّف بعناية تتلألأ ببريقها الخاص وتدرُّجها اللوني الناعم. ويُوجد تناسقٌ تام بين بشرتها العاجية الصافية وعينَيها الزرقاوَين زرقة البحر العميق، اللتَين تنظر بهما إلى العالم بالهدوء الصافي لحورية بحر أو جنِّيةٍ ساكنة في جدولٍ مائي جبلي غير معروف. كانت بِنية جسدها قوية غير أن لها جلالًا طبيعيًّا تمامًا. ومع كل ذلك النقاء الشمالي في هيئتها ولونها، فقد بدا بداخلها شيء استوائي، بعض التراخي في هيئة جسدها، وميلها إلى الاسترخاء البادي في رضاها وسعادتها الكبيرة لمجرد التمتع بفعل التنفس المتَّئِد، شيئًا بدا أنه وهبها الحق باعتبارها أعجوبة الطبيعة المتكاملة في الوجود، وفي أن تكون محل إعجاب، مثل وردة نادرة، أو يمامة جميلة، ناصعة البياض، متفردة بين أقرانها العاديين في السرب.

كانت ترتدي بلوزة بيضاء وتنورة سوداء، ذلك الرداء التنكري لراعية إوَز أو دوقة.

قال هارتلي بنبرة توسل: «أنتِ لم تجيبي عن رسالتي الأخيرة يا فيفيان. ظللتُ طَوال أسبوعٍ أبحث عن عنوانك الجديد. لماذا أبقَيتِني متحيرًا وأنتِ تعلمين جيدًا أنني أنتظر رؤيتكِ وتلقي رسالة منك؟»

نظرَت الفتاة خارج النافذة على نحوٍ حالم.

ثم قالت لهارتلي بتردُّد: «أنا بالكاد أعلم ما يجب أن أقولَه لك، يا سيد هارتلي. أنا أدرك كل مميزات عرضك، وأحيانًا أشعر أنني يمكن أن أكون سعيدة معك. لكن، وكالعادة، أنا متشككة. لقد وُلدت كفتاة تعيش في المدينة، وأخشى أن أقيد نفسي بحياة الضواحي الهادئة.»

فردَّ عليها هارتلي بحماس: «يا عزيزتي، ألم أخبرك من قبلُ أنه يمكنك أن تحصلي على أي شيء يمكن أن يرغبه قلبك وفي استطاعتي أن أمنحكِ إياه؟ سيكون بمقدورك الذهاب إلى المدينة لارتياد المسارح، والقيام بالتسوق، وزيارة أصدقائك كلما وددتِ ذلك. يمكنكِ أن تثقي فيَّ، لمَ لا تثقين بي؟»

وجَّهَت عينَيها الصادقتَين تجاهه بابتسامة، وقالت: «أنا أثق بك تمامًا. أعلم أنك أطيب مَن عرفتُهم من الرجال، وأن الفتاة التي ستحصل عليها ستكون فتاةً محظوظة. لقد علمتُ كل شيء عنك عندما كنت في منزل آل مونتجمري.»

قال وقد لمَعَت عيناه قليلًا وهو يتذكر: «آهٍ! أتذكر جيدًا أول أمسية رأيتك فيها في منزل آل مونتجمري. كانت السيدة مونتجمري تُثني عليكِ كل الثناء في حضرتي طوال المساء. ومع هذا لم تُوفِّكِ حقك الكامل. لن أنسى أبدًا ذلك العشاء. تعالَي يا فيفيان، وعِديني. أنا أريدك. لن تندمي أبدًا على القدوم معي. لن يوفِّر لك غيري منزلًا أسعد مما سأقدمه لكِ.»

تنهَّدَت الفتاة ونظرَت لأسفل إلى يدَيها المطويتَين.

واجتاح هارتلي فجأةً شعور بالغَيرة والشك.

سألها، وهو ينظر إليها بحدة: «أخبريني يا فيفيان، هل هناك ... هل هناك شخصٌ آخر؟»

فتسلَّلَت ببطء فورة تورُّد إلى خدَّيها الرقيقَين وعنقها الجميل.

ثم قالت ببعض الارتباك: «لا يجب أن تسألني هذا السؤال يا سيد هارتلي. لكنني سأخبرك. نعم، هناك شخصٌ آخر — لكن ليس لديَّ التزام تجاهه — أنا لم أَعِده بأي شيء.»

فسأل هارتلي بحزم: «ما اسمه؟»

فأجابت: «تاونسيند.»

فتعجَّب هارتلي مطبقًا فكَّيه بقوة وعبوس، وقال: «رافورد تاونسيند! كيف تعرَّف إليك ذلك الرجل؟ بعد كل ما فعلته من أجله ...»

اتكأَت فيفيان على حافة النافذة، وقالت: «ها هي سيارته قد توقفَت للتو أسفل المنزل. هو كذلك قادم من أجل أن يحصل على ردٍّ مني. أوه، لا أعلم ماذا أفعل!»

رن الجرس في مطبخ الشقة. فهرولَت فيفيان كي تضغط على زر المزلاج لفتحه.

قال لها هارتلي: «ابقي هنا. سوف أقابله في الرَّدهة.»

بدا تاونسيند كرجلٍ إسباني نبيل في بذلته الصوفية الخفيفة، وقبَّعة بنما الخاصة به وشاربه الأسود المبروم، وقد أخذ يصعد السلم قافزًا ثلاث درجات في المرة الواحدة. ثم توقف حينما رأى هارتلي وبدا في مظهر الأحمق.

صاح هارتلي في تاونسيند بحزم مشيرًا بسبابته إلى الأسفل: «عُد كما أتيت.»

فقال تاونسيند مدعيًا أنه تفاجأ: «مرحبًا! ما الأمر؟ ماذا تفعل هنا يا صديقي؟»

فكرَّر هارتلي أمره بصرامة: «عُد كما أتيتَ. سأُفعِّل قانون الغاب. والآن هل تريد أن يمزقك قطيعي إلى أشلاء؟ هذا صيدي.»

فقال تاونسيند بشجاعة: «لقد جئتُ إلى هنا لأرى سباكًا يُصلِح لي مواسير الحمام.»

فقال هارتلي: «حسنًا. يمكنك أن تكذب تلك الكذبة على شخصٍ آخر. لكن عُد أدراجك الآن.» فنزل تاونسيند، متمتمًا بكلماتٍ لاذعة تتردد في صدى سلالم العمارة. ثم عاد هارتلي مجددًا لتودُّده السابق.

قال هارتلي في سيطرة: «فيفيان. يجب أن أحصلَ عليكِ. لن أقبلَ بالمزيد من الرفض والتلكؤ.»

فسألَته فيفيان: «متى تريدني بالتحديد؟»

فأجاب: «الآن. حالما تصبحين جاهزة.»

فوقفَت بهدوء أمامه ونظرَت مباشرةً في عينَيه.

وقالت: «هل تعتقد ولو للحظةٍ واحدة أنني سوف أدخل منزلك وإلويز موجودة فيه؟»

ارتد هارتلي إلى الخلف كما لو قد تلقى ضربةً غير متوقَّعة. ضمَّ ذراعَيه وذرع البساط مرةً أو اثنتَين.

ثم قال في عبوس: «سوف ترحل.» وتقطَّب جبينه. ثم أضاف: «لماذا يجب أن أسمح لتلك المرأة بتحويل حياتي لمأساة؟ لم أنعَم معها منذ أن عرفتُها بيومٍ واحد خالٍ من المشاكل. أنتِ على حق يا فيفيان. يجب أن أُبعِد إلويز قبل أن تأتي معي إلى المنزل. حريٌّ بها أن تذهب. هذا قراري النهائي. سوف أطردها من بيتي.»

فسألَته فيفيان: «متى سوف يحدث ذلك؟»

جزَّ هارتلي على أسنانه وقطَّب حاجبَيه.

وقال في إصرار: «الليلة. سوف أطردها خارج المنزل الليلة.»

فردَّت عليه فيفيان: «إذن جوابي هو «نعم». تعالَ وخذني عندما تفعل ذلك.»

تطلعَت إليه بنظرة يملؤها شعاع من الدفء والصدق. وتمكَّن هارتلي بصعوبة من تصديق أنها حقًّا استسلمَت؛ إذ كان الاستسلام سريعًا وكاملًا.

فتساءل بتأثُّر: «هل تعاهدينَني على ذلك؟»

فردَّت فيفيان بنعومة: «أعاهدك على ذلك.»

وعلى عتبة الباب، التفَت هارتلي وحدَّق بها في سعادة، لكن كشخصٍ لا يثق تمامًا في أسس تلك السعادة.

قال لها رافعًا سبابته للتذكير: «غدًا.»

فكرَّرَت بابتسامة صدق وإخلاص قائلة: «غدًا.»

بعد ساعة وأربعين دقيقة، نزل هارتلي من القطار في فلورالهيرست. سار على قدمَيه مسافة عشر دقائق حتى وصل إلى بوابة بيتٍ صغير أنيق، مكوَّن من طابقَين، يقع وسط مرجٍ واسع من العشب الأخضر المهذَّب. كان قد صادف هارتلي في منتصف طريقه إلى المنزل امرأةً ذات شعر أسود فاحم مُضفَّر وترتدي فستانًا صيفيًّا أبيض فضفاضًا، تلك التي عانقَته بقوة وحماس.

وحينما وصلا إلى الرَّدهة، قالت:

«أمي هنا. ستأتي السيارة لتأخذها بعد نصف ساعة. لقد جاءت من أجل تناول العشاء لكن لا يُوجد عشاء.»

فقال هارتلي: «هناك شيءٌ يجب أن أخبرك به. فكَّرتُ في أن أعلنه لك بلطف، لكن بما أن والدتك هنا فمن الأفضل أن أخبركِ به الآن.»

أمال جسمه للأمام وهمس بكلماتٍ في أذنها.

صرخَت زوجته. فهُرعَت والدتها إلى الرَّدهة. فصرخَت المرأة ذات الشعر الأسود الفاحم مجددًا؛ كانت صرخةً سعيدة لامرأةٍ محبوبة ومدلَّلة.

صاحت في نشوة: «أوه يا أمي! تصوَّري ماذا سيحدث؟ ستأتي فيفيان لتطبخ لنا جميعًا! إنها الفتاة التي خدمَت في منزل عائلة مونتجمري عامًا كاملًا.» وختمَت حديثها قائلة: «والآن يا عزيزي بيلي، عليك أن تذهب فورًا إلى المطبخ وتطرد إلويز. لقد كانت في حالة سُكر مرةً أخرى طَوال اليوم.»

مأساة هارلم

هارلم.

نزلَت السيدة فينك لزيارة السيدة كاسيدي في شقتها التي تقع أسفل شقتها بطابقٍ واحد.

قالت السيدة كاسيدي: «أليس ذلك جميلًا؟»

أدارت السيدة كاسيدي وجهها بفخر ناحية صديقتها السيدة فينك لتريها ما حدث لها. كانت إحدى عينَيها شبه مغلَقة، وكانت هناك كدمةٌ كبيرة بلونٍ بنفسجي مائل إلى الأخضر حولها. وكانت إحدى شفتَيها مجروحة ويسيل منهما القليل من الدماء، هذا بالإضافة لعلامات أصابع حمراء مطبوعة على جانبَي عنقها.

فقالت السيدة فينك، مظهرة غَيرتها: «لن يفكر زوجي أبدًا في أن يفعل هذا بي.»

فردَّت السيدة كاسيدي: «أنا لا أرضى برجل لا يبرِّحني ضربًا على الأقل مرةً في الأسبوع. فذلك يوضِّح أنه يكترث لأمرك. عجبًا، لكن تلك الجرعة الأخيرة من الضرب لم تكن قوية حقًّا. ما زال بإمكاني رؤية النجوم بتلك العين. سيتحول جاك إلى ألطف رجل في المدينة لبقية الأسبوع ليعوِّضني عن ذلك. وبالطبع ستكون تلك العين مفيدة للحصول على تذاكر مسرح، وبلوزة حريرية على الأقل.»

فقالت السيدة فينك متصنعةً الرضا عن النفس: «السيد فينك رجلٌ محترم بشدة؛ بحيث لا يمكن أن يلجأ لمثل هذا التصرف.»

فقالت السيدة كاسيدي وهي تضحك وتضع مستحضرًا لتطبيب جراحها: «أوه، دعكِ من هذا، يا ماجي! أنت فقط تَغارين. إن زوجك بليد وبطيء للغاية بحيث لا يقدر أبدًا على توجيه لكمة لك. هو يجلس وحسب ويكتفي بقراءة الجرائد حينما يعود إلى المنزل؛ أليست تلك الحقيقة؟»

أقرَّت السيدة فينك هذا الكلام برفعةٍ مفاجئة من رأسها، قائلة: «بالتأكيد السيد فينك يطالع الجرائد حالما يرجع إلى المنزل، لكنه بلا شك لن يُحولني إلى جراب ملاكمة فقط من أجل تسلية نفسه؛ هذا أمرٌ مؤكد.»

فضحكتَ السيدة كاسيدي ضحكةً راضية لربة منزل سعيدة تشعر بالأمان في وضعها. وبأسلوب كورنيليا وهي تستعرض جواهرها، أزاحت ياقة الرداء الفضفاض الذي ترتديه، فكشفَت عن كدمةٍ ثمينة أخرى؛ تحمل اللون الكستنائي، حوافيها باللونَين الزيتوني والبرتقالي، وهي كدمةٌ بدت الآن على وشك الشفاء، إلا أن ذكراها ما زالت حاضرة في الذهن.

استسلمَت السيدة فينك في النهاية. وتحولَت النظرة الرسمية في عينَيها إلى إعجابٍ ممزوج بالحسد. كانت هي والسيدة كاسيدي زميلتَي عمل في مصنع لصناعة الصناديق الكرتونية في وسط المدينة قبل أن يتزوجا منذ عام. والآن سكنَت هي وزوجها الشقة التي تقع أعلى شقة ميم وزوجها. لذا لا يمكن أن تدَّعي أنها أفضل من ميم.

سألت السيدة فينك بفضول: «ألا يؤلمك عندما ينهال عليك ضربًا مبرحًا؟»

أطلقَت السيدة كاسيدي صيحة سوبرانو مشوبة بالابتهاج ثم ردَّت: «ألَم؟! حسنًا، دعيني أخبرك؛ هل صادف أن سقط على رأسك منزل من الطوب؟ حسنًا، هكذا أشعر عندما يحدث ذلك؛ تمامًا كما لو كانوا ينتشلونك من تحت الأنقاض. جاك يمتلك يدًا يُسرى تُفضي لكماتها إلى تذكرتَي مسرح لعرضَين نهاريَّين وحذاء أوكسفورد جديد، أما يمناه، حسنًا، إنها تُفضي إلى رحلة إلى كوني آيلاند وستة أزواج من الجوارب الحريرية الفاخرة كي تعوِّض ما فعلَته.»

سألت السيدة فينك بعينَين فاغرتَين: «ولكن ما سبب ضربه لك؟»

فأجابت السيدة كاسيدي على نحوٍ متسامح: «لا تكوني ساذجة! عجبًا، هو يفعل ذلك لأنه ثمل. يحدث ذلك في العادة في ليالي السبت.»

فأصرت السيدة فينك في السؤال قائلة: «ولكن ما الذي تفعلينه من أجل أن يقوم بفعلته هذه؟»

«عجبًا، أليس هو زوجي؟ يأتي جاك من الخارج وهو ثمل للغاية، وأنا من يجده أمامه، أليس كذلك؟ فمن غيري يكون لديه الحق في ضربه؟ أود لو أراه يومًا ما يضرب شخصًا آخر غيري! أحيانًا يكون السبب هو أن العشاء ليس جاهزًا بعد؛ وأحيانًا لأنه جاهز! لا يهتم جاك بالأسباب. هو فقط يسرف في الشرب حتى يتذكر أنه متزوج، فيقصد منزله

ويوسعني ضربًا. في ليالي السبت، أحرص على نقل أثاث الشقة ذي الحوافي الحادة بعيدًا عن طريقه، حتى لا ينجرح رأسي حينما يشرع في مهمته. لديه لكمةٌ يُسرى ترجُّ الجسد من هولها! أحيانًا أسقط بالقاضية في الجولة الأولى؛ غير أنني عندما أرغب في قضاء وقت جيد خلال الأسبوع أو شراء بعض الملابس الجديدة، أقف مجددًا كي تستمر اللكمات. وهذا هو ما فعلتُه في الليلة الماضية. جاك يعلم أنني أردتُ بلوزة حريرية سوداء منذ شهر مضى، ولم أعتقد أن مجرد هالة سوداء على عيني ستفي بالغرض. أراهنكِ يا ماج أنه سيأتي الليلة مُحضِرًا معه البلوزة.»

شردَت السيدة فينك في تفكير عميق.

ثم قالت: «زوجي مارت، لم يضربني ولو ضربة خفيفة في حياته. ومثلما قلتِ يا ميم؛ يعود إلى منزله متبرمًا ولا ينطق بكلمة واحدة. لم يأخذني في نزهة إلى أي مكان من قبلُ. فهو ملازم لكرسيه أبد الدهر. هو يشتري لي بعض الأشياء، لكن لا يبدو سعيدًا تجاه الأمر، مما يمنعني من الاستمتاع بتلك الهدايا.»

وضعَت السيدة كاسيدي ذراعها حول زميلتها. ثم قالت: «أيتها المسكينة! لكن ليس كل الزوجات بمقدورها أن تحصل على زوج مثل جاك. فلن يفشل أي زواج إذا كان كل الرجال مثله. إن كل ما تحتاج إليه حقًّا هؤلاء الزوجات التعيسات اللاتي تسمعين عنهن، هو رجل يأتي إلى المنزل ويوسعهن ضربًا مرة كل أسبوع، وبعد ذلك يعوضهن عن ذلك بالقبلات والحلوى. ذلك قد يضفي بعض الإثارة على حياتهن. فما أريده هو رجلٌ حقيقي يلكمُني حينما يكون ثملًا، ويحضنُني حينما لا يكون كذلك. ولا حاجة لي برجل ليست لديه القدرة لا على هذا ولا على ذاك!»

تنهَّدَت السيدة فينك.

فجأة صدر صوتٌ عالٍ من الرواق الخارجي. انفتح الباب بقوة على أثر ركلة من السيد كاسيدي. كان يحمل في يدَيه حُزمًا مغلَقة. هُرعَت ميم إليه، وألقَت ذراعَيها حول عنقه. لمعَت عيناها بضوء الحب؛ ذلك الشعاع الذي يشرق في عينَي الفتاة الماورية عندما تستعيد وعيَها في كهف خاطفها بعد أن خدَّرها وجرَّها إلى هناك.

صاح السيد كاسيدي: «أهلًا يا عزيزتي!» ثم وضع الحُزم على الأرض، وحمل زوجته عاليًا في عناقٍ حميمي. واستطرد: «لقد اشتريتُ تذكرتَين لسيرك «بارنوم آند بايلي»، وإذا فكَكتِ وثاقَ إحدى تلك الحُزم، أعتقد أنك ستجدين تلك البلوزة الحريرية ... عذرًا، مساء الخير يا سيدة فينك، لم أرَكِ من أول وهلة. كيف حال زوجكِ العزيز مارت؟»

فقالت السيدة فينك: «هو في أفضل حال يا سيد كاسيدي، شكرًا لك. يجب أن أذهبَ الآن. سيعود مارت من أجل العشاء قريبًا. سأحضِر لكِ باترون الخياطة الذي أردتِه غدًا يا ميم.»

عادت السيدة فينك إلى شقَّتها وبكت قليلًا. لقد كان بكاءً بلا معنًى، ذلك البكاء الذي تعرفه فقط النساء؛ بكاء بلا سببٍ محدَّد، بكاء سخيف تمامًا؛ أكثر بكاءٍ عابرٍ وبلا قيمةٍ في كتالوج الحزن. لماذا لم يضربها مارتن قَط من قبلُ؟ إنه في حجم وقوة جاك كاسيدي نفسَيهما. ألا يهتم لأمرها على الإطلاق؟ إنه لم يكلف نفسه قَط عناء الانخراط في شجار معها؛ إذ يأتي إلى المنزل ويتبلد تمامًا في صمت وتجهُّم وكسل. إنه معيلٌ جيد إلى حدٍّ ما للأسرة، لكنه يتجاهل كل ما يُضفي إثارة وحيوية على الحياة.

سفينة أحلام السيدة فينك عاجزة عن الحركة بسبب نقص الريح. وقبطانها تنحصر اهتماماته بين حلوى البرقوق وأرجوحته الشبكية. يا ليته يكشر عن أنيابه أو يضرب بقدمه على أرضية سطح مؤخرة السفينة بين الحين والآخر! لقد كانت تحلم أن تُبحرَ في ابتهاجٍ عارم، وترسيَ بسلام على موانئ جزر بهيجة! لكن الآن، ولتغيير الصورة المجازية، باتت تشعر وكأنها ملاكمٌ مستعد للاستسلام، منهَك، لم يتلقَّ ضربةً واحدة قط، رغم كل الجولات الهادئة التي خاضها مع منافسه السلبي. وللحظة، شعرَت بأنها تكاد تكره ميم؛ ميم، بكل جروحها وكدماتها، وهداياها وقُبلاتها؛ ورحلتها العاصفة مع ذلك الزوج المحب والمتوحش والمتقلب.

عاد السيد فينك إلى منزله في الساعة السابعة. وكانت تُحيطه هالة من الولع بالحياة المنزلية. إذ لا طاقة له للمغامرة بعيدًا عن أبعاد جُحره المريح. كان أشبه بالترام على مساره الثابت، أو الأناكوندا التي ابتلعَت فريستَها، أو الشجرة التي لا تتحرك في المكان الذي سقطَت فيه.

سألَت زوجها عن العشاء الذي تعبَت في تحضيره: «هل أعجبك العشاء يا مارت؟»

فنخر السيد فينك قائلًا: «مممم، بالطبع.»

بعد العشاء، جمع جرائده ليقرأها. ثم جلس مرتديًا جوربه.

فلينهض دانتي جديد، ولينشُد لي مكانًا ملائمًا في دار العذاب من أجل رجل يجلس في منزله وهو يرتدي جوربه. ويا للزوجات الصابرات اللاتي بدافع الارتباط أو الواجب يتحملن هذا الفعل، أيًّا كانت المادة المصنوع منها الجورب الذي يرتديه الرجل — حريري أو قطني أو صوفي — ألا يستحق هذا الفعل مقطعًا جديدًا في عمل دانتي؟

كان اليوم التالي هو يوم عيد العمال. وهو ما يمنح كلًّا من السيد كاسيدي والسيد فينك عطلة ليوم واحد. لذا فالعمال المظفَّرون سيخرجون في مواكب واحتفالات.

أحضرَت السيدة فينك باترون الخياطة للسيدة كاسيدي في الصباح الباكر. كانت ميم ترتدي بلوزتها الحريرية الجديدة. وحتى عينها المتضررة استطاع أن ينبعث منها وميض العطلة المبهج. بدا جاك نادمًا على نحوٍ مثمر لزوجته، وكانا يخطِّطان على قدمٍ وساقٍ ليومٍ ممتع مليء بالتنزه في الحدائق وشرب الجِعة.

وحينما عادت السيدة فينك لشقتها في الأعلى، عاودَتْها نوبة من الغَيرة الساخطة. ها هي ميم السعيدة، بكدماتها وما يتبعها من التئامٍ متشبع برائحة البلسم العطرة! أَلِزامٌ على ميم أن تحتكر السعادة لنفسها؟ بلا شك مارتن فينك رجل لا يقل صلاحًا عن جاك كاسيدي. فلِمَ كُتِبَ على زوجته أن تبقى دائمًا مُهمَلة بلا إثارة في حياتها؟ ثم طرأَت على مخيلة السيدة فينك فكرة مفاجئة وذكية ومثيرة. حان الوقت لكي تُظهر لميم أنه يوجد أزواجٌ بالقدرة نفسها على استخدام قبضات الأيدي، وربما بالرقة نفسها بعد ذلك مثل زوجها جاك.

كان يوم العطلة يبشر بأن يكون يومًا عاديًّا في حياة آل فينك. بالنسبة للسيدة فينك، كان حوض الغسيل في المطبخ ممتلئًا عن آخره بغسيلٍ متراكم على مدى أسبوعَين ومنقوع منذ الليلة السابقة. أما السيد فينك فبقي جالسًا مرتديًا جوربه يقرأ إحدى الجرائد. وهكذا بدأَت العطلة.

زادت الغَيرة داخل قلب السيدة فينك، وزاد معها العزم على القيام بتصرفٍ جريء. إذا لم يضربها زوجها — إذا لم يثبت رجولته، وامتيازه، وشغفه بعلاقته مع زوجته — حينها لا مفر من حثه على أداء واجباته.

أشعل السيد فينك غليونه، وحك كاحله بهدوء بإصبع قدمه الأخرى. استرخى في جلسته مثل قطعة من الشحم الصافي في بودينج. وكانت هذه هي فكرته عن الجنة على الأرض، أن يجلس في راحة ويسافر ذهنيًّا حول العالم عبْر ذلك الورق المطبوع بينما يتطاير حوله رذاذ الماء والصابون في يدَي زوجته، والروائح الشهية لأطباق الإفطار المتسخة ولأطباق الغداء التي ستحل محلها. لعل الكثير من الأفكار كانت أبعد ما يكون عن عقله؛ لكن أبعدها احتمالًا هي فكرة ضربه لزوجته.

فتحَت السيدة فينك صنبور المياه الساخنة ووضعَت ألواح الغسيل في رغوة الصابون. حينها، سمعَت ضحكةً سعيدة للسيدة كاسيدي من الشقة التي تقع أسفل شقتهما. بدا

ذلك نوعًا من التهكُّم، والتباهي بالسعادة أمام الزوجة غير المضروبة في الأعلى. لذا حان الآن الوقت الذي يجب أن تتحرك فيه السيدة فينك.

فجأة، انفعلَت بشدة على الرجل المنشغل بالقراءة.

صاحت قائلة: «أيها المتبلد الكسول! هل عليَّ أن أُرهق ذراعيَّ في الغسيل والعمل الشاق من أجل رجلٍ قبيح مثلك؟ هل أنتَ حقًّا رجل أم مجرد كلبٍ منزلي؟»

أسقط السيد فينك الجريدة من يده، ولم يحرِّك ساكنًا من هول المفاجأة. خَشيَت السيدة فينك ألا يضربها؛ أن الاستفزاز لم يكن كافيًا لإثارة غضبه. فقفزَت عليه وأخذَت تلكمُه بقوة في وجهه. في تلك اللحظة، أحسَّت باستثارة حب عارمة تجاهه لم تشعر بها لفترة طويلة. فلتنهَض الآن يا مارتن فينك، قم وسيطر على مملكتك! أوه، يجب عليها الآن أن تشعر بثقل يده — فقط لتشعر بأنه يهتم لأمرها — فقط ليؤكد ذلك الاهتمام!

نهض السيد فينك على قدمَيه وانهالت عليه ماجي مجددًا بضربة على فكِّه بيدها الأخرى. أغمضَت عينَيها في تلك اللحظة المرعبة المبجَّلة قبل أن يهمَّ بشن هجمته — همسَت باسمه في نفسها — ومالت منتظرة تلك الصدمة المتوقَّعة، ومتعطشة من أجلها.

في الشقة التي تقع أسفل شقتها، كان السيد كاسيدي يضع مسحوق التجميل على عين زوجته، ظاهرةً عليه علامات الندم والخجل من فعلته؛ إذ كانا يتجهزان للانطلاق في رحلتهما. فجأة سمعا صوتًا نسائيًّا قادمًا من الشقة العلوية، صيحة صارخة، وارتطامًا، وتساقطًا وجرجرة، صوت انقلاب كرسي؛ أصوات شجار منزلي لا تخطئها الأذن.

فتساءل السيد كاسيدي: «هل هذا شجار بين مارت وماج؟ لم أكن أعلم أنهما انخرطا من قبلُ في هذا. هل يجب أن أهرول إلى أعلى لأرى إذا ما كانا يحتاجان لحَكم؟»

تلألأَت إحدى عينَي السيدة كاسيدي كالألماس. واكتفت العين المصابة بطرفةٍ سريعة خافتة.

قالت ميم بوداعةٍ وبأسلوبٍ أنثوي خاطف لكن بلا معنًى واضح: «أوه، أوه. يا تُرى ... يا تُرى! انتظِر يا جاك ريثما أصعد وأرى ما حدث.»

خرجَت مسرعة إلى الطابق الأعلى. وحالما وصلَت إلى الرواق العلوي اندفعَت بقوة السيدة فينك من باب مطبخ شقتها.

فصاحت السيدة كاسيدي بصوت همس مبتهج: «أوه، يا ماجي! هل فعلها؟ أوه، هل فعلها؟»

جرَت السيدة فينك، ودفنَت وجهها في كتف رفيقتها، وانتحبَت بيأس.

أحاطت السيدة فينك وجه ماجي بيدَيها ورفعَته إلى أعلى برفق. كان وجهها مغطًّى بالدموع، ومتوردًا وشاحبًا، لكن سطحه الناعم المنمش المزدان باللونَين الأبيض والوردي كان بلا خدوش، ولا كدمات، وغير مشوَّه بالقبضة الجبانة للسيد فينك.

فتوسلَت إليها ميم قائلة: «أخبريني يا ماجي، وإلا فسأدخل إلى شقتكما وأعرف ما حدث. ماذا جرى؟ هل آذاكِ ... ماذا فعل؟»

فأسقطَت السيدة فينك وجهَها مجددًا في يأس على صدر صديقتها.

قالت وهي تنشج: «بالله عليكِ لا تفتحي هذا الباب يا ميم. ولا تُخبري أحدًا بذلك أبدًا؛ فلتُبقِي الأمر سرًّا. هو ... هو لم يلمسني قط، و... هو ... أوه، يا إلهي ... هو الآن يغسل الملابس ... إنه يغسل الملابس!»

سيدا عيد الشكر

هناك يومٌ واحد خاص بنا. يوم نعود فيه نحن الأمريكيين، الذين لم نصنع أنفسنا بأنفسنا، إلى البيت القديم لنأكل البسكويت المصنوع بصودا الخبير، ونندهش كم تبدو المضخة القديمة أقرب إلى الشرفة مما كانت عليه من قبلُ. فليبارك الله هذا اليوم! الرئيس روزفلت منحنا إياه. نسمع بعض الحديث عن أنه يعود للبيوريتانيين، لكننا لا نتذكر تمامًا مَن كانوا. أراهن أننا نستطيع التغلب عليهم على أي حال إذا عادوا مجددًا للظهور. دجاج بلايمث روك؟ حسنًا، هذا يبدو مألوفًا أكثر. لقد تحوَّل الكثير منا إلى الدجاج بعد سيطرة أباطرة الديك الرومي على السوق. لكن يبدو أن هناك شخصًا في واشنطن يسرب لهم معلومات عن تلك الإعلانات الرسمية الخاصة بعيد الشكر.

لقد اتخذَت المدينة الكبيرة التي تقع شرق مزارع التوت البري عيد الشكر تقليدًا. إن الخميس الأخير من نوفمبر هو اليوم الوحيد في العام الذي تعترف فيه بكل الأراضي الواقعة خارج حدودها كأراضٍ أمريكية. إنه يومٌ أمريكي خالص. نعم، هو يوم احتفالٍ أمريكي بشكلٍ حصري.

والآن دعُونا نحكي القصة التي ستُثبِت أننا نملك تقاليد على هذا الجانب من المحيط، تصبح أكثر قدمًا بمعدل أسرع كثيرًا من تلك الخاصة بإنجلترا؛ وذلك بفضل براعتنا وروحنا.

جلس ستافي بيت على المقعد الثالث على اليمين عندما تدخل ميدان يونيون من الجانب الشرقي له، ناحية ذلك الممشى المواجه للنافورة. اعتاد ستافي في كل عيد شكر، وعلى مدى تسع سنوات متتالية، أن يجلس هناك عند تمام الساعة الواحدة. إذ في كل مرة كان يجلس فيها ها هنا، تحدث أشياء له، أشياء تشبه ما يحدث في روايات تشارلز ديكينز حيث يمتلئ قلب الشخص وبطنه معًا.

غير أن ظهور ستافي بيت اليوم في مكان التلاقي السنوي بدا ناتجًا عن العادة أكثر منه من قبيل الجوع البائس الذي، وفقًا لأهل الخير، يصيب الفقراء في مناسباتٍ معينة فقط.

بيت بالتأكيد لم يكن جائعًا ذلك الحين. إذ إنه للتو قد أتي من وليمة جعلَته يتنفس ويتحرك بالكاد. كانت عيناه مثل حبتَين من الكشمش الذابل المغروستَين بقوة داخل قناعٍ منتفخ وملطَّخ بالمرق مصنوعٍ من معجون الحوائط. وخرجَت أنفاسُه لاهثةً قصيرة يصدُر منها صفير، وحالت كتلة نسيجٍ دهني في رقبته دون هندام ياقة معطفه المقلوبة. وطارت أزرار ملابسه، التي خاطتها له يدٌ عطوفة قبل أسبوع مضى، في الهواء كحبات الفشار، وتناثرَت على الأرض حوله. لقد كان قميصه مشقوقًا من الأمام حتى أسفل صدره، لكن نسيم شهر نوفمبر العليل الذي يحمل معه نُدف ثلجٍ رقيقة لم يجلب معه سوى بعض البرودة البسيطة. فقد حظي ستافي بيت بعشاء سخي غني بالسعرات الحرارية؛ بدأ بالمحار وانتهى ببودينج البرقوق، وشمل (كما بدا له) كل لحم الديك الرومي المشوي والبطاطس المحمصة وسلطة الدجاج وفطائر القرع والآيس كريم الموجودة في العالم. ولهذا، كان يجلس يشعر بالتخمة محدقًا في العالم من حوله بنظرة عدم اكتراث، وكأنه لا يمكنه أن يقدم له أي شيءٍ آخر.

كانت تلك الوجبة غير متوقعة. إذ حدثَت في أثناء مروره بجوار منزل كبير من الطوب الأحمر بالقرب من بداية الجادة الخامسة؛ حيث سكنَت سيدتان عجوزان من عائلةٍ مرموقة لديهما احترام وتبجيل للتقاليد. كانتا حتى ترفضان الاعتراف بوجود مدينة نيويورك، وأصرَّتا على أن عيد الشكر لا يخص أحدًا سوى ميدان واشنطن. نصَّت إحدى عاداتهما التقليدية على وضع خادم على البوابة الخلفية للمنزل، ومعه أوامر بإدخال أول عابر سبيل جائع يمُر أمامه بعد الظهيرة مباشرة وإطعامه حتى يشبع. صادف أن ستافي بيت كان يمر بالمنزل وهو في طريقه إلى الميدان، فاصطحبه الخدم إلى داخل المنزل من أجل الوفاء بتقليد العائلة.

بعد أن حدَّق بيت بنظره فيما أمامه مباشرة قرابة عشر دقائق، كانت لديه رغبة في نطاق رؤية مختلف. فحرك رأسه ببطء وبجهد كبير ناحية اليسار. وإذا بعينَيه فجأة تتسعان في خوف، وينقطع نفَسه، وتتلوَّى قدما ساقَيه القصيرتَين في نعلَيهما المزقتَين، وتُصدران صوتَ حفيفٍ على الحصى المترامي على الأرض.

كان ذلك على أثر رؤيته للسيد العجوز، وهو يعبُر الجادة الرابعة في طريقه إلى مقعده.

في كل عيد شكر على مدى تسع سنوات كان يأتي ذاك السيد العجوز إلى هناك ليجد ستافي بيت جالسًا على مقعده. وهذا أمرٌ كان يحاول الرجل أن يُحوله إلى تقليد. في كل عيد شكر على مدى تسع سنوات كان يقابل ستافي بيت هناك، ثم يصطحبه إلى مطعم ويشاهده وهو يتناول وجبة عشاء مشبِعة. إنهم يفعلون تلك الأمور في إنجلترا عن غير وعي. لكن هذا بلدٌ وليد، وتسع سنوات ليست برقمٍ هين. كان السيد العجوز أمريكيًّا وطنيًّا محبًّا لبلده، واعتبر نفسه رائدًا في إرساء التقاليد الأمريكية. فإذا أردنا أن نرسِّخ تقليدًا معينًا، فعلينا أن نواصل القيام بأمرٍ ما مدةً طويلة حتى يتجذر. الأمر يشبه تجميع مبالغ التأمين الأسبوعية من العمال. أو تنظيف الشوارع.

توجَّه السيد العجوز مباشرةً وبمهابة من أجل إرساء التقليد الذي وضع بذوره. بالطبع لم يكن حدثُ إطعام ستافي بيت السنوي قوميًّا في طابعه مثل «الوثيقة العظمى» أو المُربَّى في الإفطار في إنجلترا. لكنه كان بمثابة خطوة. لقد كان يحمل لمحةً إقطاعية. إنه يثبت على الأقل أن وضع تقليد ليس عصيًّا على نيويو ... — تبًّا — أمريكا.

كان السيد العجوز طويلًا ورفيعًا ويبلغ الستين من عمره. كان يرتدي ملابس سوداء اللون بالكامل، ونظارة قديمة الطراز لا تكُف عن السقوط عن أنفه. بدا شعره أكثر شيبًا وأقل غزارةً من العام الماضي، كما صار يعتمد أكثر على عكَّازه الكبير الكثير العُقد بمقبضه المعقوف.

وحالما اقترب فاعل الخير المعروف له، تزايدَت صافراتُ أنفاس ستافي بيت وارتعَد مثل كلب بَج بدين حينما ينبح في وجهه — في أثناء سيره مع صاحبته — أحد كلاب الشوارع. ودَّ ستافي لو يطير من مكانه في تلك اللحظة، لكن كل براعة رواد الطيران، مثل سانتوس دومون، لا يمكنها أن تُزحزحه عن مقعده. الآن بعد أن قام أتباع السيدتَين العجوزتَين بأداء مهمتهم.

قال السيد العجوز: «صباح الخير. أنا سعيد أن تقلبات الدهر في العام الماضي لم تنَل من عافيتك وتقبُّلك لهذا العالم البديع. ومن أجل هذه النعمة وحدها ذاع صيتُ يوم عيد الشكر بيننا. وإذا أتيتَ معي يا صديقي، فسوف أقدم لك عشاءً فاخرًا من شأنه أن يجعل جسدك ممتنًّا مثل عقلك.»

هذه هي الكلمات نفسها التي يقولها السيد العجوز في كل عام. كل عيد شكر على مدى تسع سنوات. حتى صارت الكلمات نفسها تقريبًا تقليدًا. ليس هنالك من كلمات يمكن أن تُقارن بها إلا «إعلان الاستقلال». فيما مضى، كان لتلك الكلمات دائمًا وقع الموسيقى

على مسامع ستافي. أما الآن، فألقى نظرة مشحونة مليئة بدموع المعاناة على وجه السيد العجوز. نُدَف الثلج الرقيقة بدت وكأنها تتحول بسرعة إلى ماء عند سقوطها على جبهة ستافي المتعرقة. في حين ارتجف السيد العجوز قليلًا من البرد وأدار ظهره للريح.

لطالما تعجَّب ستافي من أن السيد العجوز ظل يردد خطبته المعتادة بنبرة حزينة بعض الشيء. ولم يكن يعلم أن السبب في ذلك هو أنه كان يتمنى لو حظي بابنٍ يخلُفه. ابن يواظب على المجيء إلى هنا بعد أن يفارق الحياة، خليفة يقف فخورًا وقويًّا أمام ستافي آخر ويقول: «تكريمًا لذكرى والدي». فقط حينها سيصير ذلك تقليدًا متوارثًا.

إلا أن الرجل الفاضل العجوز ليس له أي أقارب. لقد كان يعيش في إحدى تلك الغرف المستأجَرة بواحدة من تلك المنازل القديمة المتهالكة المصنوعة من الحجر البني، في شارعٍ هادئ شرق الميدان. في الشتاء كان يزرع زهور الفوشية في مستنبتٍ صغير بحجم صندوق سفَر كبير. أما في الربيع، فقد اعتاد السير في موكب الاحتفال بعيد الفصح. وعند حلول الصيف، كان يذهب ليقطن في منزلٍ ريفي على تلال نيوجيرسي، ويستمتع بالجلوس على كرسي بمسندَين من الخيزران، والحديث عن نوع من الفراشات، اسمه العلمي أورنيثوبتيرا أمفريسيس، والذي يأمل في أن يحصل عليه يومًا ما. وفي الخريف، كان يخرج في مهمة إطعام ستافي. هكذا سارت حياة السيد العجوز.

نظر ستافي بيت إلى الرجل نصف دقيقة، وهو غارقٌ في قلقه وقلة حيلته إزاء إشفاقه على نفسه. في المقابل، كانت عينا السيد العجوز ساطعتَين بلذة العطاء. كانت تجاعيد وجهه تزداد كل سنة، لكن ربطة عنقه السوداء الصغيرة ظلت على تقوُّسها الأنيق مهما مرَّت السنوات، وحافظ نسيج ملابسه على نضارته ونصاعته، وكان شاربه الرمادي اللون مبرومًا بعناية عند طرفَيه. بعدها أصدر ستافي بيت صوتًا يشبه غليان البازلاء في إناء الطهي. كان يحاول الحديث، ولَّما كان السيد العجوز معتادًا على سماعه لهذا الصوت تسع مراتٍ من قبلُ، اعتبره بمنزلة إشارة ستافي القديمة على الموافقة.

«شكرًا لك يا سيدي. سوف أذهب معك بكل سرور. أنا جائع للغاية يا سيدي.»

لم يمنع شعور ستافي بالتخمة من أن يعتقد بأنه أساس تقليد لا يجب كسره. فشهيته للطعام بيوم عيد الشكر ليست ملكًا له وحده؛ بل ملكٌ وفقًا للحقوق المقدسة للتقليد، إن لم يكن بحكم القانون، لذلك السيد العجوز الطيب. إنها لحقيقة أن أمريكا بلدٌ حر؛ لكن من أجل أن نؤسِّس لتقليدٍ ما، يجب على أحدنا أن يتحول لحلقةٍ مكررة، جزء عشري متكرر. ليس كل الأبطال مصنوعين من الذهب والفولاذ. فها هنا بطل يحمل أسلحةً مصنوعة من الحديد والصفيح ومطلية على نحو سيئ بالفضة.

اصطحب السيد العجوز صديقه السنوي جنوبًا إلى المطعم، وجلسا على المنضدة التي طالما شهدَت وجبة ستافي الدسمة. وفي الحال تعرَّف موظفو المطعم عليهما.

فقال نادل: «ها هو الرجل العجوز، الذي يشتري لهذا الصعلوك نفسه وجبة في كل عيد شكر.»

جلس السيد العجوز على المنضدة يشع منه بريق وكأنه لؤلؤةٌ متوهجة وهو ينظر إلى أساس التقليد الذي سيُثنَى عليه في المستقبل. تكدَّس سطح المنضدة بطعام العيد، فتنهد ستافي تنهيدةً أخطأها السيد العجوز على أنها تعبير عن الجوع، ثم رفع السكين والشوكة وهو ينتظر تاجًا من الفخر الدائم.

أظهر ستافي بسالةً منقطعة النظير في اختراقه حصون العدو. اختفت شرائح الديك الرومي وشرائح اللحم والفطائر وأنواع الحساء المختلفة والخضراوات بمجرد تقديمها. كان متخمًا عن آخره حينما دخل المطعم، وكادت رائحة الطعام أن تُفقده شرفه كرجلٍ فاضل، إلا أنه استعاد قواه كفارسٍ مغوار. إذ رأى أمامه نظرة السعادة الخيِّرة على وجه السيد العجوز — نظرة أسعد من كل ما قدَّمَته له زهور الفوشية والفراشة النادرة من قبلُ — ولم يُرِد ستافي أن يشهد خفوت تلك النظرة.

وبعد ساعة، أرجع ستافي ظهره للوراء معلنًا عن انتصاره في المعركة. ثم قال لاهثًا كما لو كان فمه أنبوب بخار به تسريب: «لك جزيل الشكر يا سيدي، أشكرك بشدة على تلك الوجبة الرائعة.» ثم نهض بتثاقل وعينَين جامدتَين، وسار مخطئًا تجاه المطبخ. فاستوقفه النادل على الفور ووجهه إلى باب الخروج. عدَّ السيد العجوز بحرص حوالي ١,٣٠ دولار من العملات الفضية كحساب للوجبة، وترك للنادل ثلاث عملات نيكل كإكرامية.

افترقا عند باب المطعم كما فعلا في السنوات التسع السابقة؛ حيث توجَّه السيد العجوز جنوبًا، وستافي شمالًا.

عندما وصل ستافي إلى أول زاوية في الشارع، التفَت وتوقَّف لدقيقة. ثم بدا وكأنه ينتفخ في ملابسه المقطَّعة كما تنفش البومة ريشها، ثم سقط على الرصيف كحصان أصابته ضربة شمس.

حينما وصلَت سيارة الإسعاف، تأفف الطبيب الشاب والسائق من مدى ثقل وزن ستافي. لم يكن هناك رائحة ويسكي تسوِّغ نقله إلى عربة الشرطة؛ لذا نُقل ستافي إلى المستشفى هو ووجبتا الطعام اللتان تناولَهما. وهناك وُضِع على سرير، وبدأ الأطباء يُجرون فحوصاتٍ للكشف عن مدى إصابته بأي أمراضٍ غريبة، آملين أن يعثروا على مشكلة تتحدى مهاراتهم الطبية.

وبعدها بساعة، نقلَت سيارة إسعاف أخرى السيد العجوز إلى المستشفى. ووضعوه على سريرٍ آخر، واعتقدوا أنه يعاني من التهاب الزائدة الدودية؛ إذ بدا كحالة يمكن أن تدفع فاتورةً كبيرة.

إلا أنه بعد وهلةٍ قصيرة، قابل أحد الأطباء الشباب إحدى الممرضات الشابات التي كان يعشق النظر في عينَيها، فتوقف ليتحدث معها عن المريضَين.

قال: «هذا السيد العجوز الأنيق الراقد هناك، من الصعب تصديقُ أنه كاد يموت جوعًا. أظن أنه من أسرة عريقة قديمة. لقد أخبَرني بأنه لم يأكل شيئًا منذ ثلاثة أيام.»

البندول

صاح الراعي المرتدي زيًّا أزرق: «لقد وصلنا إلى شارع ٨١، رجاءً أسرِعوا في النزول.»

نزل قطيعٌ من البشر وركب قطيعٌ آخر. دينج-دينج! استأنفَت عربات الماشية الخاصة بقطار مانهاتن المعلَّق سيرها، وأخذ جون بركينز يهبط على سلم المحطة مع القطيع النازل.

سار جون ببطء في طريقه إلى شقته. وحينما نقول ببطء؛ فذلك لأن قاموس حياته اليومية لا يحتوي على كلمة «ربما». إذ لا مجال للمفاجآت في حياة شخصٍ قد تزوج منذ عامَين ويعيش بشقة. وبينما كان جون يمشي، كان يتحدث إلى نفسه، بسخرية كئيبة ومغلوبة على أمرها، عن التفاصيل الرتيبة لبقية يومه.

ستستقبله كاتي عند باب الشقة بقُبلة تفوح منها رائحة القشدة الباردة وحلوى السكر والزبدة. سيخلع بعد ذلك مِعْطفه، ويجلس في غرفة الجلوس المهترئة أرضيتُها ليبدأ في قراءة صحيفة المساء، التي تضُم أرقامًا مبالغًا فيها عن عدد القتلى بين الروس واليابانيين في الحرب. وفي العشاء، ستُحضِّر له كاتي بعضَ اللحم البقري المطبوخ في ماءٍ قليل بعد قليه في السمن، والسلطة ذات التتبيلة التي لا تجرح أو تضر الجلد، وعشب الراوند المطهُو على نارٍ هادئة، مع زجاجة من مُربَّى الفراولة التي ستتوارى خجلًا إن رأت الشهادة الملصَقة عليها بخلُوها من أي إضافاتٍ كيميائية. ثم ستُريه كاتي الرقعة القماشية الجديدة في لحافها العجيب، والتي اقتطَعها لها بائع الثلج من ربطة عنقه. وفي تمام الساعة السابعة والنصف، سيفردان أوراق الصحف على أثاث المنزل، حتى تلتقط الأجزاء المتناثرة من الجص المتساقط من سقف الشقة، حينما يبدأ جارهما البدين الساكن في الشقة التي تعلوهما في أداء طقوس تمارينه البدنية. وعند الثامنة مساءً بالضبط، هيكي وموني اللذان كانا يؤديان مسرحياتٍ هزليةً موسيقية والآن باتا عاطلَين عن العمل، ويسكنان في الشقة المواجهة لشقتهما في الرواق، سوف يستسلمان لتأثير هذَيان الإقلاع عن الشراب، وينتهي

بهما المطاف بقلب كراسي شقتهما واهمَين بأن الموسيقي الكبير هامرستاين يسعى خلفهما كي يتعاقد معهما بعقد يبلغ ٥٠٠ دولار أسبوعيًّا. بعدها يحين موعد إخراج الرجل الذي نافذة شقته في الجهة المقابلة من المنور للناي الخاص به والعزف عليه، ثم يحدث التسرب الغازي الليلي المعتاد في المبنى، ثم يخرج مِصْعد الطعام عن مساره، وبعدها مباشرةً يسعى بواب المبنى للسيطرة على أطفال السيدة زانويتسكي الخمسة محدثًا جلبة كبيرة، وفي تلك الأثناء تنزل سيدة إلى رَدهة العمارة في الأسفل مرتدية حذاءها ذي اللون الرمادي المصفَر ومعها كلبها السكاي تيرير، ثم تلصق اسمها الجديد الخاص بيوم الخميس على جرس شقتها وصندوق بريدها، وهكذا سينطلق الروتين المسائي في شقق فروجمور.

كان جون بركينز متيقنًا تمام اليقين من حدوث كل ذلك. كما علم أنه في الساعة الثامنة والنصف سيستجمع شجاعته وينهض ليرتدي قبَّعته متجهزًا للخروج، وأن زوجته ستبدأ في إلقاء خطبتها بنبرة معاتبة:

«والآن إلى أين أنت ذاهب، أودُّ أن أعلم يا جون بركينز؟»

سيجيب عليها: «أفكر في الذهاب إلى نادي ماكلوزكي للعب دور بلياردو أو اثنَين مع الأصدقاء.»

أخيرًا، كانت تلك هي عادة جون بركينز. كان يعود إلى شقته قرابة الساعة العاشرة أو الحادية عشرة. أحيانًا تكون كاتي نائمة؛ وأحيانًا تجلس في انتظاره متأهبة لأن تصهر في بوتقة غضبها المزيد من الطلاء الذهبي لسلاسل الزواج التي من الفولاذ المطاوع. ولأجل تلك الأمور، سيُحاسب كيوبيد أمام محكمة العدالة على كل ضحاياه من شقق فروجمور.

لكن الليلة صادف جون بركينز تغيرًا غير مسبوق في المسار المعتاد حينما دخل شقته. لم تكن كاتي موجودةً لتستقبله بقُبلتها الحنونة والعذبة. وعجَّت الغُرف الثلاثة للشقة بفوضَى عارمة. فقد كانت أشياؤها مترامية في الأرجاء في فوضَى شديدة. الأحذية ملقاة في منتصف الأرضية، وملاقط الشعر وربطاته والأردية النسائية المنزلية الفضفاضة وعلبة مسحوق الوجه، جميعها كانت مختلطة معًا على التسريحة وعلى الكراسي — وهذه لم تكن قَط طريقة كاتي في تنظيم الأشياء. شعر جون بالذعر عندما وجد مشطًا ملفوفًا حول أسنانه كومةٌ من شعر كاتي ذي اللون البني. لا بد أن اضطرابًا وتعجلًا غير معتادَين قد استحوذا عليها؛ إذ اعتادت دائمًا أن تضع هذه الشعيرات بعنايةٍ شديدة داخل المزهرية الزرقاء الصغيرة الواقعة على رف الموقد؛ آملةً أن تصبح يومًا ما الربطة الأنثوية المثالية لعمل تسريحات جذابة.

كانت هنالك ورقةٌ مطوية ومعلقة بشكلٍ بارز على واجهة موقد الغاز. أمسكها جون. كانت رسالة من زوجته نصها كالآتي:

«عزيزي جون، لقد تلقَّيتُ برقية تفيد بأن والدتي مريضة للغاية. سوف أستقل قطار الساعة الرابعة والنصف. وسوف يستقبلني أخي سام على المحطة هناك. تُوجد قطعة لحم ضأن باردة داخل الصندوق الثلجي. أتمنى ألا يكون التهاب اللوزتَين المتقيح هو ما أصابها مجددًا. ادفع لبائع الحليب ٥٠ سنتًا. لقد عانت الأمرَّين من ذلك الالتهاب في فصل الربيع الماضي. لا تنسَ أن تخاطب الشركة كي تركِّب لنا عداد الغاز، وجواربك النظيفة موضوعة في الدرج العلوي. سوف أكتب إليك غدًا.

لقد كتبتُ هذا وأنا متعجلة للغاية،
كاتي.»

كانت تلك هي الليلة الأولى التي ينفصلان فيها بعضهما عن بعض طوال فترة زواجهما التي امتدَّت لعامَين. ظهرَت معالم الدهشة على وجه جون وهو يُعيد قراءة الرسالة مرارًا وتكرارًا. لقد حدث كسرٌ في الروتين الذي لم يتغير قَط من قبلُ، وهو ما أصابه بالذهول.

كان مئزرها الأحمر المنقَّط بالأسود، والذي اعتادت أن ترتديه عند تحضيرها للوجبات، معلقًا على ظهر كرسي، ساكنًا تُثير رؤيته الشفقة. وملابسها المنزلية كانت ملقاةً هنا وهناك في خِضَم تعجُّلها. وكان يُوجد كيسٌ ورقي صغير من حلوى السكر والزبد المفضَّلة لها ما زال مربوطًا. وكانت هنالك جريدةٌ مبسوطة على الأرض، وفي منتصفها جزءٌ مستطيل مقطوع منها خاص بجدول توقيت القطارات. كل شيء في الغرفة كان يشير إلى الفقد، إلى ضياع شيءٍ أساسي، كما لو كان قد نُزع من المكان روحه وحياته. وقف جون بركينز بين هذه الأطلال وقد حُفر في قلبه شعورٌ غريب بالغربة.

بدأ يرتب تلك الفوضى الموجودة في الغرف قدْر إمكانه. إلا أنه بينما لامسَت أصابعه ملابسها، أصابه بعض الذعر. لم تخطر على باله قَط احتمالية وجود حياة من دون كاتي. لقد تغلغلَت بقوة داخل حياته حتى صارت مثل الهواء الذي يستنشقه؛ وجوده ضروريٌّ لكن بالكاد يمكنك أن تلاحظه. والآن وبلا سابق إنذار، رحلَت، تلاشت، غابت تمامًا كما لو لم تحضُر إلى الحياة من الأساس. بالطبع لن يستغرق الأمر سوى بضعة أيام، أو على الأكثر أسبوع أو اثنَين، لكن بدا له وكأن يد الموت قد ألقت بظلالها على منزله الآمن الهادئ.

أخرج جون قطعة لحم الضأن الباردة من الصندوق الثلجي، وحضَّر لنفسه كوبًا من القهوة وجلس ليأكل وحيدًا وأمامه زجاجة المربى وملصقها العديم الحياء الذي يتحدث عن نقائها. في تلك اللحظة، ظهر له جليًّا من بين النعم المفقودة، أشباح أطباق اللحم البقري والسلطة ذات التتبيلة البديعة. لقد انهار منزله. إن حماته صاحبة اللوزتين الملتهبتَين المتقيحتَين قد أطاحت بالإلهة الحارسة للمنزل بعيدًا. وبعد تناول وجبته الوحيدة، جلس جون عند نافذةٍ أمامية.

لم يرغب في التدخين. بالخارج، كانت المدينة تنادى عليه وتدعوه كي يُهرعَ لينضم إلى ماراثونها الذي يعجُّ بالحماقة والمتعة. كانت تلك الليلة هي ليلته يفعل فيها ما يريد. بإمكانه الآن الخروج بلا استجواب من أحد والعزف على أوتار البهجة حرًّا طليقًا كأي أعزب. يمكنه أن يسرف في الشرب ويتسكَّع ويستمتع بحياته حتى وقت الفجر إذا أراد؛ ولن تجلس في انتظاره كاتي الغاضبة، التي تقف كعقبة في طريق بهجته. إذا ابتغى الآن، يمكنه لعب البلياردو في نادي ماكلوزكي مع أصدقائه الصاخبين حتى يطغى ضوء الفجر على أضواء المصابيح الكهربائية. لقد انحلت قيود الزواج التي طالما لجمَتْه. لقد رحلَت كاتي.

لم يعتَدْ جون بركينز تحليلَ مشاعره. لكنه بينما كان جالسًا في صالة المنزل الكبيرة التي لا تُوجد بها كاتي، وضع يده، على نحوٍ قاطع، على منبع انزعاجه. لقد أدرك الآن أن كاتي حجر أساس من أجل سعادته. فمشاعره تجاهها، التي تهدهدَت إلى أعماق لاوعيه من خلال الحياة اليومية المملة، أثارها بقوة عدم وجودها. ألَم ترسِّخ فينا الأمثال والمواعظ والقصص الخرافية — وغيرها من الوسائل التي لا تقل تنميقًا وصدقًا — فكرة أننا لا نُقدِّر أبدًا مدى طرب عذوبة تغريد العصفور إلا حينما يطير بعيدًا؟

قال جون بركينز متأملًا: «أنا أحمق، بلا شك، فيما يتعلق بالطريقة التي أعامل بها كاتي. أغادر كل ليلة إلى سهرات لعب البلياردو واللهو مع الشبان بدلًا من البقاء في المنزل معها. الفتاة المسكينة تمكث هنا بمفردها دون أن تجد من يُسليها، وأنا أتصرف بهذه الطريقة! يا لك من أحمق كبير يا جون بركينز! سأعوِّضها عن كل ما فات. سأُخرجها للتنزه وأدعها تحصل على بعض التسلية. وسأقطع علاقتي بصحبة ماكلوزكي منذ تلك اللحظة.»

نعم، ها هي المدينة تدعو جون بركينز كي يأتي ويرقص في أجواء الهزل الصاخبة. ففي نادي ماكلوزكي، يضرب الشباب الكُرات باستهتار داخل تجاويف طاولة البلياردو

كي يُمضوا الوقت حتى بدء لعبتهم المسائية. لكن ليست ثمَّة متعة أو ضربة عصا بلياردو يمكنها أن تُسرِّي عن الروح النادمة لبركينز المكلوم. الشيء الذي كان يملكه — ويعتبره شيئًا مسلمًا به ولا يقدرُه حقَّ قدْره — سُلب منه، ويريد استرجاعه. إنه، في ندمه وشعوره بالفقد والعزلة، يشبه الرجل الذي يُدعى آدم، والذي أخرجَتْه الملائكة من الجنة.

بجوار يد جون بركينز اليمنى كان يوجد كرسي. وعلى ظهر هذا الكرسي كان يوجد قميص كاتي الأزرق. كان لا يزال يحتفظ بشيء من ملامح جسدها في انبساطه على الكرسي. فقد كان يوجد في منتصف الأكمام تجاعيد فردية دقيقة أحدثَتها حركات ذراعَيها التي طالما كدَّت من أجل راحته وسعادته. وانبعثَت منه رائحةٌ رقيقة لكن محفزة من عطرها المستمَد من زهور الجريس. التقط جون القميص وحدق طويلًا وبجدية في ذاك الرداء غير المستجيب. لم تكن كاتي قَط غير مستجيبة. فجأة انسابت دموع ... نعم، دموع من عينَي جون بركينز. قال في نفسه إنها ما إن تعُد من غيبتها، حتى يحرص على تحوُّل دفة الأمور إلى النقيض. سيُكفِّر عن تجاهلها بتعويضها عما فاتها. إذ لا طعم للحياة من دونها!

انفتَح الباب. ودخلَت منه كاتي حاملةً حقيبة يد صغيرة. رمقَها جون بنظرة بلهاء.

قالت كاتي: «مرحبًا! أنا سعيدة أنني أخيرًا عُدتُ إلى المنزل. أمي لم تكن مريضة بشدة. انتظرني سام في المحطة وقال إنها مجرد وعكةٍ خفيفة، وتعافت بسرعة عقب إرسالهما للبرقية. لذا استقلَلْتُ القطار التالي العائد إلى هنا. أنا حقًّا أتشوق بشدة لاحتساء كوب من القهوة.»

لم يسمع أحد طقطقة وجلجلة عجلات التروس مع عودة حركة آلة الحياة، في الطابق الثالث الأمامي لشقق فروجمور، لتصدر طنينها المعتاد تمامًا كما كانت من قبلُ. لقد عاد شريط لمكانه، وصُلِّحَ زنبرك، وأُعيد ضبط التروس، فعادت العجلات لتدور في مدارها القديم.

نظر جون بركينز إلى الساعة. فوجدها صارت الثامنة والربع. فالتقط قبَّعته وهمَّ بالمغادرة.

فخاطبَتْه كاتي بنبرة معاتبة: «والآن إلى أين أنت ذاهب، أود أن أعلم يا جون بركينز؟»

فأجابها جون: «أفكر في الذهاب إلى نادي ماكلوزكي للعب دور بلياردو أو اثنَين مع الأصدقاء.»

المثلث الاجتماعي

حينما دقت الساعة السادسة، ترك إيكي سنيجلفريتس المكواة من يده. إن إيكي هو متدربٌ لدى خياط. هل ما زال هنالك متدربون عند خياطين هذه الأيام؟

على أي حال، كان إيكي يكدح طوال اليوم في عمله بين القص والسرج والكي والترقيع والغسل وسط رائحة البخار العطنة لمحل الخياطة. وعندما كان إيكي ينتهي من عمله، كان يتطلع إلى النجوم التي تتلألأ في سماء أحلامه.

كانت ليلة السبت، وأعطاه الخياط ١٢ دولارًا متسخة، حاسدًا إياه عليها. غسل إيكي وجهه ويدَيه بسرعة، ثم ارتدى معطفه وقبعته وياقته المتصلة بربطة عنق مهترئة ودبوس أبيض، وهمَّ بالمغادرة سعيًا وراء أهدافه.

بالنسبة إلينا جميعًا، ريثما ننتهي من عملنا اليومي، وجب علينا أن نقصد أهدافنا؛ سواء كانت حبًّا أو لعبة ورق أو طبق مأكولات بحرية شهيرًا أو ذاك الهدوء الخلاب بين أحضان الكتب العتيقة.

ها هو ذا إيكي يسير ببطء في الشارع أسفل صخب القطار المعلق، ووسط صفَّين من المحلات التجارية بروائحها الكريهة. كان إيكي شاحب الوجه، منحني الظهر، غير لافتٍ للنظر، بائس الهيئة، ومحكومًا عليه بالعيش للأبد بين براثن فقر الجسد والعقل، غير أنه، حينما يسير ممسكًا عصاه الرخيصة ومُطلقًا دخان سيجارته الكريه، تظن أن في صدره الضيق بذرة الطموح الاجتماعي.

قادته ساقاه إلى داخل مكان التسلية الشهير الذي يُسمى مقهى ماجينيس، وشهرته تنبع من أنه كان مقر لقاءات بيلي ماكماهن؛ الرجل الذي يراه إيكي أعظم وأروع رجل أنجبته هذه الأرض.

كان بيلي ماكماهن رئيس المنطقة. كان يخضع أمامه النمر مُروَّضًا، وتنسال من قبضة يده نِعَم السماء. عندما دخل إيكي المكان، كان ماكماهن حينها يقف، متوهجًا مُظفَّرًا تكتنفه هالةٌ من التبجيل، وسط حشد من رفقائه وناخبيه تصدر منه هتافات الفوز والنصر. يبدو أنه كانت هنالك انتخابات؛ وتحقَّق فوزٌ ساحق، وقد أصبحَت المدينة مرةً أخرى في قبضتهم.

سار إيكي بمحاذاة البار، وحدَّق، بأنفاسٍ متلهفة، نحو مثَله الأعلى.

بيلي ماكماهن، يا له من شخصٍ مذهل، بوجهه البشوش الناعم المبجل، وعينَيه الرماديتَين، اللتَين تنمَّان عن فطنة ودهاء عيون صقور الدجاج المراوغة؛ وخاتمه الماسي، وصوته الذي يشبه صوت البوق، وسحره وجاذبيته، وجيوبه المكتظة بالنقود، والأسلوب الذي ينادي به على صديق أو زميل؛ أوه، لكم كان أشبه بالملك وسط رجاله! كيف غطت هيبته على حضور رفقائه، برغم كونهم أشخاصًا مهمين وجادين، وذوي طلةٍ حسنة ومكانةٍ كبيرة وأيادٍ مدفونة بعمق في جيوب معاطفهم القصيرة! لكن بيلي، أوه، لا طائل من استخدام الكلمات لمحاولة وصف مدى الإجلال والعظمة الذي يُكِنه له إيكي سنيجلفريتس!

هيمنَت أجواء النصر على مقهى ماجينيس. وانكَب السقاة في معاطفهم البيضاء على فتح زجاجات الشراب وصب الكئوس. وتطاير في الهواء خليطٌ من أبخرة السيجار الكوبي الأصلي. وتعاقَب الأنصار وراغبو الوصل على مصافحة بيلي ماكماهن. وهنا تولَّدَت فجأةً داخل روح إيكي سنيجلفريتس المغرمة نزعةُ جرأةٍ متحمسة.

تقدَّم تجاه المساحة الصغيرة الخالية التي كان يتحرك بها بيلي المبجَّل، ثم رفع يده لمصافحته.

فأمسَك بيلي ماكماهن بيده بلا تردُّد، وصافحَه بابتسامة.

أشعلَت الآلهة جنونه قبل أن يوشكوا على تدميره، فألقى إيكي غمده، وتوجَّه بعزم ناحية جبل أوليمبوس.

قال بطريقةٍ حميمية: «أتسمح أن تشرب معي كأسًا، يا بيلي، أنت وأصدقاؤك؟»

فردَّ عليه الزعيم الكبير: «لا أمانع ذلك يا صديقي، فقط لنبقي الحفلة مستمرة.»

طارت آخر ذرة عقل في مخ إيكي.

نادى على الساقي مشيرًا له بيدٍ مرتجفة قائلًا: «الخمر.»

فتح الساقي سِدادات ثلاث زجاجات، وتدفقَت الشامبانيا في الصف الطويل من الكئوس الموجودة على منضدة البار. رفع بيلي كأسه وأومأ برأسه بابتسامةٍ ساحرة إلى

إيكي. فعل رفقاؤه وجلساؤه المثل وهتفوا: «في صحتك.» فتناول إيكي رحيقه الإلهي كأنه في حُلم. وشربه لآخره.

طرح إيكي لفافة من النقود المطوية تعادل أجر أسبوع من عمله على منضدة البار.

فقال الساقي وهو يفرد الدولارات الاثنَي عشر: «تمام.» تزاحم الحشد حول بيلي ماكماهن من جديد. كان شخصٌ يتحدث عن هزيمة برانيجان لخصومه في المنطقة الانتخابية الحادية عشرة. مالَ إيكي على حافة البار لبعض الوقت ثم انصرف.

سار عبْر شارع هيستر ثم شارع كريستي إلى أن وصل إلى شارع ديلانسي حيث يسكن. هناك هبَّت عشيرته من النساء التي تسكن معه — والدةٌ مدمنة للخمر وثلاثُ أخواتٍ قذرات — للحصول على أجره. وعندما اعترف بما فعله بالمال، صِحن فيه ووبخنه بقوة على طريقتهن المحلية الشنعاء.

وبرغم كل ما تلقاه منهن من ضرب وتوبيخ، ظلَّ إيكي هائمًا في حالة نشوة البهجة التي كانت تغمره. كان عقله شاردًا؛ وكأنه النجم كان يطوف بعربته في السماء. وإذا ما قورن ما حقَّقه مع خسارته لأجره والنهيق المتصاعد من ألسنة عائلته من النساء، بدا ذلك ثمنًا بخسًا.

لقد صافح الفتى بيلي ماكماهن.

كان بيلي ماكماهن متزوجًا، وعلى بطاقات الزيارة الخاصة بزوجته حُفر الاسم «السيدة ويليام دارا ماكماهن». غير أنه كانت هناك مشكلة بشأن تلك البطاقات؛ إذ، وبرغم صغر حجمها، كانت توجد منازل لا تقبلها. كان بيلي ماكماهن ديكتاتورًا في عالم السياسة، وقطبًا كبيرًا في عالم الأعمال، وشخصيةً عظيمة تحظى بالمهابة والحب والطاعة بين عشيرتها. كان يزداد ثراءً يومًا بعد يوم، والجرائد اليومية تحفل بالصحفيين المخصَّصين لتتبُّع وتدوين كل كلمة ينطق بها، وكذا جرى تكريمه من خلال رسم كاريكاتوري له وهو يخضع نمرًا (الذي هو رمز للآلة السياسية للحزب الديمقراطي الأمريكي).

ومع هذا حمل قلب بيلي غصة بعض الأحيان. إذ يُوجد فئة من القوم أبعد من نطاقه ظل ينظر إليهم بعين موسى، الذي طالما تأمل الأرض الموعودة بنظره ووجدانه. بيلي هو الآخر لديه أشخاص بمنزلة مُثل عليا، مثلما هو الحال مع إيكي سنيجلفريتس، وأحيانًا كان يشعر بفقدان الأمل في الوصول إليهم، فيرى نجاحه الباهر مثل التراب والرماد. وكذلك غيَّمَت نظرة استياء على الوجه الممتلئ، لكن الجميل، للسيدة ويليام دارا ماكماهن، وبدت خشخشة ثيابها الحريرية كتنهيدة تكشف عن ذلك الانزعاج.

كان هنالك تجمعٌ مهيب وذائع الصيت في صالة العشاء داخل فندقٍ مشهور؛ حيث تجد الموضة فرصتها السانحة لعرض سحرها على الناس. جلس على إحدى الطاولات بيلي ماكماهن وزوجته. وخيَّم عليهما الصمت أغلب الوقت، على أن زينتهما المتألقة كانت أبلغ من أن تحتاج لحديثٍ يلقي بالضوء عليها. فلم يطغَ على جمال ماسات السيدة ماكماهن سوى القليل في المكان. وأحضر النادل أغلى أنواع الخمور إلى طاولتهما. وبيلي، في بذلته المسائية، وبتعبير الكآبة المرتسم على ملامحه الضخمة والمتناسقة، لن تجد شخصيةً أكثر جاذبيةً منه في المكان.

جلس على بعد أربع طاولات من طاولتهما رجلٌ نحيل وطويل، في الثلاثين من عمره تقريبًا، تشع من عينَيه الكآبة والرصانة، ويمتلك لحيةً تشبه لحية الرسام فان دايك، ويدَين نحيلتَين ناصعتَي البياض على نحوٍ فريد. اشتمل عَشَاؤه على شريحة لحم بقري من الخاصرة، والخبز المحمَّص، والمياه المعدنية. كان ذلك الرجل هو كورتلاند فان دوكينك، رجل فاحش الثراء تُقدَّر ثروته بنحو ٨٠ مليون دولار، وهو الذي ورث واحتفظ بمقعدٍ ثابت في الطبقة العليا من المجتمع، المقصورة على عددٍ قليل من الناس.

لم ينبس بيلي ماكماهن بكلمةٍ واحدة مع غيره من الحضور؛ لأنه لم يكن على معرفة بأيٍّ منهم. بينما أبقى فان دوكينك عينَيه على طبقه؛ لأنه يدرك أن جميع الحاضرين كانوا متعطشين للتواصل معه. فهو قادر بإيماءة بسيطة من رأسه أن يمنح هذا أو ذاك شرف لقب فارس أو يغدق عليه بالنفوذ، لكنه كان حذرًا في إسداء الآخرين مثل ذلك الصنيع الجليل.

وفجأة تصور بيلي وأقدم على أكثر فعلٍ مدهش وجسور في حياته. قام من مقعده متعمدًا وسار إلى أن وصل لطاولة كورتلاند فان دوكينك ومد يده ليصافحه.

قال: «مرحبًا، يا سيد فان دوكينك، لقد سمعتُ أنك تفكر في إجراء بعض الإصلاحات بين المواطنين الفقراء الساكنين بمنطقتي. أنا ماكماهن، كما تعرف. والآن، إذا كان ذلك صحيحًا فأنا على استعداد لتقديم كل المساعدة الممكنة. كما أن كلمتي مسموعة في تلك المنطقة، أليس كذلك؟ أوه، أو لنقُل، هذا ما أظنه.»

تبدَّل الظلام والكآبة في عينَي فان دوكينك إلى ضياءٍ لامع. فوقف وبدت قامتُه الطويلة وصافح بيلي ماكماهن.

وقال بنبرة عميقة وجادة: «شكرًا لك يا سيد ماكماهن. لقد كنتُ أفكر بالفعل في القيام ببعض الأمور من هذا القبيل. ويسعدني عرضك للمساعدة. ويسرُّني التعرف إليك.»

عاد بيلي إلى مقعده. وشعَر بوخزٍ في كتفه من الإجلال الممنوح له من هذا الرجل النبيل. والتفتَت إليه الآن أعين مئات الحاضرين في حقد وإعجاب. وارتجفَت السيدة ويليام دارا ماكماهن من شدة السعادة، إلى حد أن ماساتها ارتطمَت بعينها مسببةً لها بعض الألم. وبالطبع بدا الآن أن الكثير من الحاضرين فجأةً تذكَّروا أنهم يعرفون السيد ماكماهن. فأخذ يتلقى الابتسامات والتحيات من هنا وهناك. وشعَر بأنه محاطٌ بهالة من العظمة المسكِرة. وعندئذٍ تخلَّت عنه رزانته أثناء حملته الانتخابية.

أمر بيلي النادل مشيرًا بإصبعه: «أحضِر نبيذًا لتلك المجموعة! ونبيذًا هناك. ونبيذًا إلى الموقرين الثلاثة الجالسين عند تلك الشجيرة الخضراء. وأخبرهم أنه هديةٌ مني. فلتفعل الآن! اجلِب نبيذًا للجميع!»

تجرأ النادل ليخبر بيلي أنه ربما ليس من الملائم تنفيذ هذا الأمر بالنظر لمنزلة المكان وتقاليده.

فقال بيلي: «حسنًا، إذا كان ذلك مخالفًا لقواعد المكان. أتساءل هل من الممكن إرسال زجاجة لصديقي فان دوكينك؟ لا؟ حسنًا، سأنفِّذ هذا في المقهى هذه الليلة. سيصبح الشراب متاحًا لأي شخص يأتي إلى هناك في أي وقت، حتى الساعة الثانية صباحًا.»

كان بيلي ماكماهن سعيدًا.

لقد صافح كورتلاند فان دوكينك.

بدت السيارة الكبيرة ذات اللون الرمادي الفاتح بإطارها المعدني اللامع في غير مكانها، وهي تسير ببطء وسط العربات المدفوعة باليد وأكوام النفايات في المنطقة الشرقية الفقيرة. وكذلك بدا السيد فان دوكينك بوجهه الأرستقراطي ويدَيه النحيلتَين الناصعتَي البياض، وهو يقود سيارته بحذر بين الشباب المهرول ذوي الملابس الرثة في الشوارع. والحال نفسه انطبق على الآنسة كونستانس سكايلار، بجمالها المعتم المتقشف، الجالسة بجواره داخل السيارة.

قالت بصوت خفيض: «أوه، يا دوكينك، أليس من المحزن أن البشر عليهم أن يعيشوا في مثل تلك الظروف القاسية من البؤس والفقر؟ وأنت ... كم هو نبيلٌ منك أن تفكر في مساعدتهم، أن تُخصص من وقتك ومالك لكي تُحسن من أحوالهم!»

فنظر فان دوكينك بعينَيه المهيبتَين ناحيتها.

ثم قال بحزن: «إن ما أفعله ما هو إلا شيءٌ قليل. إن المشكلة كبيرة، وحلها في يد المجتمع بأكمله. لكن حتى المجهود الفردي لن يذهب سُدًى. انظري يا كونستانس! لقد

أمرتُ ببناء مطابخ للفقراء في هذا الشارع؛ حيث لن يخيب رجاء أي جائع يلجأ إليها. وفي نهاية هذا الشارع الآخر، ستجدين تلك المباني القديمة التي سأتقدم بطلب لهدمها، وإعادة تشييد غيرها، بدلًا من مصائد الموت هذه المليئة بالأمراض، والمعرَّضة لخطر الحريق في أي وقت.»

تسلَّلَت السيارة ذات اللون الرمادي الفاتح ببطء داخل شارع ديلانسي. وعلى مسافةٍ كبيرة منها كانت تسير مجموعات من الأطفال السذَّج ذوي الشعور المتجعدة والأقدام الحافية والأجساد المتسخة. ثم توقفَت السيارة أمام منزل حجري عجيب وقذر ومائل الجدران.

ترجَّل فان دوكينك من السيارة ليفحص على نحوٍ أفضل أحد جدران المنزل المائلة. أطل هابطًا من فوق سلالم ذلك المنزل شابٌّ صغير بدا كتجسيد لتردِّي وبؤس وتعاسة ذلك المبنى؛ شابٌّ شاحب الوجه، وضيق المنكبَين، وكريه الرائحة، يدخن سيجارة.

استجاب فان دوكينك لرغبةٍ داخلية مفاجئة، وتقدم إلى الأمام، وأمسك بقوة وحرارة بيد الشاب الذي يتناقضُ بشكلٍ صارخ مع عالَمه المُترَف.

ثم قال بإخلاص: «أريد أن أتعرَّف إلى أشخاصٍ مثلكم. سوف أساعدكم قدْر استطاعتي. سوف نصبح أصدقاء.»

وبينما عاد فان دوكينك لسيارته واستأنف سيره بحذَر، شعَر بتوهُّج غير معتاد داخل قلبه. لقد اقترب من أن يكون شخصًا سعيدًا.

لقد صافح إيكي سنيجلفريتس.

روب السلام

تتابعت الألغاز في تلك المدينة الكبيرة الواحد تلو الآخر بلا فواصلَ زمنيةٍ كبيرة إلى حد أن جمهور القراء وكذلك أصدقاء جوني بيلتشامبرز لم يعُد يُدهشُهم اختفاؤه المفاجئ وغير المسوَّغ منذ حوالَي سنة. وبرغم أن معالم هذا اللغز تحديدًا قد اتضحَت الآن، فإن الحل كان غريبًا وصعب التصديق للغاية بالنسبة للرجل العادي؛ بحيث إن القلة المختارة فقط، التي كانت على صلةٍ وثيقة به، هي التي يمكنها أن تُصدقه بشكلٍ كامل.

كان جوني بيلتشامبرز، كما هو معروف، ينتمي إلى دائرة نخبة المجتمع الصغيرة المغلَقة. ورغم أنه لم يعبأ بكل مظاهر المباهاة لهؤلاء الذين يسعَون إلى جذب الانتباه من خلال الاستعراض المبالَغ فيه للثروة وحب الظهور، فقد كان لا يزال ملمًّا بشكلٍ كامل بكل ما يُضفي بريقًا مستحقًّا على مكانته الرفيعة في صفوف المجتمع.

كان، على وجه الخصوص، مهتمًّا بأناقته. وقد يئس الآخرون من محاولة تقليده في هذا الشأن. ونظرًا لأن اختياراته في الملبس لا تخطئ أبدًا، ودائمًا ما يظهر فاتنًا وشديد الأناقة، وخزانة ملابسه تحوي كل صيحات الملابس، فقد اعتبره الجميع الرجل الأكثر أناقة بمدينة نيويورك، وبالتالي في أمريكا كلها. في تلك المدينة، كان من دواعي سرور وفخر أي خياط أن يحظى بشرف صنع ملابس جوني، ولو من دون الحصول على أي مقابلٍ مادي. فارتداؤه لملابسه يُعَد إعلانًا له لا يُقدَّر بثمَن. وقد تعلَّق شغف جوني الأكبر بالبناطيل. لذا لم يرضَ بأي شيءٍ أقل من الكمال في اختيارها. ولم يكن ليتغاضى قَط عن ظهور كرمشة فيها بدرجة عدم رضائه نفسها عن وجود أي رقعة بها. وقد وظف رجلًا في منزله لتكون مهمته المواظبة بجدية على كَي ملابسه الكثيرة. يقول أصدقاؤه إن الحد الأقصى لارتداء جوني لملابسَ معيَّنة قبل أن يُبدلها هو ثلاثُ ساعات.

اختفى جوني اختفاءً مفاجئًا للغاية. لم يشعر أصدقاؤه بالذعر لغيابه في أول ثلاثة أيام، لكن بعد ذلك بدءوا في البحث والتقصي عنه بكل السبل المتعارف عليها. وقد فشلَت جميعها. إذ لم يترك خلفه أيَّ أثر. لذا بدأ البحث عن دافع وراء حدوث ذلك، لكن مجددًا لم يجدوا شيئًا مُقنِعًا. فهو لم يكن لديه أيُّ أعداء، ولم يترك خلفه أيَّ ديون، وليست هنالك امرأة في حياته. وقد وجدوا عدة آلاف من الدولارات في حسابه البنكي. وكذلك لم يُظهر أيَّ علامات على معاناته من أي اختلالٍ عقلي؛ بل في الحقيقة كان شخصًا ذا طابعٍ هادئ ومعتدل المزاج. استخدموا كل الوسائل الممكنة لتعقب ذلك الرجل المختفي لكن بلا فائدة. لقد كانت واحدة من تلك القضايا — التي تزايد عددها في السنوات الأخيرة — حيث يختفي الرجل تمامًا كما ينطفئ لهب الشمعة، من دون أن تترك حتى أيَّ دخان كشاهدٍ على اللهب.

بحلول شهر مايو، خرج توم إيريس ولانسيلت جيليام، وهما اثنان من الأصدقاء القدامى لجوني، في رحلة صغيرة إلى الجانب الآخر من الكوكب. وبينما كانا يتسكَّعان في الأرجاء في إيطاليا وسويسرا، تصادف أن سمعا، في أحد الأيام، عن دير في جبال الألب السويسرية، والذي يَعِد زواره بتجربة تتجاوز في إبهارها تجربة زيارة الأماكن السياحية الاعتيادية. لم يكن الولوج إلى هذا الدير بأمرٍ سهل المنال للزوار العاديين؛ لأنه يقع على نتوءٍ جبلي شديد الانحدار والوعورة. كانت وسائل الجذب الخاصة غير المعلَن عنها في الدير تتلخص أولًا في شرابٍ حصري وروحي يصنعه الرهبان بالدير، ويُقال إنه يتفوق في مذاقه تمامًا على شراب البينديكتين والشارتروز. ثانيًا، يحوي الدير جرسًا نحاسيًّا ضخمًا صُنع بدقة ونقاء مذهلَين؛ بحيث لم يتوقف عن الرنين منذ أول استخدام له قبل ٣٠٠ عام. وأخيرًا، زُعم أنه لم تطأ قدم رجلٍ إنجليزي قَط داخل جدران هذا الدير. فقرر إيريس وجيليام أن تلك الأمور الثلاثة تستدعي التحري منها.

استغرق وصولهما إلى دير سان جوندراو يومَين بمساعدة مرشدين. وجدا الدير على جُرفٍ شديد الانحدار متجمد تجتاحه الرياح، وتتراكم فوقه كتلٌ غير منتظمة وخطرة من الجليد شكَّلَتها الرياح. استقبلَهما الرهبان المنوط بهم استضافة الزوار الجدد بترحابٍ بالغ. تناولا ذلك المشروب الحصري، وكان مذاقه مميزًا ومنعشًا على نحوٍ نادر. واستمعا إلى الجرس الكبير ذي الرنين الأبدي، وعلما أنهما أول زائرَين، داخل تلك الجدران المبنية بالحجَر الرمادي، يحملان الجنسية الإنجليزية التي طافت وداست أقدامها في كل ركن تقريبًا من أركان الكرة الأرضية.

وعند الساعة الثالثة عصرًا، وقف الشابان اللذان هما من سكان نيويورك بجوار الراهب الصالح كريستوفر في الرَّدهة الشامخة الباردة للدير، لمشاهدة الرهبان وهم في

طريقهم إلى قاعة الطعام. كانوا يسيرون ببطء، اثنَين اثنَين، ورءوسهم منكَّسة إلى الأسفل، ويدوسون بأقدامهم على البلاط الحجَري الخشن بلا جلبة منتعلين صنادلهم. وبينما مرَّ الموكب أمامهم ببطء، فجأة جذب إيريس جيليام من ذراعه. ثم همس في أذنه بتلهُّف قائلًا: «انظر إلى ذلك الشخص المواجه لك الآن؛ الرجل الذي على ذلك الجانب، ذلك الذي يضع يده على وسطه؛ أقسم بحياتي إنه جوني بيلتشامبرز الذي نعرفه!»

رآه جيليام وتعرَّف في الحال على أيقونة الموضة المفقودة.

قال مندهشًا: «ماذا يفعل هنا صديقنا بيل بحق الجحيم؟! تومي، لا يمكن أن يكون هو! لم أسمع مطلقًا عن مَيْل بيل إلى التدين. بل، في الواقع، لقد سمعتُه وهو يقول أشياء عندما لم تُعقد ربطة عنقه على نحوٍ صحيح من شأنها أن تعرضه حتى للمحاكمة العسكرية، فضلًا عن المساءلة من أي كنيسة.»

فقال إيريس بتيقُّن: «إنه بيل بلا أدنى شك، وإلا فأنا أحتاج بشدة لزيارة طبيب عيون. لكن كيف لجوني بيلتشامبرز — المستشار الملكي الأعلى للثياب الأنيقة والزعيم الروحي لحفلات الشاي الرفيعة المستوى — أن يُوجَد هنا في هذا المخزن البارد ناشدًا التوبة في روب حمام ذي لونٍ بُني مصفَر داكن! عقلي غير قادر على استيعاب ذلك. دعنا نسأل هذا الراهب الكبير المرح الذي يلعب دور مضيفنا.»

توجَّها إلى الراهب كريستوفر من أجل بعض الإيضاح. عندئذٍ، كان الرهبان قد دخلوا بالفعل إلى قاعة الطعام. لذا لم يعرف بالتحديد إلى أي شخص يُشيران. قال: «بيلتشامبرز؟ أوه، لكن رهبان دير سان جوندراو قد تخلَّوا عن أسمائهم الدنيوية عندما ترهبنوا. هل ترغبان في التحدث إلى أحد الرهبان؟ إذا تفضَّلتُما بالدخول إلى قاعة الطعام وأشرتُما إلى الشخص الذي ترغبان في رؤيته، فسيسمح رئيس الدير الموقَّر، بلا شك، لكما بلقائه.»

دخل إيريس وجيليام إلى قاعة الطعام، وأشارا إلى الراهب كريستوفر إلى الرجل المنشودة رؤيته. نعم إنه جوني بيلتشامبرز. لقد رأيا وجهَه بوضوحٍ الآن، وهو يجلس وسط بقية الرهبان، لا يرفع نظره أبدًا، ويشرب الحساء من قصعةٍ بُنية قديمة.

حصل المسافران على إذن رئيس الدير بالتحدث إلى أحد الرهبان، وانتظرا حضوره في غرفة انتظار. وحالما أتى، سائرًا بتمهل في صندله، حدَّقَت أعين إيريس وجيليام به في نوبة من الحَيْرة والاندهاش. إنه جوني بيلتشامبرز، لكن طلَّته مختلفة. ارتسم على وجهه الحليق الأملس تعبيرٌ ينمُّ عن سلام داخلي يستعصي وصفه ورضًا منتشٍ عن النفس وسعادةٍ مثالية وكاملة. كانت هيئته منتصبة على نحوٍ فخور، وعيناه تلمعان بضوءٍ صافٍ وعطوف. لم

يخسر هندامه الذي اشتُهر به في أيامه بنيويورك، لكن يا له من اختلافٍ شاسع في الملابس بين الحقبتَين! الآن هو لا يرتدي سوى قطعة ملابسَ واحدة؛ روب طويل من القماش البني الخشن، مربوط بحبل في منطقة الوسط، وممتد على هيئة طيَّاتٍ فضفاضة ومستقيمة تقريبًا حتى قدمَيه. صافح زائريه بأسلوبه القديم المهذَّب غير المتكلف. وإذا كان ثمَّة شيءٌ محرج في تلك المقابلة فهو ليس مظهر جوني بيلتشامبرز. بل كون الغرفة لا تحوي أي مقاعد؛ لذا تحدَّثوا وهم واقفون.

افتتَح إيريس الحديث ببعض الارتباك قائلًا: «سعيدٌ لرؤيتك يا صديقي. لم أكن أتوقع أن أجدك هنا. لكنها ليست بالفكرة السيئة على أي حال. المجتمع كله زيف. لا بد أنك شعرتَ بالارتياح بقطع تلك الحلقة المفرغة الطائشة والتفرغ لـ... التأمل و... الصلاة والتراتيل ومثل تلك الأمور.»

فقاطَعه بيلتشامبرز بابتهاج: «توقف عن هذا يا تومي. لا تخف فلن أطلبَ منك تبرعاتٍ كما يفعل رجال الدين. أنا أقوم بهذه الأشياء مع بقية الرهبان فقط لمجرد أنها تمثل القواعد هنا. فأنا هنا الراهب أمبروز كما ترى. لقد منحوني فقط عشر دقائق للتحدث معكما. في الغالب هذا تصميمُ صدرية جديد ذلك الذي ترتديه يا جيليام، أليس كذلك؟ هل هذا ما يرتدونه الآن في برودواي؟»

فقال جيليام بسرور: «إذن ما زلت جوني القديم نفسه الذي نعرفه. ماذا بحق الجحيم ... أعني لماذا ... أوه لقد حيَّرنا أمرك ... لماذا أقدمتَ على فعل ذلك يا صديقي؟»

فقال له إيريس متوسلًا والدموع تكاد تنزل من عينَيه: «انزع عنك روب الحمام هذا، وعُد معنا. عشيرتك القديمة ستنفجر فرحًا عند رؤيتك. هذا ليس مكانك يا بيل. يمكنني أن أخبرك بأسماء نصف دُزينة من الفتيات دخلن، سرًّا، في حالة حداد عندما صُدمن برحيلك بتلك الطريقة المباغتة. فلتُقدم استقالتك أو تطلب منهم أن يُعفوك من هذا، أو أيًّا كان ما يجب أن تفعله لتتحرَّر من مصنع الثلج هذا! ستُعاني من نزلات البرد هنا، يا جوني و... يا إلهي، أنت حتى لا ترتدي جوربًا في قدمَيك!»

ألقى بيلتشامبرز نظرةً على قدمَيه داخل الصندل وابتسم.

ثم قال بنبرة هادئة: «أنتما يا رفيقيَّ لا تفهمان ما يحدث. إنه لمن اللطيف أن تحثَّاني على العودة معكما، لكنني لن أعود مجددًا إلى مسار حياتي القديمة. لقد بلغتُ هنا كل طموحاتي. أنا سعيد وراضٍ تمامًا. وسوف أمكث هنا ما تبقى من حياتي. أتريان ذلك الروب الذي أرتديه؟» ثم لمس بيلتشامبرز الرداء المنسدل بشكلٍ مستقيم وقال: «أخيرًا لقد عثرتُ على رداء لا يتدلى عند منطقة الركبة. لقد حقَّقتُ ...»

في تلك اللحظة قاطعهم تردُّد صدى الدوي العميق للجرس النحاسي في أرجاء الدار. لا بد أنها إشارة استدعاء إيماني عاجل؛ لأن الراهب أمبروز أحنى رأسه بعدها، ثم التفت وغادر الغرفة من دون أن ينطق بكلمةٍ أخرى. بدا تلويحه الواهن بيده في أثناء خروجه من الباب الحجري بمنزلة قوله وداعًا لصديقَيه القديمَين. وقد غادر الاثنان الدير ولم يتقابلا معه مرةً أخرى.

وكانت تلك هي القصة التي جلَبها تومي إيريس ولانسيلت جيليام معهما من رحلتهما الأوروبية الأخيرة.

«ماذا تريد»

حلَّ الليل على تلك المدينة العظيمة والساحرة المعروفة بـ «بغداد الجديدة» (نيويورك). ومع الليل أتى ذلك البريق الأخَّاذ الذي لا يقتصر على الجزيرة العربية وحدها. وفي طابعٍ مختلف، اكتظت الشوارع والمتاجر والمنازل لمدينة الرومانسية الغربية بنوعية البشر أنفسهم، الذين طالما أثاروا اهتمام صديقنا العزيز الرائع، الراحل السيد إتش الرشيد. كانوا يرتدون ملابس أحدث بكثير من تلك التي قد رآها السيد الرشيد في بغداد القديمة، لكن أسفل تلك الملابس كانوا هم الأشخاص أنفسهم. فإذا استخدمتَ خيالك، يمكن أن تجد الأحدب القصير، والسندباد البحري، وفيتباد الخياط، والفارسية الحسناء والأمراء العُور وعلي بابا والأربعين سارقًا، والحلاق وأشقاءه الستة، وكل تلك الشخصيات العربية، تتجول في كل ركن بسهولة.

لكن دعُونا نعُد إلى قصتنا.

كان توم كراولي العجوز خليفة عصره. كان يملك ٤٢ مليون دولار على هيئة سندات وأسهُم ممتازة بحوافٍ من الذهب الخالص. وفي هذه الأيام، لكي تُلقَّب بالخليفة، يجب أن تملكَ المال. فممارسة الخلافة على الطراز القديم كما مارسها السيد الرشيد ليست آمنة. فإذا استوقفتَ شخصًا في هذه الأيام في متجر أو حمَّام تركي أو شارع جانبي، وسألتَه عن شئونه الخاصة والشخصية، فستجد نفسك في قسم الشرطة.

إلا أن توم العجوز شعَر بالضجر من الأندية والمسارح وحفلات العشاء والأصدقاء والموسيقى والأموال وكل شيء. وهذا هو ما يجعلك خليفة؛ يجب أن تصل إلى الحد الذي تحتقر فيه كل تلك الأشياء التي يمكن للمال أن يشتريها، ثم تخرج وتحاول البحث عن شيء لا يمكنك أن تدفع من مالك لامتلاكه.

قال توم العجوز لنفسه: «سأخرج في جولة قصيرة حول المدينة بنفسي، وأحاول خوض تجربة جديدة. لقد قرأتُ عن ملك أو مسئول كبير أو شيءٍ كهذا في العصور القديمة اعتاد ارتداء لحية مزيفة، والخروج إلى الشوارع ليقابل أشخاصًا لا يعرفهم. لا تبدو تلك فكرةً سيئة. لقد أرهقَني وأضجَرني حقًّا التعامل مع الأشخاص الذين أعرفهم بالفعل. ذلك المسئول العجوز اعتاد أن يبحث عن الأشخاص الواقعين في أزمات ويعطيهم عملات من الذهب — سكوينات على ما أتذكر — ويُعينهم على الزواج أو الحصول على وظيفة حكومية. والآن يروق لي فعل شيء كهذا. أمتلك من المال بقدْر ما امتلكه هذا المسئول لدرجة أن الصحف والمجلات تسألني كل شهر من أين أتيت به. حسنًا، أظن أنني سوف أقوم ببعض المغامرات الفارسية الليلة، ولْنرَ كيف ستسير الأمور.»

غادر توم كراولي منزله الفخم بجادة ماديسون مرتديًا ثيابًا عادية، ثم سار غربًا وبعدها اتجه جنوبًا. وحالما صَعِد على رصيف المشاة، قرَّر القدَر، الذي يحمل بين قبضتَيه جميع أطراف الخيوط في المواقع الرئيسية لكل المدن الساحرة، أن يسحب خيطًا؛ لذا، وعلى بعد ٢٠ مربعًا سكنيًّا، نظر شاب إلى ساعة حائط ثم ارتدى معطفه.

كان جيمس تيرنر يعمل في واحدٍ من تلك المتاجر الصغيرة المتخصصة في مجال تنظيف القبَّعات، الواقعة بالجادة السادسة، التي يرن بها جرس إنذار الحرائق حين ينفتح الباب الأمامي، وحيث يستغرق تنظيفهم لقبعتك يومَين! كان جيمس يقف طوال اليوم على آلة كهربائية تدير بسرعة القبعات، على نحوٍ أسرع حتى من حركة فقاعات أفضل أنواع الشامبانيا. سأتجاهل فضولكم المحتمل لمعرفة الملامح الشخصية التفصيلية لذلك الغريب، وسأعطيكم وصفًا مختصرًا لها. الوزن، ١١٨؛ لون البشرة والشعر، فاتح؛ الطول، ١٧٠؛ السن، تقريبًا ٢٣؛ الملابس، بذلة ثمنها ١٠ دولارات مصنوعة من نسيجٍ صوفي أزرق مخضر؛ الجيوب، تحتوي على مفتاحَين و٦٣ سنتًا.

لكن لا تُخطئ التقدير لأن ذلك الوصف يبدو كتحذيرٍ عام من أن جيمس إما شخصٌ تائه وإما ميت.

لذا، دعُونا نواصل أحداث القصة!

قضى جيمس يومه كاملًا في العمل. كانت قدماه رقيقتَين ومعرَّضتَين بشدة للأعباء الثقيلة لوظيفته. حيث كان يشعر بحرقةٍ وألمٍ بهما طوال اليوم مما سبَّب له الكثير من المعاناة والألم. لكنه كان يكسب ١٢ دولارًا أسبوعيًّا، وهو ما يكفي لإعانة قدمَيه بغَض النظر عما إذا كانت قدماه ستعينانه حقًّا أم لا.

كان جيمس تيرنر يحمل مفهومًا مختلفًا عن كُنه السعادة، مثلما نملك أنا وأنت مفهومنا الخاص لها. قد تكمُن سعادتك في التجول حول العالم في اليخوت والسيارات الفارهة، وإلقاء العملات الذهبية على الطيور البرية. سعادتي قد تكمن في تدخين غليون في وقت الغَسَق ومشاهدة حيوانٍ غرير وأفعى جرسية وبومة في أثناء عودة كلٍّ منها إلى بيته في البراري.

أما فكرة جيمس تيرنر عن السعادة فبدت مختلفة؛ لكنها كانت خاصة به. كان يذهب مباشرة إلى النُّزُل الذي يسكن فيه عندما ينتهي من عمله. ثم يتناول عشاءه المكوَّن من شريحة لحم صغيرة وبعض البطاطس والتفاح غير المطبوخ ومنقوع الشيكوريا، ثم يصعد إلى غرفته الخلفية في الطابق الخامس. ويخلع حذاءه وجوربه، ويلصق باطنَي قدمَيه الملتهبَين في الأعمدة الباردة لسريره الحديدي، ثم يشرع في قراءة إحدى الروايات البحرية المسلية لكلارك راسل. كانت متعتُه المسائية هي ذلك الارتياح الهنيء الناجم عن تسرُّب برودة الحديد إلى باطنَي قدمَيه المتألمَين. ولم يملَّ قَط من إعادة قراءة رواياته المفضَّلة؛ كان شغفه الفكري الوحيد يتجلى في قصص البحر ومغامرات مستكشفيه. ولم يحظَ أيٌّ من أثرياء القوم بسعادةٍ مماثلة لتلك التي وجدَها جيمس تيرنر في لحظات استرخائه.

عندما غادر جيمس متجر تنظيف القبَّعات، تجاوز ثلاثة مربعاتٍ سكنية بعيدًا عن مسار رجوعه المعتاد إلى منزله، لكي يُلقي نظرة على الكتب الموجودة في كشك كتبٍ قديمة. لقد استطاع أكثر من مرة أن يقتنيَ من هناك كتابًا ذا غِلافٍ ورقي لكلارك راسل بنصف ثمنه.

وبينما كان منكبًّا بانحناءةٍ ثقافية على المنوَّعات الأدبية المهمَلة والرخيصة الثمَن، مرَّ الخليفة العجوز توم ببطء بجواره. وعلى الفور ميَّزَت عيناه الثاقبتان — اللتان أثقلَتهما عشرون عامًا من الخبرة في مجال صناعة صابون الغسيل (عدا نطاق تغليفه!) — ذلك المثقَّف الحصيف الفقير؛ فشعَر بأنه شخصٌ جدير بمغامرته الثورية. هبط الدرجتَين الحجَريتَين الضحلتَين المنحدرتَين من الرصيف، وتأهَّب، بلا تردُّد، لمخاطبة حقل تجربة سخائه الموجه. كانت كلماته الأولى ترحيبية ومترددة.

رفع جيمس تيرنر نظره إلى الأعلى بجفاء، ممسكًا بيده اليمنى كتاب «إعادة خياطة الخياط»، وباليسرى كتاب «زيجة عجيبة».

ثم قال: «ارحل! لا أريد شراء أي شماعات معاطف وغير مهتم بشراء أراضٍ في هانكيبو بنيوجيرسي. انصرف الآن والعب بدميتك.»

فقال الخليفة متجاهلًا وقاحة مُنظِّف القبَّعات: «أيها الشاب، أرى أنك مثقفٌ مجتهد. التعلم أحد أجمل الأشياء في العالم. وأنا ليس لديَّ من العلم ما يستحق الذكر، لكنني أحب رؤيته في الآخرين. لقد أتيتُ من الغرب؛ حيث لا نهتم إلا بالحقائق. ربما لا يمكنني أن أستوعبَ الشعر والتلميحات الموجودة في تلك الكتب التي تقتنيها، لكن ما أجملَ أن أرى غيري قادرًا على فهم معانيها. أنا أملك ثروة قدرها ٤٠ مليون دولار، ويزداد ثرائي يومًا بعد يوم. لقد صعِدتُ إلى القمة من خلال صناعة صابون العمة باتي الفاخر. أنا رائد فن صناعة هذا النوع من الصابون. فقد أجريتُ تجاربَ مستمرة طيلة ثلاث سنوات حتى توصلتُ أخيرًا إلى الخليط المناسب الذي يسمح بتخثر محلول كلوريد الصوديوم والبوتاس الكاوي. وبعد أن ربحتُ تسعة ملايين دولار من صناعة الصابون، كوَّنتُ باقي ثروتي من خلال الاستثمار في العقود الآجلة الخاصة بالذرة والقمح. والآن أرى أنك تملك شخصية الدارس الشغوف بالأدب؛ وسأخبرك بما يدور في عقلي. سأتكفل بدفع مصاريف تعليمك في أعرق جامعة في العالم. وسأدفع نفقات سفرك وتجوالك في بلدان أوروبا والمعارض الفنية، وفي النهاية سأوفر لك وظيفة مُربحة. ولستَ مضطرًّا أن تعمل عندي في مجال الصابون إذا لم ترغب. ألاحظ من النظر إلى ملابسك وربطة عنقك المهترئة أنك فقيرٌ جدًّا؛ ولا يمكنك رفض هذا العرض. والآن، متى تريد أن تبدأ؟»

رمق مُنظِّف القبعات توم العجوز بنظرة «المدينة الكبيرة»؛ تلك النظرة التي تنم عن شكٍّ شديد ومسوَّغ، وتعليقٍ للحكم عاليًا مثل هامان في شنقه، وحفظٍ للذات وفضولٍ وتحدٍّ وسخريةٍ واستخفافٍ وشعورٍ طفولي بالرغبة في المودة والصحبة، التي يجب إخفاؤها حين يمشي المرء بين «جماعات الغرباء»؛ وهو أمرٌ غريب كما قد تظن. فمن أجل أن تعيش في بغداد الجديدة، عليك أن تتحلى بالشك فيمن يجلس، أو يسكن، أو يشرب، أو يقود، أو يسير، أو ينام في الكرسي، أو المنزل، أو كابينة الهاتف، أو المقعد، أو الطريق، أو الغرفة المجاورة لك.

فردَّ جيمس تيرنر: «أخبِرني يا مايك، ما سلعتك الحقيقية، أربطة الأحذية؟ لن أشتري منك شيئًا. يُستحسن أن تضع بيضة في حذائك وترحل قبل أن أصيبك بمكروه. لا فائدة من محاولة أن تبيعني أقلامَ حبر، أو نظاراتٍ ذات إطاراتٍ ذهبية وجدتَها على قارعة الطريق، ولا شهاداتٍ مزوَّرة تابعة لشركةٍ ائتمانية. قل لي هل أبدو لك أحمقَ يحاول الهبوط من سلالم حريق غير موجودة؟ ماذا وراءك على أي حال؟»

فردَّ عليه الخليفة بنبرة فيها عظمة: «مثلما أخبرتُك يا بُني، أنا أملك ٤٠ مليون دولار. ولا أريد أن آخذ كل هذه الأموال معي في قبري حين أموت. غايتي هي أن أفعل خيرًا بها.

وفجأة رأيتُك أمامي هنا تفحَص تلك المجلَّدات الأدبية، لذا قررتُ أن أساعدك. لقد وهبتُ بعضَ الجمعيات التبشيرية مبلغ مليونَي دولار، لكن ماذا استفدتُ في النهاية؟ لا شيء سوى إيصالٍ من السكرتير. أنا أرى فيك نوعيةَ الشباب التي يمكن أن أرعاها، وأنتظر لأرى إلى أي مدًى يمكن للمال أن يصل بها.»

كان من الصعب العثور على كُتب كلارك راسل ذلك المساء عند كشك الكتب القديمة. وزاد الألم والحرقة اللذان كان يشعر بهما في قدمَيه من حِدة مزاجه. ورغم أنه مُنظِّف قبَّعاتٍ متواضع، حمَل بداخله عزيمةً مساوية لعزيمة أي خليفة.

فصاح غاضبًا: «أنت أيها المخادع العجوز، اذهب من حيث جئت. لا أعلم ما هي حيلتك بالضبط، إلا إذا كنتَ تريد أن تقايض كمبيالة مُزورة قيمتها ٤٠ مليون دولار مقابل مالٍ حقيقي. وأنا لا أحمل معي مثل هذا الكَم من المال. لكن ما أملكه بحوزتي هو قبضةُ يدٍ يُسرى قوية ستصيبك إذا لم تتحرك من أمامي الآن.»

فردَّ الخليفة: «يا لك من فأرِ مجارٍ صفيق ولئيم!»

فانقَض جيمس عليه ولكَمه بالقبضة التي أثنى عليها؛ فأمسَكه توم العجوز من ياقة قميصه وركله ثلاث ركلات؛ فاسترجع مُنظف القبعات قوَّته ثم اشبك مع توم، واصطدما في عراكهما برفٍّ كُتب فانقلبا وطارت معهما الكتب في الهواء. حضَر شرطي، وقبض عليهما ثم سار بهما إلى أقرب مركز شرطة. قال الشرطي للرقيب: «تهمتُهما هي العراك وإثارة الفوضى.»

فقال الرقيب على الفور بنبرة حازمة ومتسائلة: «كفالة قدرها ٣٠٠ دولار.»

فقال جيمس تيرنر بضحكة فظة: «٦٣ سنتًا.»

بحث الخليفة في جيوبه ولم يجد سوى مجموعة أوراقٍ نقدية صغيرة وفكَّة قدْرها أربعة دولارات.

ثم قال: «ثروتي قدرها ٤٠ مليون دولار لكن ...»

فقال الرقيب: «احتَجِزهما.»

رقَد جيمس تيرنر على سرير زنزانته، وأخذ يفكر مليًّا في الأمر. قال في نفسه: «لربما هو يملك ذلك القدْر من المال، وربما لا. وسواء امتلكه أم لا، فما حاجته إلى التسكع في الأرجاء وحشر أنفه في حياة الآخرين؟ عندما يعرف الإنسان ما يريده، ويمكنه الحصول عليه، يصبح بالنسبة إليه مماثلًا لامتلاك ٤٠ مليون دولار.»

وفجأة طرأَت على عقله فكرة استحضرَت ابتسامةً على شفتَيه.

خلع جوربه، وسحب السرير بالقرب من باب الزنزانة، ومدَّد جسده بأريحيةٍ تامة، ثم وضع قدمَيه المعذَّبتَين على قضبان باب الزنزانة الباردة. كان هنالك شيءٌ صُلب وكبير أسفل بطانية سريره أزعج موضع إحدى كتفَيه. فدسَّ يده تحت البطانية، وسحب كتابًا بغِلافٍ ورقي للمؤلف كلارك راسل اسمه «حبيبة بحار». فتنهَّد تنهيدة رضًا وامتنان.

في تلك اللحظات، أتى الحارس إلى زنزانته وقال:

«اسمع يا فتى، ذلك العجوز الذي تشاجرتَ معه، يبدو أنه يملك الأموال بالفعل. لقد اتصل هاتفيًّا بأصدقائه، وهو الآن في المكتب يحمل رزمةً كبيرة من النقود بحجم وسادة بقطار بولمان. إنه يريد أن يدفع أموال كفالتك، وأن تخرج الآن لرؤيته.»

فردَّ جيمس تيرنر: «أخبِره أنني لستُ هنا.»

نبتة الصبَّار

إن أهم ما يميز الزمن هو نسبيته التامة. فمن المتعارف عليه أن الرجل الغريق يجتاحه قدْرٌ هائل من ذكريات الماضي، وليس من الغريب تصديق أن المرء يمكن أن يستعرض علاقة حب كاملة في الوقت الذي يستغرقه في خلع قفازه.

هذا ما كان يفعله ترايسديل وهو يقف بجوار منضدة بشقَّته التي يعيش بها بمفرده. كان أعلى المنضدة جرَّة من الفَخَّار الأحمر وبداخلها نبتةٌ خضراء وحيدة. تلك النبتة كانت تنتمي لأحد أنواع الصبَّار، وكانت أوراقها طويلةً شائكة، وهي التي ظلت باستمرار تتمايل مع هبوب أقل نفحة من النسيم، بحركةٍ إيمائيةٍ فريدة.

وقف صديق ترايسديل، وشقيق العروس، عند البوفيه، يتذمر من أنه قد تُرِك ليتناول الشراب بمفرده. كلاهما كانا يرتديان ملابس السهرة. وسطَع الشريطان الأبيضان المثبَّتان على مِعطفَيهما كالنجوم وسط ظلمة وكآبة الشقة.

وحينما بدأ ترايسديل يفك أزرار قفَّازه ببطء، انسل إلى عقله استرجاعٌ سريع ولاذع لما حدث في الساعات القليلة الماضية. بدا أن أنفه كان لا يزال يشمُّ رائحة الزهور التي تراصَّت في باقات فوَّاحة في أنحاء الكنيسة، وأن أذنَيه كانتا تسمعان صوت الهمهمة الخفيضة لعددٍ كبير من الأصوات المهذَّبة، وحفيف الملابس المتغضِّنة، إلا أن الصوت الأكثر تواترًا الذي كان لا يزال يسمعه، كان الكلمات المُتشدِّقة للقس التي جمع بها بين فتاته ورجلٍ آخر إلى الأبد.

ووسط تلك الحالة اليائسة الأخيرة، كان لا يزال يسعى جاهدًا، كما لو أن الأمر قد تحوَّل إلى عادةٍ ذهنية، لمعرفة كيف ولماذا فقدَها. مصدومًا بعنف من حقيقة زواج فتاته التي لا تقبل الشك، وجد نفسه فجأة يجابه شيئًا لم يواجهه قَط من قبلُ، ألا وهي ذاته المغرورة والعقيمة والحادة. أصبح يرى كل ذلك الادعاء والغرور الذي طالما اكتسى به يتحول إلى أسمال من الحماقة. وارتعَد من فكرة أن روحه ظهرَت للآخرين وكأنها روحٌ

رثَّة فارغة. التكبر والغرور؟ كان هذان هما أهم مكونات قناعه الذي كان يرتديه. وكيف كانت محبوبته دائمًا أبعد ما تكون عن أيٍّ من هاتَين الصفتَين ... لكن لماذا؟ ...

حينما سارت بتمهُّل عبْر الممشى باتجاه المذبح، شعَر ببعض الغبطة الكئيبة الساذجة التي أراحته قليلًا. إذ أقنع نفسه بأن شحوب وجهها كان جرَّاء انشغالها بالتفكير في رجلٍ آخر، غير ذلك الذي على وشك أن تمنح نفسها له. لكن حتى تلك التعزية الهزيلة قد سُلبَت منه. إذ عندما رأى تلك النظرة المتطلعة الخاطفة الصافية التي رمقَت بها ذلك الرجل عندما أمسَك بيدها، علم أنه صار في طي النسيان. في وقتٍ سابق، كانت تلك النظرة ملكًا له، وكان يعرف معناها. لكن، بالطبع، تفتَّت غروره وانهارت كل دعائمه الآن. لماذا انتهى الأمر هكذا؟ لم يكن ثمَّة خلافٌ بينهما، لا شيء ...

أعاد للمرة الألف شريطَ أحداث الليالي القليلة الماضية قبل أن تتغير الأمور فجأة.

لقد أصرَّت فتاته دومًا على وضعه في مرتبةٍ أقربَ للتقديس، وقد قَبِل هو بدوره ذلك الإجلال بفخامة الملوك. لقد كان ثناؤها عليه أقرب لعود بخورٍ ذي عطرٍ ساحر بالنسبة له؛ فقد كان شديد البساطة (كما أخبر نفسه)، ويتسم بالبراءة والتقديس، و(كما كان سيقسم بذلك في السابق) صادقًا لأبعد حد. لقد نسبَت له عددًا هائلًا من الصفات السامية والفضائل والقدرات، وتعامل هو مع هذا الولاء مثل الصحراء التي تتشرَّب جميع قطرات المطر التي يمكن أن تنالها من السماء بلا أي وعد بإنماء أي براعم أو ثمار من باطنها.

ولَّما خلع ترايسديل بعبوس طرف فردة قفازه الثانية، استحضر عقله بوضوح المثال النموذجي على ذلك الغرور السخيف الذي ندم عليه متأخرًا. كان المشهد هو تلك الليلة التي دعاها فيها أن تصبح ملكة مملكته وتشاركه عظمته. لم يستطِع، الآن، لما يحمله ذلك من ألمٍ شديد، السماح لعقله بأن يستحضر ذكرى جمالها الأخَّاذ تلك الليلة؛ تموُّج شعرها المنسدل، فضلًا عن الرقة والسحر العذري لملامحها وكلماتها. كان كل ذلك كافيًا له، وقادرًا على حمله على الكلام. وفي أثناء محادثتهما قالت له:

«أخبَرني كابتن كاروثيرس أنك تجيد التحدث باللغة الإسبانية بطلاقة أهلها. لماذا أخفيتَ عني ذلك الإنجاز؟ هل هناك أي شيء لا تجيده؟»

بالطبع كاروثيرس كان غبيًّا. لا شك أن ترايسديل أخطأ (إذ كان أحيانًا يفعل تلك الأمور) بأن ذكَر على نحوٍ عابر في النادي أحد الأمثال القشتالية القديمة، التي حصل عليها من الجانب الخلفي لأحد القواميس. وكان كاروثيرس، الذي يُعَد من أشد المتحمسين له، هو الذي ضخَّم من استعراض تلك المعرفة المشكوك في صحتها.

لكن، وللأسف، كان عبق إعجابها بالغ العذوبة والإطراء. فسمح لنفسه أن ينسب ذلك إليه بلا إنكار. وبلا احتجاج، تركها تجدل على جبينه ذلك الخليج المتسع من المعرفة الإسبانية. أعطاها الفرصة للثناء على عقله المتفرد، الذي سيعلق في متاهاته الناعمة، ولن يشعر بوخزة الشوكة التي ستخترق جسده لاحقًا.

كم بدت سعيدة، وخجولة، ومتوترة حينها! كيف رفرفَت مثل طائر وقع في فخ حينما وضع عظمته تحت قدمَيها! كان يمكنه أن يُقسِم، ويمكنه أن يُقسِم الآن، على ذلك الرضا الواضح الذي بدا في عينَيها، لكنَّ حياءها فقط هو ما منعها من إبداء إجابةٍ مباشرة. إذ قالت: «سأرسل لك ردي غدًا»، وقد منحها، هو ذلك المُظفَّر المدلل الواثق من نفسه، إذن التأجيل بابتسامةٍ رقيقة. في اليوم التالي، انتظر ردًّا منها، بنفاد صبر، في شقته. وعند وقت الظهيرة، أتى خادمها عند باب شقته وترك له نبتة الصبار الغريبة تلك الموجودة في الجرَّة الفخَّارية الحمراء. لم تأتِ معها رسالةٌ مكتوبة أو شفوية، فقط بطاقة ملصَقة عليها مكتوب عليها اسمٌ غير واضح، ولا يعلم إذا كان اسمًا أجنبيًّا أم نباتيًّا. استكمل انتظاره حتى الليل لكن ردَّها لم يصل. وقد منعه كبرياؤه الشديد وغروره الجريح من أن يتواصل معها. وبعد مُضي يومين، قابلها في حفل عشاء. ألقى كلٌّ منهما التحية على الآخر على نحوٍ اعتيادي، إلا أنها كانت تنظر إليه بترقُّب وتحفُّز، وتساؤل. ظل دمثًا لكن عنيدًا في تعامله معها مترقبًا منها تفسيرًا. بحدْسها الأنثوي، عرفَت أسلوبه واستخدمَته معه فتعاملَت معه ببرود وجفاء. ومن تلك اللحظة، وعلى نحوٍ متزايد فيما بعدُ، بدآ يفترقان. أين يقبع خطؤه تحديدًا؟ ومن يقع عليه اللوم؟ حملتَه استفاقة التواضع الحالية أن يرى الإجابة كامنة في ركام غروره. لو …

أعاده للواقع صوت الرجل الحاضر في الغرفة، الذي قاطع أفكاره بنبرة معاتبة.

«أخبرني يا ترايسديل، ماذا دهاك بحق الجحيم؟ تبدو تعيسًا للغاية كما لو كنتَ أنت الذي تزوَّج بدلًا من كونك مجرد مشارك في الجريمة. انظر إليَّ، وأنا مشاركٌ آخر في الجريمة، فقد أتيتُ من بُعد ألفَي ميل على ظهر باخرة عطنة الرائحة ومليئة بالحشرات محمَّلة بالموز قادمة من أمريكا الجنوبية لكي أتواطأ مع هذه التضحية، انظر كيف أتعامل باستخفاف مع هذا الذنب. لم يكن قد تبقى لي سوى أختٍ صغيرة، وها هي الأخرى قد رحلَت الآن. هيا تعالَ واشرب شيئًا يخفف من ألَم ضميرك.»

فقال ترايسديل: «أنا لا أشرب الآن، شكرًا لك.»

فاستأنف صديقه الحديث بعد أن انضَم إليه: «البراندي الخاص بك بشِع. تعالَ إلى زيارتي في وقتٍ ما في بونتا ريدوندا، حتى تستمتع ببعض الشراب الذي يُهرِّبه صديقي

العزيز جارسيا إلى هناك. الأمر يستحق العناء. أيها السارح، أنا هنا أُحدِّثك. قل لي من أين أتيتَ بذلك الصبَّار يا ترايسديل؟»

فقال ترايسديل: «إنه هدية من صديق. هل تفهم في أصناف النباتات؟»

فرد صديقه: «نعم بالطبع. إنه نباتٌ استوائي. أرى المئات منه في أرجاء بونتا كل يوم. ها هو اسمه مكتوبًا على تلك البطاقة الملصَقة على جرَّته. هل لديك أي إلمام بالإسبانية يا ترايسديل؟»

فردَّ ترايسديل وعلى شفتَيه شبح ابتسامة تئن من المرارة: «لا، هل هذه اللغة إسبانية؟»

فأجاب صديقه: «نعم. يعتقد السكان الأصليون هناك أن أوراق تلك النبتة تميل نحو الشخص وتومئ إليه. إنهم يطلقون عليها «فينتومارمي». وهذا يعني «تعالَ وخذني».»

المطعم والوردة

لقد استطاعت الآنسة بوسي كارينجتون شق طريقها إلى النجاح. بدأَت حياتها مقيَّدة باسم عائلتها «بوجز»، في البلدة الصغيرة التي تُدعى كرانبيري كورنرز. وحينما بلغت سن الثامنة عشرة، غيرت اسم عائلتها إلى كارينجتون، وحصلَت على وظيفة في جوقة فرقة محاكاة ساخرة في مدينة كبيرة. ومن هناك صعدَت بخطواتٍ واثقة وجادة؛ إذ بدأَت بأداء أدوار صغيرة، ثم انضمَّت بعد ذلك للفريق الغنائي الشهير الذي يتألف من ثمانية أفراد، الذي يُسمَّى «ديكي-بيرد»، في المسرحية الموسيقية الكوميدية «فادج والرفاق»، ثم قادت رقصة حشرة البطاطس في مسرحية «فول-دي-رول»، وفي النهاية حصلَت على دور الخادمة «توانيت» بمسرحية «روب حمام الملك»، وهو ما لقيَ استحسان وإشادة النقاد وأعطاها فرصتها الحقيقية. وإذا نظرنا للآنسة كارينجتون الآن، فسنجدها في ذروة شُهرتها ومجدها، ويتهافت عليها الإطراء من كل صوب وحدب، ومدير الأعمال المخضرم الهير تيموثي جولدشتاين، قد حصل على توقيعها الملزم بشأن بطولتها للموسم القادم في مسرحية دايد ريتش الجديدة «ظلال الجنون».

جاء الممثل الشاب المميز والصاعد، هايسميث، إلى الهير تيموثي متوسلًا الانضمام إلى مسرحية «ظلال الجنون» في دور «سول هايتوسر»، وهو الشخصية الذكورية الرئيسية والكوميدية في تلك المسرحية.

فقال له جولدشتاين: «يا بُني، فلتحصل على الدور إذا استطعت. فالآنسة كارينجتون لا تنصت إلى أيٍّ من اقتراحاتي. لقد رفضَت انضمام ستة من أفضل المؤدِّين لدور الأخرق القروي في المدينة. لقد أعلنَت أنها لن تقف على خشبة المسرح إلا إذا كان من يمثل دور «هايتوسر» هو أفضل ممثلٍ يمكن العثور عليه. لقد نشأَت بقرية، كما تعلم، وهي تستطيع التمييز عندما يحاول ممثلو برودواي تجسيد شخصياتٍ قروية. لقد سألتُها بتهكم إذا

كانت ترى دينمان تومبسون قادرًا على أداء هذا الدور. فردَّت عليَّ: «أوه، لا. أنا لا أريده لهذا الدور ولا حتى جون درو ولا جيم كوربيت ولا أيًّا من هؤلاء الممثلين المتأنقين الذين ليست لديهم دراية بالحياة الريفية. أنا أريد شخصًا حقيقيًّا.» لذا يا بُني إن أردتَ أن تلعب دور «سول هايتوسر»، فعليك أن تُقنع الآنسة كارينجتون بذلك. أتمنى لك التوفيق.»

ركب هايسميث القطار في اليوم التالي متوجهًا إلى بلدة كرانبيري كورنرز. مكث في تلك البلدة المنعزلة والهادئة مدة ثلاثة أيام. عثَر خلالها على عائلة بوجز، واطلع على تاريخهم حتى الجيل الرابع والثالث. وأخذ يجمع الحقائق ويتعرف على الطابع المحلي للبلدة. بدا له أن البلدة لم تتطور بسرعة مثلما تطورَت الآنسة كارينجتون. إذ اعتقد أن تلك البلدة لم يطرأ عليها سوى القليل من التغيُّرات منذ رحيل فردها الوحيد الذي تَبِعَ درب ثيسبيس، الذي يُعَد أول ممثل مسرحي في العالم، وأن وضع تلك البلدة يشبه ما يحدث في المسرحيات القديمة، حين يشير النص إلى مرور أربع سنوات، لكن الديكور والشخصيات يبقيان كما هما. تشرَّب هايسميث روح البلدة ثم عاد إلى مدينة التغيرات اللحظية.

لقد شهد المطعم لحظة النجاح الفارقة في مسيرة هايسميث التمثيلية. وليس ثمة حاجة لذكر اسم هذا المكان؛ إذ لا يُوجَد سوى مطعم واحد يمكنك أن تجد فيه الآنسة بوسي كارينجتون بعد أدائها لدورها في مسرحية «روب حمام الملك».

كان هنالك تجمُّع صغير مبتهج على إحدى طاولات المطعم التي جذبَت الانتباه ناحيتها. دعنا نذكُر أولًا الشخصية الرئيسية في هذا التجمع وهي الآنسة كارينجتون، الصغيرة القد والرائعة والمتألقة والجذابة والواثقة من نفسها. ويأتي بعدها الهير جولدشتاين، ذو الصوت الجهوَري، والشعر المجعَّد، والوزن الثقيل والبادي عليه القليل من القلق؛ تمامًا كدُبٍّ يمسك، بطريقةٍ ما، فراشةً بين مخالبه. وبعدهما يأتي رجلٌ عقله قابع في عالم الصحافة، حزينٌ ومحاطٌ بالمعجبين ومتدرع بالتحفظ، وكان يحلل كل كلمة تُوجَّه إليه ليميز هُراء الصحافة، ويتناول طبق مأكولاتٍ بحرية شهيرًا في صمت وقور. وفي الختام، يُوجَد شاب يفرق شعره، اسمه يظهر بكثرة في صحف الإثارة، ويُعَد علامةً مميزة حين يبدو على ظهر فواتير المطاعم. جلس هؤلاء على الطاولة بينما تؤدي الفرقة الموسيقية عرضها، ويتحرك النُّدُل بين أرجاء المطعم في متاهة أدائهم لمهامهم، بينما يديرون ظهورهم لكل من نشَدوا طلباتهم من فَرْط انشغالهم، وكانت الأجواء غريبة ومرحة داخل ذلك المطعم الذي يقبع أسفل مستوى الرصيف بنحو تسع أقدام.

في الساعة ١١:٤٥، دخل شخص إلى المطعم. فعزف عازف الكمان نغمةً منخفضة، على نحوٍ ملحوظ، تلك التي كان من المفترض أن تظهر طبيعية، وصدر من آلة الكلارينيت

صوتُ قرقعة بدلًا من لحنٍ شجي، فضحكَت الآنسة كارينجتون، وابتلع الشاب الذي يفرق شعره حبة زيتون.

كان هذا القادم ذا مظهرٍ قروي لافت لا غبار عليه. كان شابًّا هزيلًا ومرتبكًا ومترددًا، وأصفر الشعر، وفاغر الفم ومحرجًا، ويبدو عليه البؤس في وجه الأضواء والناس. كانت ملابسه منزلية الصنع ذات لونٍ بُني فاتح، وربطة عنقه زرقاء فاقعة، ولا يظهر من جسده سوى نحول رسغَيه وكاحلَي قدمَيه المتدَثرين بجورب أبيض. تعثَّر بمقعد وقلَبه، ثم جلس على آخر، وثنَى إحدى قدمَيه حول ساق طاولة، وتوتَّر بشكلٍ واضح عند اقتراب النادل منه.

ردَّ على النادل الذي سأله عن طلبه بتحفُّظ: «يمكنك أن تجلب لي زجاجة جِعة لاجر.»

كانت جميع أعين المطعم مسلطةً نحوه. كان غرًّا كالكرنب المكعبر، وساذجًا كمِجْرف القش. جعل عينَيه تطوفان حول المكان كشخص يراقب الخنازير في حقل بطاطس. واستقر نظره في نهاية المطاف على الآنسة كارينجتون. فنهض وذهب إلى طاولتها بابتسامةٍ جانبية مشرقة وتوردٍ مسرور يكتنفه التوتر.

ثم قال بلكنة ريفية لا يمكن أن تخطئها الأذن: «كيف حالك يا آنسة بوسي؟ ألا تتذكريني — أنا بيل سامرز — عائلة سامرز التي كانت تسكن خلف محل الحدادة؟ لا بد أنني كبرت قليلًا عما كنت عليه عندما غادرت كرانبيري كورنرز.

ليزا بيري قالت إنني قد أراكِ في المدينة وأنا هنا. أتعلمين أن ليزا تزوجت بيني ستانفيلد، وهي تقول ...»

فقاطعته الآنسة كارينجتون بحماس: «حقًّا! ليز بيري لم تكن قد تزوجَت بعدُ، ربما بسبب النمش على وجهها!»

انفرجَت شفتا هذا الثرثار بابتسامة عريضة ثم قال: «تزوجتُ في شهر يونيو، وتعيش في مبنى تاتوم بليس القديم. هام رايلي أصبح راهبًا، والسيدة بيلزيرز العجوز باعت بيتها لكابتن سبونر، والابنة الصغرى لعائلة ووترز هربَت مع مدرس الموسيقى، ومبنى المحكمة احترق تمامًا في مارس الماضي، وعمك وايلي انتخبوه مسئولًا محليًّا، وماتيلدا هوسكينز ماتت بسبب العدوى الناتجة عن دخول إبرة في يدها، وتوم بيدل يحب سالي لاثروب، يقولون إنه لا يترك ليلة إلا وقعد عندهم في شرفة بيتها.»

فصاحت الآنسة كارينجتون بحدة: «هذا الوقح! عجبًا، توم بيدل ذات مرة ... عذرًا يا رفاق، لبعض الوقت ... أقدم لكم صديقًا قديمًا لي ... إنه السيد ... ماذا كان اسمك؟

آه، تذكرتُ السيد سامرز ... أقدم لك السيد جولدشتاين والسيد ريكيتس والسيد ... أوه، نسيتُ اسمك، حسنًا سأناديك جوني ... تعالَ إلى هنا يا سامرز وأخبِرني بالمزيد.»

ثم سحبَتْه إلى طاولةٍ منعزلةٍ في إحدى زوايا المطعم. هزَّ الهِر جولدشتاين منكبَيه البدينَين ونادى على النادل. تحسَّن مزاج الرجل المهتم بعالم الصحافة قليلًا وطلب بعض الأفسنتين. أما الشاب الذي يفرق شعره فكان غارقًا في كآبته وحزنه. وساد الضحك بين زبائن المطعم، وعلا صوت قرع الكئوس مستمتعين بالفِقرة الكوميدية، التي كانت تقدِّمها لهم بوسي كارينجتون، بعد أدائها لدورها المسرحي المعتاد. وهمس بعض المتهكمين بأن هذا ربما جزء من عرضٍ دعائي لها، ثم ابتسموا بخبثٍ.

وضعَت بوسي كارينجتون ذقَنها الجميل الذي تعلوه غمازتان على يدَيها، ثم نسيت تمامًا جمهورها، وهي مهارة ساعدَتها كثيرًا في نجاحها.

قالت وهي تحدِّق متأملةً العينَين الزرقاوَين البريئتَين لذلك الشاب القروي: «لا يبدو أنني أتذكَّر أي شخص باسم بيل سامرز. لكنني أعرف عائلة سامرز جيدًا. أظن أنه لا يُوجَد الكثير من التغييرات في تلك البلدة العتيقة. هل رأيتَ أيًّا من أقربائي مؤخرًا؟»

وهنا قرَّر هايسميث أن يلعب ورقته الرابحة. كان دور «سول هايتوسر» مزيجًا من الأداء الدرامي والكوميدي. ولا بد للآنسة كارينجتون أن ترى ذلك الجانب منه أيضًا.

فردَّ بيل سامرز: «يا آنسة بوسي، مررتُ على بيتك من يومَين أو ثلاثة أيام. لا، لا تُوجَد تغييراتٌ كثيرة تستحق الذكر. شُجيرة الليلك التي بجوار شباك المطبخ صارت أطول بقدم، وشجرة الدردار في الفناء الأمامي ماتت واضطُروا أن يقطعوها. ومع هذا لا يبدو المكان كما كان من قبلُ.»

فسألَتْه الآنسة كارينجتون: «وكيف حال أمي؟»

فأجاب بيل: «كانت جالسة بجوار الباب الأمامي، منشغلة بحياكة مفرش مصباح، لما رأيتُها آخر مرة. تقدَّمَت في السن، يا آنسة بوسي. لكن كل شيء في المنزل كما هو. طلبَت مني أمك أن أجلس قليلًا. وقالت لي: «لا تلمس كرسي الخيزران الهزاز هذا، يا ويليام. إنه لم يتحرك من موضعه من وقت رحيل بوسي، وعلى ذراعه المئزر الذي كانت تخيط حاشية له، تمامًا مثلما رمَتْه. أتمنى أن تُنهيَ بوسي تلك الحاشية في أحد الأيام».»

أشارت الآنسة كارينجتون بشكلٍ حازم إلى نادل.

وقالت له بإيجاز: «المزيد من الشراب المُر للغاية، وأعطِ الفاتورة لجولدشتاين.»

استأنف مؤرخٌ كرانبيري حديثه قائلًا: «كانت الشمس تُطِل بضوئها على الباب، وأمك جلسَت أمامه مباشرة. طلبتُ منها أن تتراجع إلى الخلف قليلًا. فقالت لي: «عندما أجلس

هنا يا ويليام، وأنظر إلى الطريق، لا أستطيع أن أتحرك من مكاني. لم يمُر يومٌ واحد دون أن أقعد هنا لبعض الوقت وأراقب مجيء بوسي. هي رحلَت من هذا الطريق في الليل، حيث رأينا آثار قدمَيها الصغيرة في التراب، وشيء يقول لي إنها ستعود من الطريق نفسها مرةً أخرى عندما تمَلُّ من العالم، وتبدأ تفكر في أمها العزيزة».»

وختم بيل كلامه: «قبل أن أرحل، قطعتُ هذه من الشجيرة التي أمام السلم الأمامي. قلتُ لنفسي إنني قد أراكِ في المدينة، وقلتُ إنكِ ستودِّين الحصول على شيءٍ يذكِّركِ ببيتكِ القديم.»

أخرج وردةً صغيرة من جيب مِعْطفه، وردة صفراء ناعمة ذات رائحة عطرة، تُدلي رأسها في الفراغ الكريه لهذا المطعم كعذراء تقف منحنية أمام الأنفاس اللاهثة للأسود داخل ساحة نزال رومانية قديمة.

علَت ضحكةٌ رنَّانة لكن موسيقية من الآنسة كارينجتون، إلى حد أنها غطَّت على صوت أداء الفرقة الموسيقية أغنية شعبية اسكتلندية شهيرة.

ثم صاحت بسعادة: «أوه! يا لها من بلدة مزعجة إلى حد لا يطاق! أنا متأكدة من أن قضاء ساعتَين في كرانبيري كورنرز الآن سيصيبني بالرعب. حسنًا، أنا سعيدة للغاية أنني قابلتُك يا سيد سامرز. أظن أنني سأتعجل العودة إلى الفندق الآن لأحظى ببعض النوم حتى أحافظ على جمالي.»

أخذَت الوردة الصفراء ووضعَتْها داخل صدر ثوبها الحريري البديع الأنيق، ثم نهضَت وأومأَت برأسها بحركة ملحوظة تجاه الهير جولدشتاين.

رافقها «بيل سامرز» وزملاؤها الثلاثة إلى سيارة الأجرة الخاصة بها. وعندما اطمأنَّت أن الحوافي المزركشة لثيابها طُويَت بسلام داخل السيارة، ألقت عليهم تحية وداع بابتسامةٍ ساحرة وعينَين لامعتَين.

وبينما كانت السيارة الجميلة تتأهب للسير، التفتت ونادت قائلة: «تعالَ لمقابلتي في الفندق يا بيل قبل أن تغادر المدينة.»

أما هايسميث، الذي ما زال يؤدي دوره التمثيلي، فذهب مع الهير جولدشتاين إلى مقهًى صغير.

فسأله الممثل المبتسم: «فكرة رائعة، أليس كذلك؟ كفيلة بأن تمنحني دور «سول هايتوسر»، ألا تعتقد ذلك؟ لم تغمض عينا الآنسة ولو للحظة.»

فقال جولدشتاين: «لم أسمع حديثكما، لكن تنكرك وتمثيلك كانا جيدَين. وها هو نخب نجاحك المستقبلي. لا تنسَ أن تتصل بالآنسة كارينجتون غدًا في الصباح الباكر،

وتطلب منها أخذ الدور. ولا أرى سببًا يدعوها لأن تكون غير راضية بعد عرضك الجيد لقدراتك.»

عند الساعة ١١:٤٥ صباحًا من اليوم التالي، ذهب هايسميث إلى الفندق، متأنقًا في أطيب حلة، وواثقًا بنفسه، ومعلقًا زهرة فوشية صغيرة في عُروة ثيابه، وحين وصل أرسل بطاقته إلى السيدة كارينجتون في غرفتها المختارة بالفندق.

صاحبَتْه إلى الغرفة خادمة الممثلة الفرنسية واستقبلَتْه هناك.

ثم قالت الآنسة أورتونس: «أنا آسفة لإخبارك بهذا الأمر مثلما أخبرتُ الجميع. إنه لأمرٌ مؤسف بشدة. لقد ألغت الآنسة كارينجتون كل ارتباطاتها المسرحية، وعادت لكي تستقر وتعيش هناك في ... ماذا تُسمَّى تلك البلدة؟ كرانبيري كورنيير!»

الكونت وضيف حفلة الزفاف

في مساء يومٍ ما، عندما ذهب آندي دونوفان لتناول العشاء في النُّزل الذي يعيش فيه، والذي يقع في الجادة الثانية، قدَّمَته السيدة سكوت لإحدى الساكنات الجديدات، وهي سيدةٌ شابة تُدعى الآنسة كونواي. كانت الآنسة كونواي ضئيلة الحجم وهادئة. كانت ترتدي فستانًا بنيًّا بسيطًا، وقد أبدت سعادتها بكل شيء فيما عدا طعامها. رفعَت حاجبَيها في خجل، وألقت نظرةً ملحوظةً فاحصة على السيد دونوفان، وتمتمَت باسمه بأدب، ثم عادت لتناول قطعة لحم الضأن التي تأكلها. انحنَى السيد دونوفان لها بلطفٍ وابتسامةٍ ساحرة؛ كان يكسبانه سريعًا مكانةً في المجتمع وعالم السياسة والأعمال، ثم نسي كل ما يتعلق بصاحبة الفستان البني.

بعد مرور أسبوعَين، كان آندي جالسًا على درجات سُلم الباب الأمامي يستمتع بتدخين سيجاره. كان هنالك صوتُ حفيف ناعم قادمًا من خلفه وفوقه، فالتفت برأسه، ولم يستطِع إعادتها مرة أخرى للأمام.

كانت الآنسة كونواي خارجة من الباب. كانت ترتدي فستانًا أسود فاحمًا مصنوعًا من الكريب دو ... الكريب دو ... أقصد ذلك القماش الأسود الخفيف. وكذلك كانت قبَّعتُها سوداء يتدلى منها وشاحٌ شديد السواد ورقيقٌ كشبكة العنكبوت. وقفَت على الدرجة الأعلى للسُّلم وأخذَت تلبس قفَّازها الحريري الأسود. لم يحتوِ رداؤها على بقعةٍ بيضاء أو نقطة لونٍ آخر على الإطلاق. وقد عُقِد شعرُها الذهبي الكثيف المتموج بعقدةٍ برَّاقةٍ ملساءَ في آخر عنقها. ولم يكن وجهها جميلًا جدًّا، إلا أنه الآن تحديدًا بدا جميلًا بسبب عينَيها الرماديتَين الكبيرتَين اللتَين تُحدِّقان فوق المنازل الواقعة على الناصية الأخرى للشارع إلى السماء، وقد ظهر عليهما تعبيرٌ مغمور بمشاعر الحزن والكآبة التي تستجلب التعاطف.

تخيَّلن معي الصورة يا فتيات ... ارتداء ثيابٍ سوداء بالكامل، مع تفضيل قماش الكريب دو شين، هذا كل ما في الأمر. هذا السواد الكامل، وتلك النظرة الحزينة السارحة، والشعر اللامع أسفل الوشاح الأسود (عليكِ أن تكوني شقراء بالطبع)، ومحاولة أن تظهري في هيئة تشير إلى أنكِ، وبرغم كون حياتك اليافعة قد أصابها مكروهٌ شديد وهي على مقربة من بداية خُطاها، قد يُحسِّن من مزاجكِ بعض التمشية في الحديقة، على أنه يجب أن تتأكدي من خروجكِ من الباب في اللحظة المناسبة؛ كل ذلك سيُوقِعهم في حبالك كل مرة. لكن يا لها من قسوةٍ واستخفافٍ مني الآن أن أتحدث عن ملابس الحِداد بتلك الطريقة الساخرة، أليس كذلك؟

أعاد السيد دونوفان الآنسة كونواي فجأة إلى دائرة تفكيره. رمى على الأرض الجزء الصغير المتبقي من سيجاره، الذي كان سيصمد في يده لثماني دقائق أخرى، ثم نقل مركز ثقل جسده إلى قدمَيه اللتين تنتعلان حذاءً أسود من الجلد اللامع المصقول.

ثم قال لها: «يا له من مساءٍ صافٍ وجميل يا آنسة كونواي»؛ وإذا سمع مكتب الأرصاد الجوية نبرة صوته الواثقة المتيقنة وهو يقول هذا، لرفَع الرايات البيضاء التي تشير إلى الطقس الجيد وعلَّقها على عمود الإشارات الجوية.

فردَّت الآنسة كونواي بتنهيدة: «إنه كذلك بالنسبة لمن لديهم قلبٌ قادر على الاستمتاع به يا سيد دونوفان.»

في أعماق قلبه، لعن السيد دونوفان صفاء الطقس. ذلك الطقس العديم الإحساس! يجدر به أن ينطويَ على مطر وثلوج وريح حتى يتوافق مع مزاج الآنسة كونواي.

فقال السيد دونوفان مترددًا: «آمل ألا يكون أحد أقربائك ... آمل ألا تكوني قد فقدتِ أحدهم؟»

فردَّت الآنسة كونواي بتردُّد: «لم ينل الموت أحد أقربائي، لكن شخصًا كان ... لكن أنا لا أرغب في أن أشغلك بحزني يا سيد دونوفان.»

فاحتَج السيد دونوفان قائلًا: «تشغلينني؟ لماذا تقولين ذلك يا آنسة كونواي، يسرُّني، أعني، سأكون آسفًا ... أعني أنني متأكد بأنه لا يُوجد شخصٌ قد يتعاطف معكِ على نحوٍ أصدق من تعاطفي.»

ابتسمَت الآنسة كونواي ابتسامةً خافتة. ولم تكن بأفضل حالًا من تعبيرها الساكن الحزين.

وردَّت مقتبسة أحد الأقوال: «اضحك، وسيضحك العالم معك؛ انتحب وستنتحب وحدك. لقد تعلَّمتُ ذلك يا سيد دونوفان. فأنا لا أملك أصدقاءً أو معارف في هذه المدينة. لكنك كنتَ طيبًا معي. وأقدِّر لك ذلك كل التقدير.»

كان قد مرَّر السيد دونوفان لها قارورة الفلفل مرتَين على طاولة الطعام.

ثم قال: «إنه لمن الصعب البقاء وحيدًا في مدينة مثل نيويورك؛ إذ يصير بمنزلة قبضةٍ خانقة على الشخص. لكن وبمجرد أن ترخي تلك المدينة العجوز الصغيرة لك حبالها وتغدو أكثر ودِّية، تصل إلى عنان كرمها. ألا تظنين يا آنسة كونواي أن التمشية لبعض الوقت في الحديقة قد تُذهِب عنكِ بعضًا من هذا الحزن الدفين؟ وإذا سمحتِ لي بأن ...»

«شكرًا لك يا سيد دونوفان. يسعدني أن أقبل مرافقتَك إذا ما ارتأيتَ أن صحبة قلب يملؤه الأسى قد يكون مناسبًا لك على أي حال.»

دخلا معًا عبْر البوابة المفتوحة للحديقة، المحاطة بالأسوار الحديدية، والموجودة بوسط المدينة، ذلك المكان الذي اعتاد النخبة أن يتنزهوا فيه، وتجوَّلا بداخلها حتى وجدا مقعدًا هادئًا.

وإليكم الفارق بين حزن الشباب وحزن العجائز؛ كلما شارك الشباب حزنهم مع غيرهم، خفَّ ثقله عليهم؛ بينما مهما شارك كبار السن حزنهم مع غيرهم، فسيظلُّ الحزن باقيًا على حاله.

وبعد مُضي ساعة على حديثهما، أفضت الآنسة كونواي بسرِّها: «لقد كان خطيبي. وكنا على وشك الزواج بحلول الربيع القادم. لا أريد أن تُسيء فهمي يا سيد دونوفان، لكنه كان كونتًا نبيلًا حقيقيًّا. فقد امتلك أرضًا وقلعة في إيطاليا. وكان اسمه الكونت فيرناندو مازيني. لم أرَ مثله قَط في وجاهته. لكن بالطبع رفض والدي تلك العلاقة، ورغم أننا فرَرْنا منه ذات مرة، فقد استطاع أن يلحق بنا ويُعيدني. كنتُ على يقين أن الأمر سينتهي بعراكٍ محتدمٍ بينهما. والدي يمتلك شركة لتأجير العربات بمدينة بيكيبسي بالمناسبة.

وفي النهاية وافق والدي على زيجتنا، وقال إنه يمكننا إقامة حفل الزواج في الربيع القادم. أحضَر فيرناندو لوالدي إثباتاتٍ على لقبه وثروته، وبعدَها رحل إلى إيطاليا ليُجهِّز القلعة من أجلنا. كان أبي رجلًا ذا كبرياء وعزة نفس، وحينما أراد فيرناندو أن يُهديني عدة آلاف من الدولارات من أجل جهاز عرسي، رفض والدي وعنَّفه بشدة. لم يسمح لي حتى بأن أحصل على خاتم أو أي هدايا من فيرناندو. وعندما أبحر فيرناندو إلى إيطاليا، أتيتُ هنا إلى المدينة وحصلتُ على وظيفة صرافة في محل للحلوى.

منذ ثلاثة أيام خلت، تلقيتُ رسالة من إيطاليا، أُعيد توجيهها من بيكيبسي إليَّ هنا، وقد كُتب فيها أن فيرناندو قد مات في حادث أثناء ركوبه جندولًا.

هذا هو سببُ حدادي. قلبي، يا سيد دونوفان، سيبقى دومًا معه في قبره. أخشى أنني قد أضجرتُك بصُحبتي يا سيد دونوفان، لكنني لا أقدر على إعطاء اهتمامي لأي شخص أيًّا كان. ينبغي ألا أحرمك من مرحك وأصدقائك القادرين على إسعادك وتسليتك. ربما تُفضل أن نعود الآن إلى النُّزل؟»

والآن، يا فتيات، إذا أردتُن أن تجذبن انتباه شابٍّ تجاهكن بقوة، فقط أخبروه بأن قلبكن راقد في قبر رجلٍ آخر. فالشباب سارقو قبور بالفطرة. اذهَبن واسألن أي أرملة. يجب الإقدام على فعل شيءٍ ما من أجل استعادة هذا العضو المفقود لهؤلاء الملائكة الحزانى المرتديات فساتينَ مصنوعة من الكريب دو شين. وبالتأكيد الرجالُ الأموات سيِّئو الحظ على كل المستويات.

قال السيد دونوفان برقَّة: «أنا شديد الحزن من أجلك. لا، نحن لن نعود أدراجنا إلى النُّزل الآن. ولا تقولي إنكِ لا تملكين أصدقاءً في هذه المدينة يا آنسة كونواي. أكرر لكِ مدى حزني، وأريدكِ أن تعتبريني صديقًا لكِ، وأنا في غاية الأسف لحزنكِ.»

مسحَت الآنسة كونواي عينَيها بمنديلها، ثم قالت: «أنا أملك صورته معي هنا في مدلاة قلادتي. أنا لم أُرِها أحدًا من قبل، لكنني سأريك إياها يا سيد دونوفان، لأنني صرتُ مقتنعة بأنك صديقٌ حقيقي.»

أطال السيد دونوفان النظر باهتمام كبير في الصورة الموجودة في المدلاة التي فتحتها الآنسة كونواي له. إذ يمتلك الكونت مازيني وجهًا يجذب الانتباه. لقد كان وجهًا ناعمًا وساطعًا وذكيًّا ووسيمًا؛ إنها ملامح رجل مبتهج السريرة قوي الشكيمة، من المحتمل أن يكون قائدًا بين صُحبته.

ثم قالت الآنسة كونواي: «لديَّ صورة فوتوغرافية أكبر محفوظة داخل إطار في غرفتي. وحينما نعود سأُريك إياها. ذلك كل ما تبقى لي ليُذكرني بفيرناندو. لكنه سيظل إلى الأبد كامنًا في قلبي، ولا ريب في ذلك.»

صار لدى السيد دونوفان مهمة تَحتَّم عليه القيام بها، ألا وهي أن يحل محل الكونت التعيس الحظ داخل قلب الآنسة كونواي. فلقد حثه إعجابه بها على إنجاز تلك المهمة. غير أن تلك المهمة لم تبدُ صعبةً بالنسبة إليه. فقد لعب دور الصديق المتعاطف لكن المبتهج،

ونجح فيه بجدارة وبراعة لدرجة أنهما قضيا نصف الساعة التالية في الحديث أمام طبقَين من الآيس كريم، رغم أن ذلك الحزن البادي في عينَيها الكبيرتَين الرماديتَين لم يقلَّ بعدُ.

وقبل أن يفترقا في رَدهة النُّزل في ذلك المساء، صعدَت إلى الأعلى مُهرولة، ثم عادت إليه ومعها إطار الصورة المُحاط، بحب، بوشاحٍ حريري أبيض. تطلَّع السيد دونوفان إلى الصورة بنظراتٍ غامضة.

بعدها قالت الآنسة كونواي: «لقد أهداني تلك الصورة في الليلة التي غادر فيها إلى إيطاليا. وصنعت الصورة التي في المدلاة من تلك الصورة.»

فردَّ عليها السيد دونوفان، بمودة: «إنه رجلٌ حسن الطلة. هل يناسبكِ يا آنسة كونواي أن تمنحيني شرف صُحبتك إلى كوني آيلاند بعد ظهر يوم الأحد القادم؟»

بعد مرور شهر، أعلنا خطبتَهما للسيدة سكوت وبقية سكان النُّزل. لكن الآنسة كونواي استمرَّت في ارتداء الثياب السوداء.

وبعد أسبوع من الإعلان، جلسا على المقعد نفسه بتلك الحديقة التي تُوجد وسط المدينة، ورسمَت أوراق الشجر المرفرفة صورةً باهتة ومتحركة لهما في ضوء القمر. إلا أن دونوفان ارتسمَت على وجهه نظرة كآبة شاردة الذهن طوال اليوم. لقد كان مُبالغًا في صمته هذه الليلة إلى حد أن لسان محبوبته لم يقدر أن يكبح بعد الآن الأسئلة التي يقترحها قلبها.

«ما الأمر يا آندي، أنت عابس وكئيب للغاية اليوم؟»

«لا شيء يا ماجي.»

«أنا أعرفك جيدًا. ويمكنني أن ألاحظ هذا. لم تتصرف هكذا قَط من قبلُ. ما الأمر؟»

«ليس هناك شيءٌ مهم يا ماجي.»

«هناك خطبٌ بك؛ وأنا أريد أن أعلمه. أراهن أن ثمَّة فتاةً أخرى تشغل بالك. حسنًا. لمَ لا تذهب وتحصل عليها إذا أردتَ؟ أبعِد ذراعك عني من فضلك.»

قال آندي بحكمة: «حسنًا، سأخبركِ بما لديَّ، لكن أشك أنكِ ستفهمين الأمر بالضبط. لقد سمعتِ من قبلُ عن مايك سوليفان، أليس كذلك؟ والجميع ينادونه «مايك الكبير» سوليفان.»

«لا أعرفه. ولا أريد أن أعرفَه إذا كان يجعلك تتصرف هكذا. من هو؟»

قال آندي بإجلال: «إنه أهم رجل في نيويورك. يمكنه أن يفعل أي شيء يريده في الحزب الديمقراطي أو أي كيانٍ سياسي كبير آخر. إنه طويل جدًّا وعريض مثل النهر

الشرقي. إذا قلتِ أي شيءٍ سيئ عن مايك الكبير، فستجدين مليون شخص يدقون عظامك في ثوانٍ معدودة. لقد زار بلده القديم من مدة مضت، فاختبأ الملوك في جحورهم كالفئران.

مايك الكبير صديق لي. وأنا لست ورقةً رابحة فيما يتعلق بالتأثير في هذه المنطقة، لكن مايك صديقٌ جيد للرجال العاديين أو الفقراء مثلما هو مع أصحاب النفوذ. لقد قابلتُه اليوم في شارع باوري، وخمِّني ماذا فعل. جاء وصافحني. ثم قال: «لقد كنتُ أراقب أداءك. وأنت حقًّا تقوم بعملٍ جيد في نطاق منطقتك، وأنا فخورٌ بك. ماذا ستشرب؟» ثم بدأ يدخن سيجاره، وأنا أخذتُ كأسًا بها مزيجٌ من الويسكي والصودا. أخبرتُه أنني سوف أتزوج في خلال أسبوعَين. فردَّ عليَّ: «أرسل لي بطاقة دعوة يا آندي، وسأضع الأمر في اعتباري، وسوف أحضُر إلى حفل زفافك.» هذا ما قاله لي مايك الكبير؛ وهو دائمًا يفعل ما يقوله.

أنتِ لن تفهمي الأمر يا ماجي، لكَم أودُّ أن يأتي إلى حفل زفافنا ولو كان ذلك مقابل أن تُقطع إحدى يديَّ. إن ذلك سيكون أكثر أيامي فخرًا في حياتي. فهو عندما يأتي لزفاف شخصٍ ما، يصبح ذلك حديث الساعة إلى الأبد. وهذا هو السبب الذي قد يجعلني أبدو مغتمًّا اليوم.»

فقالت ماجي باستخفاف: «لماذا لا تدعوه إذن إذا كان بكل تلك الأهمية لك؟»

فأوضح آندي في أسًى: «هناك سببٌ يمنعني من دعوته. ينبغي ألا يأتي إلى هنا لسببٍ ما. ولا تسأليني ما هو؛ إذ لن أتمكن من إجابتكِ.»

فقالت ماجي: «أوه، أنا حقًّا لا أكترث للأمر. إنه بالطبع شيءٌ يخص السياسة. لكنه ليس بسببٍ كافٍ يمنعك من أن تبتسمَ في وجهي.»

فبادر يسألها: «يا ماجي، هل مكانتي ومَعزَّتي عندكِ بقدْر ما كُنتِ تُكنِّين لـ... للكونت مازيني؟»

انتظر مدة ليست بالقصيرة، لكن ماجي لم تردَّ عليه. وفجأةً مالت على كتفه، وشرعَت في البكاء بحرقة وجسدها يرتجف من شدة الانتحاب، ثم أمسكَت بذراعه قابضةً عليها بقوة، وتبلل فستان الكريب دو شين بالدموع.

نحَّى آندي مشكلته جانبًا، وبدأ يُهَدئ من رَوْعها: «فلتهدئي، فلتهدئي! ما خطبكِ الآن؟»

فنشجَت ماجي وهي تقول: «آندي. لقد كذبتُ عليك، وأنت لن تتزوَّجني أبدًا، أو تحبَّني بعد الآن. لكن أشعر بأنني يجب أن أخبرك بالأمر. آندي، لم يكن هنالك أي كونت على الإطلاق. لم يكن لديَّ أيُّ عاشق في حياتي من قبلُ. لكن كل الفتيات الأخريات كان

لديهن عُشاق؛ وكن يتحدثن عنهم؛ مما زاد من حب هؤلاء العُشاق لهن. وكذلك يا آندي أنا أبدو أنيقة في اللون الأسود، أنت تعلم ذلك. لذا ذهبتُ إلى محل صور فوتوغرافية واشتريتُ منه تلك الصورة، وطلبتُ منهم صنع واحدةٍ أخرى من أجل المدلاة، واختلقتُ كل تلك القصة بشأن ذلك الكونت، وبشأن مقتله، وذلك من أجل أن أرتديَ ثيابًا سوداء. لا يمكن لأحد أن يحب كاذبًا، وأنت سوف تهجرني يا آندي، ولسوف أموت من العار. أوه، لم أُحبَّ أحدًا إلا أنت، وهذا كل ما في الأمر.»

وبدلًا من أن يدفعها بعيدًا عنه، وجدَت ذراع آندي تضمها إليه أكثر. نظرت إليه فرأت وجهه صافيًا ومبتسمًا.

«هل يمكن ... هل يمكن أن تسامحني يا آندي؟»

فأجاب آندي: «بالتأكيد. ذلك ليس بالأمر الجلَل. فلتعُد إلى قبرك أيها الكونت. لقد أوضحتِ كل شيء يا ماجي. كنتُ آمل أن تفعلي ذلك قبل يوم الزفاف. أيتها الشقية!»

وبعد أن تأكدَت ماجي تمامًا من أنه قد سامحها، ابتسمَت بخجل وقالت: «هل صدَّقتَ كل تفاصيل قصة الكونت يا آندي؟»

فردَّ آندي، وهو يُخرج علبة السيجار من جيبه: «حسنًا، لا، بالطبع؛ لأن الصورة التي تحملينها في مدلاتك هي صورة مايك الكبير.»

قصة عجيبة

في الجزء الشمالي من مدينة أوستن، كانت تعيش عائلة محترمة اسمها سموذرز. تكوَّنَت تلك الأسرة من جون سموذرز، وزوجته، وهو نفسه، وابنتهما الصغيرة ذات الأعوام الخمسة، ووالديها، وبذلك يصبح عددهم ستة أشخاص من تعداد سكان المدينة إذا ما عددناهم بحسبةٍ خاصة، لكنهم فقط ثلاثة أشخاص بالعدد الفعلي لهم.

في ليلةٍ ما، وبعد تناولهم وجبة العشاء، أصيبت الفتاة الصغيرة بمغصٍ شديد؛ لذا هُرع جون سموذرز إلى وسط المدينة ليحضر الدواء.

لكنه لم يعُد قَط.

تعافت الفتاة الصغيرة من مرضها، وبمرور الوقت كبرت وصارت امرأة.

حزنَت الأم حزنًا رهيبًا على اختفاء زوجها، ولم تمضِ سوى ثلاثة أشهر تقريبًا حتى تزوجَت مرةً أخرى، ورحلَت إلى مدينة سان أنطونيو.

تزوجَت الفتاة الصغيرة هي الأخرى في الوقت المناسب، ومرَّت السنوات وصارت لديها فتاةٌ صغيرة في الخامسة من عمرها.

كانت لا تزال تسكن المنزل نفسه الذي كانت تعيش به عندما رحل أبوها ولم يعُد قط.

وفي ليلةٍ ما، وبمحضِ مصادفة غريبة، أصيبت الفتاة الصغيرة بمغصٍ مصحوب بتشنُّج في يوم ذكرى اختفاء جون سموذرز، الذي كان سيكون الآن جدَّها لو كان على قيد الحياة ولديه وظيفةٌ ثابتة.

فقال جون سميث (إذ لم يكن سواه مَن قد تزوجَته): «سأذهب إلى وسط المدينة لأُحضر دواءً من أجلها.»

فصاحت زوجتُه: «لا، لا يا عزيزي جون. أنت كذلك قد تختفي إلى الأبد، وتنسى أن تعودَ إلينا.»

لذا لم يذهب جون سميث، وجلسا معًا بجوار سرير الصغيرة بانسي (إذ كان ذلك اسم بانسي).

بعد مدة قصيرة، ازدادت حالة بانسي سوءًا، وحاول جون سميث مجددًا أن يذهب ليأتي بدواء، لكن زوجته لم تتركه يرحل.

فجأة انفتح الباب، ودخل الغرفة رجلٌ عجوزٌ مُنحني الظهر، شعره أبيضُ طويل.

فقالت بانسي: «مرحبًا يا جَدِّي.» فقد تعرفَت عليه قبل أي شخصٍ آخر.

أخرج العجوز زجاجة دواء من جيبه، وأفرغ منها مقدار ملعقة وأعطاها لبانسي.

تحسنَت حالتُها في الحال.

ثم قال جون سموذرز: «لقد تأخرتُ قليلًا لأنني انتظرتُ قدوم الترام.»

زائرا أركاديا

هناك فندق في شارع برودواي غاب عن أنظار وانتباه مروِّجي المنتجعات الصيفية. إنه يتميز بكِبَر مساحته، واعتدال درجة الحرارة داخله. كما أن غُرَفَه مغطاة بألواح خشب البلوط الداكن التي تحافظ على البرودة. وكذلك يمنحه النسيم العليل الطبيعي والشجيرات اليانعة الخضار مزايا العيش بمنطقة جبال أديروندك السياحية، مع تجنُّب عيوبه. ويمكن للنزيل أن يتسلق سلاله العريضة، أو يصعد إلى الأعلى على نحوٍ حالم باستخدام مصاعده — التي داخلها يُوجَد مرشدون على شكل أزرارٍ نحاسية — حاملًا معه الكثير من المتعة التي لن يظفر بها أبدًا متسلقو جبال الألب. وكذا يُوجد لديهم طباخٌ ماهر سيُعد لك سمك الترويت على نحوٍ أفضل مما يُعد في منطقة جبال وايت، ومأكولات بحرية من شأنها أن تنافس ما يُقدم في منطقة أولد بوينت كامفرت — يا ألله! — وطبق لحم الغزلان الذي يملك القدرة على إذابة قلب المناصرين لمنع صيد الحيوانات.

قليلون هم مَن عرفوا تلك الواحة وسط صحراء مانهاتن الحارة في الصيف. وفي خلال شهر يوليو، ستجد مجموعات النزلاء القليلة المتناثرة بترف داخل الأجواء الباردة لغرفة الطعام المبهرة، يحدِّقون بعضهم في بعض عبْر كل تلك الطاولات الفارغة المهدرة، وأعينهم الباسمة تبعث بنظرات التهنئة الصامتة على ذلك.

يحوم في ذلك الفضاء بنشاط النُّدل، الذين يزيد عددهم عن المطلوب، والذي يراقبون الضيوف ويوفرون لهم كل ما يريدونه حتى قبل أن يطلبوه. وتبدو درجة الحرارة منعشة وكأن المرء في شهر أبريل. والسقف مرسوم عليه بألوان الماء كي يُجسِّد سماء صيف تعبُر خلالها السحب الرقيقة، ولا تختفي مثلما هو الحال مع سُحب الطبيعة التي نأسف لزوالها.

يبدو الضجيج البعيد الجميل لبرودواي في مخيلة الزوار السعداء مثل هدير شلال يملأ الغابة بصوته الباعث على الاسترخاء. ومع كل صوت خطوات أقدامٍ غريبة، يلتفت الزوار بقلق لافت؛ خشية أن يكتشف العالم ملاذهم الهادئ ويتعرض للغزو من قِبل هؤلاء المتعطشين للمتعة، الذين لا يتوانَون في مطاردة الطبيعة إلى أعمق مخابئها.

وهكذا خبأَت فرقة الخبراء تلك نفسها في هذا الفندق المنعزل، مُحتميةً من القيظ الحارق في الخارج، ومستمتعةً لأقصى درجة بمباهج الجبل وشاطئ البحر التي جلبها لهم الفن والمهارة على طبق من ذهب.

وفي شهر يوليو من هذا العام، أتت إلى الفندق للإقامة امرأة قدَّمَت إلى موظف الاستقبال بطاقتها التي كان مكتوبًا عليها اسمها، الذي كان «السيدة إلويز دارسي بومون».

كانت السيدة بومون من نوعية النزلاء المفضلين لفندق لوتس. إذ حث أسلوبها الراقي الذي يليق بنخبة القوم، وطيبتها الحقيقية والشديدة، موظفي الفندق على أن يصيروا في خدمتها ورهن إشارتها. فتسابق عمال الفندق لنيل شرف الرد على جرس ندائها؛ وبدا أن الموظفين، لولا عدم ملكيتهم للفندق، لسلَّموها الفندق بجميع مقتنياته، أما النزلاء الآخرون، فاعتبروها بمنزلة تجسيد للسحر الأنثوي الخالص، والجمال اللذَين أكملا مثالية الفندق.

تلك النزيلة الفائقة الروعة كانت بالكاد تخرج من الفندق. كانت عاداتها متوافقة في هذا الشأن مع تلك الخاصة برواد فندق لوتس المميزين. إذ من أجل أن يتمتع المرء بتلك الضيافة السارة، وجب عليه أن ينسى المدينة وكأنها على بعد عدة فراسخ منه. وفي المساء يصبح ملائمًا الخروج في نزهة قصيرة إلى الأماكن المجاورة للفندق؛ لكن في أثناء النهار الشديد الحرارة يختبئ النزيل داخل الظل البارد لفندق لوتس مثل سمكة الترويت التي تبقى داخل الأعماق الشفافة لبِركتها المفضلة.

وعلى الرغم من وجود السيدة بومون بمفردها في فندق لوتس، احتفظَت بمكانتها كملكة، وحدتها تأتي فقط بحكم منصبها. كانت تتناول فطورها في العاشرة صباحًا، وكان يحفل مظهرها حينها بالرزانة واللطافة والرقة؛ إذ تتلألأ بنعومة في الضوء الخفيف مثل زهرة ياسمين في وقت الغسق.

إلا أن بهاء السيدة بومون لم يكن يصل إلى ذروته إلا على العشاء. حيث اعتادت حينئذٍ أن ترتدي ثوبًا زاهيًا ملائكيًّا كالضباب الرقيق الصاعد من شلالٍ خفي في وادٍ جبلي. لا أجد كلمات يمكن أن تُوفِّي ذلك الثوب حقَّه. كانت تُوجد دائمًا ورود حمراء فاتحة على مقدمته المزيَّنة بالدانتيل. لقد كان ثوبًا ينظر إليه كبير النُّدل باحترام ويحييه عند باب غرفة الطعام.

وتنبثق إلى عقلك باريس عندما تراه، وربما الكونتيسات الغامضات بسحرهن، وبالطبع قصر فيرساي والمبارزات بالسيوف، والأداء المسرحي للممثلة الشهيرة السيدة فيسك. وقد ذاعت إشاعة غير معلومة المصدر داخل أرجاء فندق لوتس بأن السيدة بومون امرأة جالت العالم كله، وأنها تؤثِّر بشكلٍ خفي في الشئون الدولية لصالح روسيا. ولكونها قد جابت أجمل أماكن العالم، لم يكن من المستغرب إذن أنها ارتأت في الأنحاء المصقولة لفندق لوتس البقعة الأكثر ملاءمة في أمريكا، في سبيل إقامة مريحة في مواجهة حرارة منتصف الصيف.

وفي اليوم الثالث لبقاء السيدة بومون في الفندق، دخل نزيلٌ جديد إلى الفندق وحَجَز غرفة. وللحديث عن صفاته بشكلٍ منهجي، نقول إن ملبسه كان ذا طابعٍ هادئ، وكانت ملامحه جيدة ومتسقة، ودل تعبير وجهه على رجلٍ رزين وخبير. أخبر الرجل موظف الاستقبال بأنه سوف يمكث ثلاثة أو أربعة أيام، واستفسر عن رحلات البواخر الأوروبية، ثم ذاب في ذلك الفراغ البديع لذلك الفندق الاستثنائي، باديةً عليه النظرة الراضية لمسافر وصل إلى نُزله المفضَّل.

كان اسم ذلك الشاب — ولسنا بصدد التشكيك في موثوقية معلومات تسجيله — هو هارولد فارينجتون. انجرف سريعًا في خصوصية وهدوء الحياة بفندق لوتس بأسلوب لبق وهادئ؛ بحيث لم يشعر بوجوده بقية النزلاء الساعين للراحة. وتناول طعامه في الفندق واستمتع بأكله المميز، وتنعَّمَ بالهدوء الجميل مع رفقائه السعداء الحظ الآخرين. وفي يومٍ واحد، أصبح مثل النزلاء الآخرين يخشى أن يكتشف المطاردون اللاهثون خلف الراحة في برودواي، ذلك المأوى القريب المخفي عن الأنظار، ويدمروه.

وبعد الانتهاء من وجبة العشاء في اليوم التالي لقدوم هارولد فارينجتون، أسقطَت السيدة بومون منديلها في أثناء سيرها. فانحنى السيد فارينجتون والتقطه لها من دون أن يُبدي إلحاح شخص يسعى إلى التعرف.

ربما كان هنالك تفاهمٌ طبيعي روحاني بين النزلاء المميزين لفندق لوتس. ومن المحتمل أنهم ينجذبون بعضهم لبعض من خلال حقيقة أنهم مشتركون في حظهم الجيد، المتمثل في اكتشافهم لوجود أفضل المنتجعات الصيفية داخل فندق ببرودواي. تبادل الاثنان كلماتٍ رقيقة في كياستها ومترددة في التخلي عن النبرة الرسمية في الحديث. ومثلما هو الحال دائمًا في الأجواء الملائمة لمنتجع صيفي حقيقي، تنامت معرفتهما، وازدهرَت وأثمرَت على الفور كما لو كانت نباتًا غريبًا من صنع ساحر. ولدقائقَ معدودة، وقَفا في الشرفة الواقعة في نهاية الرواق، وأخذا يتبادلان أطراف الحديث.

قالت السيدة بومون، وعلى شفتَيها ابتسامةٌ خافتة لكن لطيفة: «المرء منا يسأم من المنتجعات القديمة. ما الفائدة من السفر إلى الجبال أو شاطئ البحر للفرار من الضوضاء والأتربة، إذا كان الأشخاص المتسببون أنفسُهم فيهما سوف يتبعوننا إلى هناك؟»

فقال فارينجتون بحزن: «حتى في المحيط، سيلاحقكِ هؤلاء الغوغائيون. فتتحول أكثر البواخر روعة إلى ما أشبه المَعَديات. فلترحمنا السماء عندما يكتشف المصيفون أن فندق لوتس أكثر انعزالًا وهدوءًا من أماكن مثل أرخبيل الألف جزيرة أو جزيرة ماكينا.»

فردَّت السيدة بومون بابتسامة وتنهيدة: «على أي حال، آمل أن يبقى سرُّنا آمنًا ولو لأسبوع. لا أعلم أين سأذهب لو جاءوا إلى فندق لوتس العزيز. لا أعلم سوى مكانٍ واحدٍ مبهج في فصل الصيف، وهذا المكان هو قلعة الكونت بولينسكي، أعلى جبال الأورال.»

فقال فارينجتون: «لقد سمعتُ أن بلدة بادن–بادن ومدينة كان أصبحتا شبه مهجورتَين هذا الصيف. فالمنتجعات القديمة بدأَت تفقد بريقها بمرور الوقت. لذا ربما يوجد الكثير مثلنا ممن يسعَون خلف البقع الهادئة التي تغفُل عنها الأغلبية.»

فقالت السيدة بومون: «لقد عاهدتُ نفسي أن أبقى ثلاثة أيام إضافية في هذا الملجأ المبهج. ففي يوم الإثنين، سوف تُبحر سفينتي التي تُدعى «ذا سيدريك».»

تجلى بعض الندم في عينَي فارينجتون. وقال: «أنا كذلك يجب أن أغادر يوم الإثنين، لكن لن أسافر إلى الخارج.»

فهزَّت السيدة بومون إحدى كتفَيها المستديرتَين بإيماءة غريبة.

«في النهاية لا يمكن للمرء البقاء هنا للأبد، برغم روعة الفكرة. إن القصر قد تجهَّز لحضوري منذ ما يزيد على شهر. تلك الحفلات المنزلية التي يجب أن يقيمها الشخص منا ... يا لها من هُراءٍ مزعج! لكنني لن أنسى أبدًا هذا الأسبوع الذي قضيته في فندق لوتس.»

فقال فارينجتون بصوتٍ خفيض: «ولا أنا كذلك، ولن أسامح سفينة «ذا سيدريك» أبدًا.»

في مساء يوم الأحد، بعد مرور ثلاثة أيام، جلسا على طاولة صغيرة في الشرفة نفسها. وأحضر نادلٌ حذرٌ لهما كأسَي شراب صغيرتَين وبعض قطع الثلج.

ارتدَت السيدة بومون الثوب المسائي الجميل نفسه، الذي اعتادت أن تلبسه كل يوم على مائدة العشاء. وبدت مستغرقةً في التفكير. وبالقرب من يدها المسنَدة على الطاولة كانت تُوجد حقيبة السهرة الصغيرة الخاصة بها. وبعد أن انتهت من تناول مشروبها ومضغ الثلج، فتحَت الحقيبة وأخرجَت منها دولارًا.

قالت وعلى وجهها الابتسامة التي أَسَرَت كلَّ مَن في فندق لوتس: «أريد أن أخبرك بشيء يا سيد فارينجتون. سوف أرحل صباح الغد قبل وجبة الإفطار، لأن عليَّ العودة لعملي. أنا أعمل خلف طاولة بيع الجوارب في محل كاسيز ماموث، وإجازتي تنتهي غدًا في الساعة الثامنة. وهذا الدولار هو آخر دولار أمتلكه إلى أن أحصل على راتبي المكوَّن من ثمانية دولارات في مساء السبت القادم. أنت رجلٌ نبيلٌ حقيقي، وقد كنتَ لطيفًا معي، وأردتُ أن أخبرك بالحقيقة قبل أن أغادر.

لقد ظللْتُ أدَّخر من راتبي مدة عامٍ كامل، فقط من أجل تلك الإجازة. أردتُ أن أقضيَ على الأقل أسبوعًا واحدًا كسيدةٍ مرموقة؛ فلربما لا يحدث ذلك ثانيةً. أحببتُ أن أستيقظ وقتما أشاء بدلًا من الهرولة كل يوم في السابعة صباحًا، وابتغيتُ أن أُجرِّب عيشَ حياةٍ كريمة، وأن أرى أشخاصًا يقومون على رعايتي، وأن أرن جرسي من أجل أن أطلب أشياءً كما يفعل الأثرياء. وها أنا قد أتممتُ ذلك، وقضيتُ أسعد وقتٍ توقَّعتُ أن أناله في حياتي. سوف أعود لعملي ولغرفة نومي المتواضعة وأنا أشعر بالرضا لعامٍ آخر. كان عليَّ أن أُطلِعكَ على ذلك يا سيد فارينجتون؛ لأنني ... لأنني شعَرتُ بأنك معجبٌ بي إلى حدٍّ ما، وأنا ... أنا أبادلك الشعور نفسه. أوه، لم أستطِع منع نفسي من خداعك حتى الآن؛ حيث بدا الأمر كله وكأنه قصةٌ خيالية ساحرة بالنسبة إليَّ. لذا واصلتُ الحديث عن أوروبا والأشياء التي قرأتُ عنها بخصوص البلدان الأخرى، وجعلتُك تظن أنني امرأةٌ ثرية.

وهذا الثوب الذي أرتديه هو الوحيد الذي أملكه ويناسبني، ولقد اشتريتُه من محل «أودود آند ليفينسكي» بالتقسيط.

كان ثمنه ٧٥ دولارًا، وصُنِع خصوصًا ليناسب مقاسي. لقد دفعتُ ١٠ دولارات، وسوف أدفع دولارًا كل أسبوع حتى أنتهيَ من ثمنه. وهذا هو كل ما لديَّ لأقوله لك يا سيد فارينجتون، ما عدا أن اسمي الحقيقي هو مامي سيفيتر وليس السيدة بومون، وأشكرك على حسن انتباهك لحديثي. هذا الدولار سوف يُسدِّد ثمن القسط الأسبوعي لفستاني غدًا. أظن أنني سأصعد إلى غرفتي الآن.»

أنصت هارولد فارينجتون إلى ما قالته أجمل نزيلة بفندق لوتس بوجهٍ غير متعاطف. وريثما انتهت من حديثها، سحب هارولد دفترًا صغيرًا يشبه دفتر الشيكات من جيب مِعْطفه. ثم بدأ يكتب على ورقةٍ فارغة منه مستخدمًا قلمَ رصاصٍ صغيرًا للغاية، ثم قطع الورقة ودفعها تجاه رفيقة مجلسه، وبعدها أخذ الدولار.

وقال: «أنا كذلك عليَّ أن أذهب إلى العمل في الصباح، وقد أبدأ العمل من الآن. ها هو إيصال بذلك الدولار الخاص بالقسط. أنا أعمل كجامع أقساط لمحل «أودود آند ليفينسكي» من ثلاث سنوات. أليس غريبًا أن كلَينا كان لديه الفكرة نفسها الخاصة بقضاء إجازته؟ كثيرًا ما رغبتُ أنا كذلك في المكوث بفندقٍ فاخر، وادَّخرتُ المقابل من أجري الذي يصل إلى ٢٠ دولارًا، وتَم لي ما أردتُ. مامي، ماذا عن رحلة إلى كوني آيلاند مساء السبت على قارب ... ما رأيك؟»

لَمع وجه السيدة إلويز دارسي بومون المزعومة لدى سماعها ذلك.

«أوه، بالطبع سآتي يا سيد فارينجتون. محل عملي يُغلَق في الساعة الثانية عشرة أيام السبت. أعتقد أن كوني آيلاند سيكون مكانًا رائعًا، رغم أننا قضينا أسبوعًا كاملًا هنا مع الأغنياء.»

أسفل الشرفة، ارتفع صوتُ ضوضاء المدينة التي يخنقها الحر الشديد في إحدى ليالي يوليو. بينما سادت الأجواء المعتدلة الباردة داخل فندق لوتس، وكان النادل يقف متأهبًا في مكانٍ قريب لتلقي أي إيماءة، لينتفضَ في خدمة السيدة ورفيقها.

وعند مدخل المِصعد، استرجع فارينجتون ورقة إيصاله، وصعِدَت السيدة بومون لآخر مرة إلى غرفتها. لكن قبل أن يصلا إلى كهفهما المحصَّن من الضوضاء، قال لها: «فقط انسي هارولد فارينجتون هذا، اتفقنا؟ اسمي هو ماكمانوس ... جيمس ماكمانوس. البعض يناديني جيمي.»

فردَّت السيدة: «طابت ليلتك، يا جيمي.»

هنداوي